

هجمات الروم على البحريّة

على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى

للدكتورة عليّة عبد سمیع الجزوري

أستاذة تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية البنات جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية



هجمات الروم على البحريّة

على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى

للدكتورة عليّة عبد السميع الجنزوري

أستاذة تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية البنات جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ،
وَأَن لِّلَّهِ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »

صدق الله العظيم

الأستاذة الدكتور
الشيخ عفيف

(هجرات الروم)

تقديم

كان المجاهدون المسلمون أشداء في الحرب ، صامخين للعدو صمود الجبال ، وكيف لا يكون ذلك حالهم وقد كان القرآن شعارهم والتقوى لباسهم حتى شهد لهم أعداؤهم بذلك (١) .

وإذا كنا سنتعرض في موضوعنا هذا لجانب من جوانب جهاد المسلمين في سبيل الله في جزء هام من أجزاء الوطن العربي الاسلامي كله ، ألا وهو مصر ، مصرنا الغالية الحبيبة ، فإننا سنتعرض لجهاد مصر في مواجهة عدو هدها باستمرار من جهة البحر لا البر ، فمماذا كان مصيره ومماذا كان موقفها ؟ ثم لماذا هذا الاصرار على الهجمات البحرية بالذات على الشواطئ المصرية طوال العصور الوسطى ؟

هل كان ذلك راجعا الى أن هذا العدو الممثل في الروم (٢) «البيزنطيين» أدركوا أن العرب قوم مراكبهم الخيول وأنهم يجهلون ركوب البحر ، وأن العبارة ليست بامتلاك شواطئ طويلة تمتد بحذاء البحر في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وإنما العبارة بالمقدرة على الدفاع عن هذه الشواطئ وبعبارة أخرى هل استغل الروم نقطة الضعف في حركة التوسع العربية إبان الدور الأول من أدوارها وهي عدم وجود أسطول قوى يحمي فتوحات العرب

(١) وصف أحد بطارقة القبط العرب الذين قدموا لفتح مصر فكان مما قاله عنهم أنهم « أقواماً قد هجروا الدنيا ، فمنهم القاريء ، ومنهم الذاكِر ، لباسهم الصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم » الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٨٠ - ٨١) .

(٢) يعرف الروم بيني الاصفر ، والاصفر هو روم بن العيص بن اسحاق (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٩ مادة الروم ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٩٢) . وسوف نلتزم في معالجتنا للموضوع الذي بين أيدينا بتسمية البيزنطيين باسم الروم وهي التسمية التي وصفوا بها في ظل الاسلام وفي القرآن الكريم ، خاصة وأن موضوعنا يتناول هجماتهم على شواطئ مصر الاسلامية .

البرية ، لذا شددوا هجماتهم البحرية خاصة على مصر (٣) ؟ وربما أيد هذا الرأي ما قيل عن الخليفة عمر بن الخطاب عندما ألح عليه معاوية بن أبي سفيان في غزو قبرس أنه كتب الى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولايتها المسلمين « أن صف لي البحر وراكبه فكتب اليه : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، إن ركذ خرق القلوب وإن تحرك أراع العقول ، وهم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا فرق ، فلما قرأ عمر الكتاب كتب الى معاوية « والله لا أحمل فيه مسلما أبدا » (٤) .

أم أن ذلك يرجع الى اهتمام الروم بالبحر المتوسط « بحر الروم » (٥) والى أن يظلوا دائما سائتة ؟

والراجح أن العاملين تضافرا فى اصرار الروم على استمرار هجماتهم

(٢) د . عبد الرحمن الرافعى - د . سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧١ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ . بل إن أحد المراجع الحديثة ذكر أن عمر أضاف قائلا : أن أى جندي مسلم أعز الى نفسه من كنوز اليونان جميعا .
"How can I permit my soldiers to sail upon this unfaithful and cruel sea ! By God a single Muslim is dearer to me than all the treasures of the Greeks "

Aly Mohamed Fahmy : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean, p: 73.

(٥) بحر الروم أضيف الى اللوم لسكنى أمهم عليه من شماليه ، ويعبر عنه بالبحر الرومى أيضا ، وقد يعبر عنه بالبحر الشامى ، لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه ، ومخرجه من المحيط من بحر أوقيانوس بين الاندلس وبر العدو من بلاد المغرب . ويسمى هناك بحر الزقاق ، وربما قيل زقاق سبته لجوارته لها ، وهو هناك فى غاية الضيق (القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١) . وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فإن العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة وسائر البحر يعرض فى شطوطها المغاوير والمقاطع وتتردد فيه سفن المسلمين والروم يعبر كل فريق الى جانب الآخر سواء . فيغتمون وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك فيكون حريهم فى الماء (الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٧١) . ويبحر الروم عدة جزر ذكرها القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ح ٥ ص ٣٧٠ - ٣٧٥ فقال (جزيرة قبرس - جزيرة رودس - جزيرة اقريطش - جزيرة المصطكى - جزيرة التغريب - جزيرة البريا - جزيرة صقلية - جزيرة سردانية - جزيرة فرسقة - جزيرة انكلطرة - جزيرة السناقر - جزيرة ميورقة - جزيرة يانسة وجزيرة قادس) .

على شيوخهم مصر ، ولو أن تلك الهجمات الدائمة كانت تعنى لدى الروم شيئا آخر أهم وأعمق وهو أنهم كانوا يعتبرون مصر « أغنى أقاليم الامبراطورية امدادا بالقمح » (٦) وبمعنى آخر « مخزن قمح القسطنطينية » (٧) بل انها كانت أغنى أقاليم الامبراطورية على الاطلاق وأكثرها قيمة من الناحية الاقتصادية (٨) .

وهذا ما عبر عنه عمرو بن العاص عندما حاول اقناع الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر حين قال : « يا أمير المؤمنين تأذن لى فى أن أصير الى مصر فاننا ان فتحناها كانت قوة للمسلمين ، وهى من أكثر الأرض أمولا . . . » (٩)

لذلك قيل أنه بعد أن فقدت دولة الروم مصر بعد فتح العرب لها « فقدت مصدر الثروة والقوة واضطرت أن تنكمش داخل حدود منطقة النفوذ الجغرافى للقسطنطينية » (١٠) .

فإذا أضفنا الى ذلك أن مدينة الاسكندرية كانت تلى فى المكانة

6. G. Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 95.

والمقصود هنا الامبراطورية البيزنطية .

7. Cam. Med. History. V. IV. Part 1. p. 19.

ويضيف ففس المرجع ص ٣٩ أنه بعد فتح العرب لمصر كشف أمر الاساطيل المحملة بالقمح التى كانت تحمل من الاسكندرية كمصدر أسلئى لامداد العاصمة البيزنطية .

8. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٩) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ . ولهذا فعندما فتح عمرو بن العاص مصر واتى خطابيه الى الخليفة عمر ، خر ساجدا وكتب الى عمرو « أن يحمل طعاما فى البحر الى المدينة يكفى عامة المسلمين حتى يصير الى ساحل الجار فحمل طعاما الى القلزم ثم حمله فى البحر فى عشرين مركبا ، فى المركب ثلاثة آلاف أردب وأقل وأكثر حتى وافى الجار » (اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٤) ومنذ ذلك الوقت استمرت مصر فى امداد الحجاز بالقمح .

(Aly. Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 16).

10. Louis Bréhier : Vie et Mort de Byzance, p. 57.

القسطنطينية مباشرة ، وربما تكون قد فاقتها فى أهميتها كمركز تجارى (١١) وأنها كانت بها أعظم كنائس الروم حتى أن هرقل (١٢) امبراطور الروم (٦١٠ - ٦٤١ م) عندما علم بتوجه العرب بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر قهلاً « لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية » (١٣) .

كذلك كانت مصر « تصنع السفن الحربية لها وللدولة البيزنطية » (١٤) وذلك بعد انتهاء الدور الأول من الفتوحات .

وحتى عندما استولى المسلمون على مصر وعلى بلاد الشام « لم تعترف الامبراطورية البيزنطية بضياح هذين الاقليمين بل اعتبرتهما واقعين تحت

(١١) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، ص ٥٢ ، د. وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، ص ٢٥٦ . هنا تذكر الاستاذة الدكتور سعاد ماهر ان تأسيس القسطنطينية ادى الى اضعاف الملاحة المصرية والتجارة الخارجية ، اذ تحولت صادرات الشرق الاقصى اليها عن طريق الخليج الفارسى ، ثم جزيرة العرب والشام على ظهر القوافل بدلا من عبورها البحر المتوسط . الا ان ذلك لم يطل أمراً ، اذ اضطر الامبراطور جستنيان فى القرن السادس الى العودة الى طريق البحر الاحمر والنفوس المصرية بعد أن قطع الفرس طريق القوافل الاتى من الخليج الفارسى ، وهكذا عادت للاسكندرية مكانتها الاولى واصبحت أعظم مدن البحر المتوسط ، وفاقت أهميتها كمركز تجارى أهمية القسطنطينية عاصمة الدولة .

(١٢) اسمه بالرومية أوقليس (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤١٧)

(١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ،

ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(١٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٤ . ويضيف نفس

المراجع أن الاسكندرية كانت مقر تلك الصناعة ، وأن هذه السفن الحربية كانت على نوعين ، نوع كبير الحجم ويمكن أن نسقيه اليوارج ، وتسع السفينة منها ألف رجل ، ونوع صغير ويمكن تسميته الطرادات وكانت الواحدة منها تسع مائة رجل كما كانت مهمتها السير السريع واللف حول السفن الكبرى . وقد ساعد على ازدهار صناعة السفن هذه أن مصر كانت تنبت نوعاً من الكتان تصلح أليافه صلاحية تامة لعمل الحبال وأدوات السفن فقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقيه « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه (الدقس) كانت تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى (القرص) » .

- ٧ -

احتلال عربى مؤقت ٠ وظلت تلك السياسة البيزنطية مطبقة حتى ٦٩٣ م /
٧٤ هـ وكان من آثارها أن بيزنطة لم تقم أى تمييز جمركى ضد مصر والشام
لأن التمييز الجمركى يعنى الاعتراف بأن مصر والشام بلاد أجنبية
عنها « (١٥) ٠

(١٥) د. وسام عبد العزيز : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة
الاموية ٠٠٠ هـ ٢٦٣ ٠

الباب الأول

الروم والشواطىء المصرية حتى موقعة ذات الصوارى

الفصل الأول : الروم والاسكندرية •

الفصل الثانى : موقعة ذات الصوارى •

الروم والاسكندرية

عندما فتح العرب حصن بابليون (١) في ابريل ٦٤١ م (٢) / ٢٠ هـ (٣) كانت الاسكندرية العاصمة (٤) ، هي الجزء الوحيد الذي تبقى للروم في مصر (٥) ، وهو ما عبر عنه الواقدي على لسان المقوقس عندما قال للعرب الفاتحين عندما تقدموا نحو الاسكندرية « ٠٠٠ وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف ، وقد بقى في أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا ٠٠ » (٦)

وقد مر بنا كيف كانت الاسكندرية تتمتع بمكانة دينية واقتصادية هامة بالاضافة الى انها كانت « المركز الأكثر تألقا للحضارة الهلينية والنمط العربي للحياة المصرية الدائم والخالد دون أى تغيير في وادى النيل » (٧) .

وكانت حتى القرن السابع الميلادي تعتبر المدينة الأولى في العالم — اذا استثنينا قرطاجة القديمة وروما — فقد كان فن البناء بها لا مثيل له في أى مكان آخر في ذلك الوقت ولا قبله (٨) . هذا الى أن الاسكندرية كانت كبرى

(١) يسميه الطبرى في تاريخه ، ج ٤ حوادث سنة عشرين (باب اليون)
(٢) كان ذلك يوم عيد الفصح يوم الاثنين ١٩ ابريل (د السيد الباز العرينى :
مصر البيزنطية ، ص ٤١٨) .

(٣) اختلف في السنة التي تم فيها فتح مصر فبينما يذكر ابن عبد الحكم انها فتحت عشرين (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٠) يذكر الطبرى انها فتحت اما سنة « ست عشرة أو عشرين » ويؤكد الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ٩ وابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١١١ فتح مصر في سنة عشرين هجرية .
(٤) د السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ، د ابراهيم العدوي ،
الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ٤٩ ،

Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 78.

5. Bernard Lewis : The Arabs in History, Hutchinson of London, p. 54.

(٦) الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

7. Christopher Dawson: Le Moyen-Age et les Origines de L'Europe, p. 146.

8. Alfred J. Butler : Arab Conquest of Egypt, p. 291.

المدن المصرية والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى طوال
عصرى البطالمة والرومان (٩) .

والواقع أن الروم كانوا يدركون جيدا أهمية الاسكندرية التجارية
والبحرية والبحرية ، ويعرفون جيدا أيضا أنه ان لم يتم استيلاء العرب
على الاسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها إذ تظل الاسكندرية
شوكة فى جانبهم (١٠) .

بدأ الروم يشعرون بخطورة الفتوحات العربية بصورة أكثر جدية عندما
نجح عمرو بن العاص فى دخول مصر وبدأ يتقدم نحو الاسكندرية وقد تجسم
ذلك الخطر فى قول ملكهم هرقل « ما بقاء الروم بعد الاسكندرية » (١١) وذلك
عندما أمر بالاستعداد حتى يخرج لقتال المسلمين بنفسه اعظاما للاسكندرية،
ولذا أمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم مؤكدا أنه « ما بقى للروم بعد
الاسكندرية حرمة » (١٢) .

وبمعنى آخر أدرك الروم أن الاسكندرية - وليس حصن بابلون - هى
مفتاح مصر الحقيقى ، فحشدوا فيها قواهم (١٣) .

وإذا كانت المصادر العربية المختلفة قد أفاضت وأسهبّت فى الحديث
عن فتح المسلمين للاسكندرية ، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للتوقف قليلا
أمام أقدمها وهو الواقدي ، فنعثر على رأى فريد له فى كتابه « فتوح
الشام » مؤداه أن قائد فتح الاسكندرية كان خالد بن الوليد (١٤) ، والراجح

(٩) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ،
ص ٢٧ .

(١٠) د. سيده كاشف . مصر فى فجر الاسلام ، ١٩٧٠ ، ص ١٢ - ١٣

(١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ .

(١٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(١٣) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ،

ص ٢٧ - ٢٨ .

(١٤) الواقدي : فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ٧٤ : ٨٦ .

يقول الواقدي ما ملخصه ان ابن المقوقس - ويسميه أرمطوليس - لما انهزم أمام

أن هذا الرأي به شيء من التحريف في الكتابة أو النسخ ، لأننا نجد أنفسنا مضطرين إلى عدم الاعتماد عليه مطلقا ، خصوصا وأننا لم نعثر على أى

==

المسلمين توجه إلى الاسكندرية ثم بلغه فتح مصر فعز عليه ذلك . ويعتد عدة مراكب من الاسكندرية شحنها بالرجال وطلب منهم أن يباغتوا سواحل بلاد الشام وينقضوا بهجوم على المسلمين . وبالفعل ساروا إلى سواحل الرملة وهاجموا المسلمين بهجوم وقتلوا منهم رجالا وأخذوا عددا من الأسرى ، وعدة غنائم أخرى ، ويقال أن عدد الأسرى بلغ حوالي ألف ومائة . فوضعهم في المراكب وعادوا إلى الاسكندرية . عندئذ أرسل أبا عبيدة بن الجراح لعمرو بن العاص يخبره بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية ، فلما وصل الخطاب إلى عمرو صعب عليه وأرسل الكتاب إلى خالد بن الوليد وكتب إليه يحثه بالسير إلى الاسكندرية . أما عن أسرى المسلمين فقد أرسلهم ابن المقوقس إلى أحد الاديرة ويسمى « دير الزجاج » ويعتد معهم قوة تتكون من ألفين من الرجال . لكن خالد عرف أخبارهم فتوجه إليهم ومعه شراحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد القعقاع وغيرهم وتمكن هو ورفاقه من تخليص الأسرى المسلمين وقتلوا من أعدائهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلاثمائة ثم توجهوا إلى الاسكندرية ومعهم أسراهم من القبط .

وفي نفس الوقت كان ارسطوليس قد أرسل إلى ملك برقة المسمى (كيماويل) وطلب منه النجدة بعد أن حذره من العرب . وبالفعل أرسل ملك برقة لندجته جيشا مكونا من أربعة آلاف .

كذلك أرسل ملك برقة كبير البطارقة عنده والذي كان يسمى سطيس إلى المقوقس يبشره بقدوم النجدة إليه ، فلما وصل هذا البطريرك إلى الاسكندرية طلب منه ابن المقوقس أن يتدخل في الصلح بينهم .

فلما وصل البطريرك عند خالد بن الوليد دار بينهما حديث جدد سطيس على اثره اسلامه على يد خالد ثم حذرهم من شقيق ملك برقة الذي سيأتي بعده لمحاربتهم وأن ملك الاسكندرية يريد صلحهم على أن يعطيهم شيئا من المال ويسلم إليهم قوما من أصحابهم كانوا قد أخذوهم من ساحل الرملة ، فما كان من خالد إلا أن أخبره بأنهم قد فك الله أسرهم وجمع بهم شملهم . . . عندئذ أسقط في يد ابن المقوقس وطلب من أرباب دولته الاستعداد لحرب العرب حتى تصلهم نجدة ملك برقة .

وما أن التحم ابن المقوقس بالعرب الفاتحين حتى ارتعدت فرائصه ، ففر هاربا إلى جزيرة كريت وأخذ معه أمواله وحريمه وأولاده .

وعندئذ توجه أهل الاسكندرية إلى خالد فقال لهم « خير الناس من قدر وعفا وفريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك إلى الاسلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه

==

يصدر (١٥) آخر علي أية إشارة تعضد هذا الرأي .
 فابن عبد الحكم مثلاً يذكر أن عمرو بن العاص كان قد أرسل إلى الخليفة
 عمر بن الخطاب - أثناء حصار حصن بابلين - يطلب المدد « فأمدّه بأربعة
 آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف » وهم الزبير بن
 العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد (١٦) .

فلما تقدم عمرو لفتح الاسكندرية (١٧) حاصرها بنفسه شهراً ، فلما أبطأ
 في فتحها بعث إليه عمر بن الخطاب من يستحثه على فتحها « ٠٠٠ قد كنت
 وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت
 أعرف إلا أن يكونوا غيرهم ما غيرهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فأخطب الناس
 وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة
 في صدور الناس وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة
 ووقت الاجابة » . ففعل عمرو ذلك ونصره الله (١٨) .

الجزية عن السنة التالية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ، فوافقوا على ما
 شرطه عليهم .

وجمع أهل الاسكندرية المال ومضوا به إلى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ
 كنيسة العظمى فجعلها جامعاً وترك لهم أربع كنائس وكتب إلى عمرو بن العاص
 يخبره بفتح الاسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أباً ذر الغفساري وذهب إلى
 الاسكندرية وبنى فيها جامعاً في الربض .

وهكذا نستنتج من رواية الواقدي هذه أن الاسكندرية فتحت على يد خالد بن الوليد
 تحت إمرة عمرو بن العاص ، لكن بقية المصادر والمراجع تعطينا رأياً مخالفاً تماماً
 لذلك ، بل انها لم تذكر على الإطلاق اسم خالد بن الوليد .

(١٥) على سبيل المثال لا الحصر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص
 ٦١ : ٧٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، الطبري : تاريخه ،
 أحداث سنة ٢٠ هـ ، ابن عبيد البر : الاستيعاب في معرفة الصحابة ، القسم الثاني
 حرف الخاء ، ص ٤٢٧ : ابن الأثير : إمد الغاية في معرفة الصحابة ، المجلد الثاني ،
 ص ١١٠ - ١١١ ، ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ج ٨ ، ص ٥٧٠ .

(١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦١ . وهنا يذكر أن البعض
 يضعون خارجة بن حذافة بدلاً من مسلمة بن مخلد .

(١٧) تقدم إليها من الفسطاط (ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧٣) .

(١٨) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

ويفهم مما سبق أن القادة الأربعة السابق ذكرهم هم الذين تولوا فتح الاسكندرية تحت امره عمرو^{٢٠} ثم يعود ابن عبد الحكم فيعطينا رواية أخرى وهي أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد فأشار عليه بأن يختار رجلاً من أصحاب رسول الله له خبرته وتجاريه ، فيكون هو قائد المعتصمين في فتح الاسكندرية « أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلعم فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك » وأشار عليه باختيار عبادة بن الصامت^{٢١} وبالفعل استدعى عمرو عبادة وعقد له وولاه قتال الروم ، فتقدم عبادة مكانه فضاغ الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندرية « (١٩) »

أما البلاذري^(٢٠) فقد فصل لنا الحديث عن كيفية دخول عمرو بن العاص الاسكندرية عندما ذكر أن عمرو سار حتى انتهى إلى الاسكندرية (٢١) ، فوجد أهلها مستعدين لقتاله « وكان للقبط يصبون المواد » فأرسل إليه :

(١٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق نفس الصفحة .

هنا يذكر ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ أن عبادة بن الصامت كان قد اختاره عمرو بن العاص للتفاوض باسم المسلمين الفاتحين قبل عقد الصلح بين المسلمين والمقوقس وفتح مصر . وكان عبادة أسود اللون ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس وسئلوا عليه تقدم عبادة فهايه المقوقس لسواده ، فقال نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره . يكلمني فقالوا جميعاً ان هذا الاسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا واقفا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمر الأمير دوننا بما أمناه به وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله . فقال وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم قالوا كلا انه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً . وليس ينكر للمسول فينا . فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود وكلمني برفق فأنى أهاب سوادك وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لذلك هيبه . فتقدم إليه عبادة فقال قد سمعت مقاتلك وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني وأقطع منظرًا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى . وأنا قد وليت وأدير شبابى . ان غاية أحدنا من الدنيا أكلة ياكلها يسد بها جوعته لليلة ونهاره وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفافه وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله . فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن جوله ، لقد هبت منظره وإن قوله لاهيب عندي من منظره .

(٢٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٢١) كان ذلك سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م (م. ابراهيم العدوي : الامبراطورية البيزنطية

والدولة الاسلامية ، ص ٤٩)

المقوقس (٢٢) يطلب المهادنة التي مدة فرفض عمرو بن العاص « فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى المسلمين ليهربهن بذلك » ٠٠ فما كان من عمرو إلا أن أرسل له قائلاً : « أنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرت غلبنا ما غلبنا - فقال المقوقس لأصحابه ٠٠ قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية - فنحن أولى بالانحياز ، وأغلظوا له القول وأبو إلا المحاربة ٠٠٠ » فما كان من المقوقس إلا أن تصالح مع عمرو بن العاص فبلغ ذلك هرقل ملك الروم « فسخط أشد السخط وأبكر أشد الانكار وبعث الجيوش فأغلظوا أبواب الاسكندرية وأذنوا عمرا بالحرب » (٢٣) ٠

هنا نتوقف عند خطاب هرقل الذي أرسله كتعبير مباشر يريد قاطع على موقفه المقوقس من المسلمين وكيف أن هرقل كان يستبعد أي تصرف من المقوقس ينتج عنه التنازل ولو عن شبر واحد من أرض مصر ، التي جانب ما تضمنه .

(٢٢) المقوقس أو كيرس (د : سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٨ ، وهو نفسه (قره) الذي يشار إليه في Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII. p. 471. كان كيرس إسقفا لفايس Phasis الواقعة بالقرب من القوقاز ٠ وربما كان ذلك هو سبب تسميته بالمقوقازي ، وهو أيضا الاصل الحقيقي للفظه المقوقس وهو الاسم الذي نقرأه في النصوص العربية والقبطية وفي سنة ٦٣٢ م أقر هرقل صورة التوفيق التي تقضى بأن يمتنع الناس عن الخوض في الحديث عن كنه طبيعة المسيح وعما إذا كان له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له ارادة واحدة . لذلك ولّى هرقل كيرس بطوركية الاسكندرية وأمره أن يجمع المذهبين المونوفيزيتي والخلقودوني في المذهب الجديد وهو المذهب المونوثوليتي (د : السيد الباز العريضي : مصر البيزنطية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ - ٤٠٤) وبذلك أخطأ الامبراطور هرقل ووقع فيما وقع فيه الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) من اسناد الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو كيرس أو المقوقس (د : سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٨) ..

.. (٢٣) . ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ، المقرئ : الضبط ، ج ١ ص ٣٠٣ ٠ كان عمرو بن العاص قد فرض على الروم الذين يرغبون في البقاء في الاسكندرية مثلما فرض على القبط ، أي دينارين على كل منهم (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٠) ٠

من استخفاف بقوة المسلمين • وفى نفس الوقت نحس فيه بمسدى صدق
 أساسيس المقوقس وبعد نظره فى الحكم على المسلمين الفاتحين الذين باعوا
 الدنيا بالآخرة • فقد جاء فى خطاب هرقل للمقوقس : « ••• أن عندك
 من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة • •
 فعجزت عن قتالهم » (٢٤) • فما كان من المقوقس إلا أن عقب على هذا الخطاب
 بقوله : « والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا
 وقوتنا •• » (٢٥) •

والحقيقة أن المقوقس كان قد طلب من عمرو ثلاثة أمور : الأول ألا ينقض
 الصلح مع القبط لأن رأيهم مثل رأيه « قد جعلت كلمتى وكلمتهم على ما
 عاهدتك فهم متمون لك على ما تحب • والثانى ألا يصلح الروم بعد ذلك
 وأن يجعلهم « فينا وعبيدا فانهم أهل لذلك » وأنه برىء منهم • والثالث أن
 يأمر بدفنه بالاسكندرية فأجابه عمرو على ما طلب (٢٦) • على أن يقيموا له

(٢٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ ، السيوطى : حسن
 المحاضرة ، ج ١ ص ١١٧ • ومما جاء فى خطاب هرقل : « انما أتاك من العرب اثنا
 عشر ألف وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال
 وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم بالاسكندرية
 ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد
 رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط اذلاء ،
 ألا تقتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر
 كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة • تناهضهم القتال ولا يكون لك رأى
 غير ذلك • وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم •

(٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧١ • كان رد المقوقس : « والله
 انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ان الرجل الواحد منهم
 ليعدل مائة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل
 منهم وهو يستقتل ويتمنى ألا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون ان لهم أجرا
 عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون أنهم ان قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة فى الدنيا
 ولا لذة الا قدر بلغه العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة
 ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ••• ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون أمنا على نفسه
 وماله ولده ودينارين فى السنة •• »

(٢٦) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ،
 ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١١٨ •

(هجمات الروم)

الجسور والانزال والضيافة والأسواق من الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا ذلك « وصار القبط معهم يعاونونهم على قتال الروم » (٢٧) .

والواقع أن (كيرس) بعد أن عقد الصلح مع عمرو بن العاص قرر أن يبعث الى الامبراطور هرقل بشروط الصلح فان أقره نفذه ، وبمقتضى هذا الصلح قبل البطريرك كيرس الاستسلام ودفع الجزية ، وأن تتوقف الأعمال العدائية ، غير أن بيزنطة تلقت الرسالة لقاء بالغ السوء ، ودعا هرقل كيرس الى القسطنطينية ليشرح له موقفه الذى بلغ فى نظره حد الخيانة . وأساء الامبراطور استقبال كيرس ، وجعل الأخير يدافع عن نفسه قائلاً ان ما عرضه من دفع الجزية لهم - أى للعرب - يمكن تدبيرها بما يقرره من ضريبة على متاجر الاسكندرية وسلعها . ولوح بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة الامبراطور المسماة Eudocia أملاً فى أن يؤدي هذا الى اعتناق عمرو للمسيحية ، غير أن الامبراطور اشتد فى لوم (كيرس) ، لأنه فرط فى ذهب مصر الى المسلمين واتهمه بالخيانة وأمر بعزله وسلمه الى حاكم القسطنطينية فأنزل به المهانة ثم نفاه من البلاد (٢٨) .

أما الطبرى فيعطينا رأيين عن كيفية انتماء عمرو بن العاص فتح الاسكندرية ، أولهما نقله فى الأصل عن أحد جنود الجيش الذى اشترك مع عمرو فى فتح مصر والاسكندرية ، ذكر فيه أنه بعد فتح بابليون وصل الجيش الى بلهيب ، وهى قرية من قرى الريف يقال لها قرية الريش ، وكانت سبانيا المسلمين قد بلغت المدينة ومكة واليمن . فأرسل صاحب الاسكندرية الى عمرو يقول : « انى قد كنت أخرج الجزية الى من هم أبغض الى منكم معشر العرب ، لقارس والروم ، فان أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبانيا أرضى فعلت » .

(٢٧) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١١٨ . وبذلك يكون القبط قد ساعدوا عمرا أثناء تقدمه من الفسطاط الى الاسكندرية ، ولم يقفوا ضده مع الروم كما ذكر ابن خلدون : العبر ، ج ٢ ، ص ١١٥ « سار عمرو الى الاسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم وأثنى فيهم » .

(٢٨) السيد الباز المعرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤١٥ - ٤١٧ .

فاستأذنه عمرو فى أن يأخذ رأى الخليفة عمر فى ذلك الأمر « أن ورأى أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه » وبالفعل جاء رد عمر بأن يرد لهم سبائهم ويأخذ منهم الجزية « لعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم » وأن يخيروا ما بأيديهم من السبى بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه • أما من وصل الى مكة والمدينة واليمن من السبى قلن يستطيع رده • فوافق صاحب الاسكندرية على تلك الشروط وفتحت الاسكندرية (٢٩) •

أما الرأى الثانى فيقول أنه عندما وصل عمرو بن العاص الى بايليون ولحق به الزبير « لقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف ... بعثه المقوقس لمنع بلادهم » فقال لهم عمرو « أنتما راهبا أهل هذه البلدة فاسمعا • ان الله عز وجل بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق وأمره به وأمرنا به محمد صلى الله عليه وسلم • ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه • وكان مما أمرنا به الاعذار الى الناس فنحن ندعوكم الى الاسلام فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ، • ومما عهد الينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيرا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيرا • • فطلبوا أن يعطيهم عمرو مهلة خمسة أيام ليردوا عليه • فلما رجعا الى المقوقس وأراد أن يجيبهم الى طلبهم رفض أن يربطون • وأمر بمناهدتهم « فلما مرت المهلة دون رد أرسل عمرو الى الاسكندرية عوف بن مالك فطلب منهم النزول على رأى عمرو فى مقابل الامان فوافقوا وقال لهم ما أحسن مدينكم يا أهل الاسكندرية ! فقالوا ان الاسكندرية قال: انى أبنى مدينة الى الله فقيرة ، وعن الناس غنية - أو لأبئى مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنية فبقيت بهجتها (٣٠) •

وبذلك يعتبر الطبرى فاتح الاسكندرية. هو عمرو بن العاص نفسه أو • قائده عوف بن مالك •

(٢٩) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ

(٣٠) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٢٠ هـ

بينما تذكر (Patrologia Orientalis) رأيا آخر هو أن « قررة (٣١) أسقف الاسكندرية صالح عمرو بن العاص على أن يؤدي كل سنة مائتي ألف دينار على ألا يدخل المسلمين مصر » ولا صعدوا حدودها « على أن يعد الأموال ويرسلها لهم ، وأن (قررة) ظل مواظبا على ذلك مدة ثلاث سنوات لم يدخلها أحد من العرب (٣٢) » .

والواقع أن هذا أمر بعيد عن الصحة ، لأن العرب لم يرحلوا عن مصر بعد مصالحة عمرو بن العاص لأهلها .

ثم تضيف (البتروولوجيا) أيضا أن قوما من أهل مصر توجهوا الى هرقل وأوغروا صدره على (قررة) وأنه « يأخذ الأموال من مصر ويدفعها الى العرب ٠٠ ويدفع اليهم خراج مصر الذي هو واجبه له » فغضب هرقل من ذلك ووجه الى مصر بطريق يدعى منويل وأمره بعزل قررة من تدبير مصر وأن يتولى ذلك ويقوم بالذب عن أهلها .

فلما كان في أواخر السنة نزل العرب الى مصر على العادة يريدون الأموال « فالفوا منويل نازلا على مصر مع جيوش الروم » فأخذوهم وأدخلوهم اليه وسألهم عن أمرهم وحاجتهم فأخبروه بالقصة فلما علم أنهم يريدون الأموال انتهرهم بغضب شديد وصرفهم بهوان وقال : « انى لست قررة الاسقف الذي كان يعطيكم الأموال خوفا منكم لأنه راهب متعبد وأنا رجل صاحب سلاح وحرب وشجاعة كمن ترون من حالي ومالكم عندي الا الخزي والهوان . وانصرفوا من البلد ولا تعودوا اليه والا أتيت على أنفسكم وقد أعذر من أنذر » .

عندئذ رجع القوم الى عمرو بن العاص فأخبروه بما حدث « فسار حتى وافا مصر ولقى بها منويل فهزمه وقتل عامة أصحابه ولحق منويل بالاسكندرية مع من بقي من أصحابه ثم استولى العرب على مصر » (٣٣) .

(٣١) المقصود كيرس

32. Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 471.
33. Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, pp. 472-473.

هنا تنفرد البتولوجيا أيضا فى اعطاء صورة لموقف هرقل من قره
أو كيرس وكيف أنه عاد يتلطف معه ويعتذر له عما بدر منه نحوه ، وطلب
منه أن يناور المسلمين لأنهم أرسلوا الى الناس كافة ٠٠ كما أنه عاد فقلده
أمر مصر « ٠٠٠ ان قوما أعطوني فيك العشوا ورفعوا التى عنك الباطل ٠٠
ان هؤلاء أرسلوا كافة على الناس ٠٠ فان قدرت على مداراة القوم ودفعتهم
عن مصر بما عز وهان فافعل ٠٠ » (٣٤) .

وتستكمل (البتولوجيا) روايتها فتذكر أن (قره) قال « كيف أستطيع
دفع القوم وقد صرت عندهم كذابا » وما كان منه إلا أن توجه الى عمرو بن
العاص واعتذر له أنه لم يكن سبب نقض العهد ، وأن هرقل هو الذى صرفه
عن رأيه وطلب منه التفاوض معه من جديد لأنه لا يثق به « فانصرف قره
الى الاسكندرية بغير قضاء حاجة » (٣٥) .

وبذلك خالفت (البتولوجيا) بقية المصادر فى أن عمرو وصل الى اتفاق
مع كيرس وأن نلك كان سببا فى غضب هرقل وتصميمه على الخروج بنفسه
على رأس جيش الى الاسكندرية للدفاع عنها ضد المسلمين . وبالفعل تم
ارسال قوات كبيرة من الروم الى الاسكندرية فقد « قدمت مراكب كثيرة
من أرض الروم فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » (٣٦) .

كانت حامية الاسكندرية تقدر بحوالى خمسين ألف رجل (٣٧) . وكانت
المدينة غاية فى الحصانة « حصون متينة لا ترام حصن دون حصن » (٣٨)
بالاضافة الى أن الروم كانوا مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى

35. Patrologia : Op. Cit., p. 474.

(٣٤) ملحق رقم (١) .

(٣٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٧٣ .

(٣٧) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٠ ، د. العدوى :
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٤٩ ، مقدمة المحقق د. عبد الله أنيس
الطباع لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص
٨ ويذكر الاخير أن عدد قوات الجيش الاسلامى الزاحف على الاسكندرية كان عشرين
ألفا .

(٣٨) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ،

ص ١١٨ .

اليهم عن هذا الطريق (٣٩) « كانت رسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم » (٤٠) . وبذلك توافرت المؤن بالمدينة (٤١) .

كذلك كانت المدينة محمية من ثلاث جهات ، من ناحية البحر المتوسط شمالا وبحيرة مريوط جنوبا وقناة الشعبان غربا ، ولم يتيسر الوصول الى الاسكندرية الا من جهة الشرق والجنوب الشرقى . على أن المحاصرين لم يكن بوسعهم أن يقتربوا من الأسوار من هذه الناحية ، نظرا لوقوعهم هدفا للرماء من فوق الأسوار . وزاد من مناعة المدينة ما يحيط بها من أسوار ضخمة تحميها الآلات القوية (٤٢) .

والحقيقة ان أحوال الاسكندرية نفسها ساعدت على فتح المسلمين لها وذلك بسبب سوء حالة جيش الروم بها لمتنازع القواد ولانقسام الرأى الاسكندري أثناء حصار العرب للمدينة . وكانت كراهية الناس لبيزنطة السبب الرئيسى للتخاذل والضعف فتخلوا عنها ، اذ اشتد سخط السكان لما جرى من فساد الحكم وثقل وطأة الضرائب وكثرة أنواعها ، والاضطهاد الدينى والاضطراب والفوضى الناشبة فى البلاد (٤٣) .

يضاف الى ذلك كله اضطراب أمور دولة الروم نفسها بعد موت هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م / ٢٠ هـ (٤٤) « صرعه الله فأماته وكفى المسلمين

(٣٩) د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ١٣ .

(٤٠) المقرئى : الخطط . ج ١ . ص ٢٠٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ،

ج ١ . ص ١١٨ .

(٤١) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية . ص ٤٢٠ .

(٤٢) د. العرينى : المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤٣) د. العرينى : المرجع السابق ص ٤٢٨ .

(٤٤) د. سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ١٣ ، د. السيد الباز العرينى .

مصر البيزنطية . ص ٤١٧ . اختلف فى تاريخ وفاة هرقل فالبعض يذكر أنها سنة تسع عشرة هجرية والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة عشرين هجرية (ابن عدد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ . المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٦ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ . ص ١١٩)

Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 478.

ويذكر الاخير أنها كانت سنة ٩٥٢ لذى القرنين . ١٩ للعرب . ٧ لعمر .

مؤنته « (٤٥) . وبذلك كسرت بموته شوكة الروم (٤٦) ووهن أمرهم « فقد رجع جمع كثير ممن كان قد توجه الى الاسكندرية » . (*)

ظل العرب محاصرين للاسكندرية مدة ثلاثة أشهر (٤٧) ، بل قيل ان حصارها امتد الى أربعة عشر شهرا « تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك » (٤٨) .

أثرت أوضاع دولة الروم الداخلية على قوات الروم المحاصرين في الاسكندرية وسهلت سقوط المدينة في يد العرب . فب وفاة هرقل تولى ابنه قسطنطين وهرقل الثاني ونصبت الامبراطورة مارتينا أم ولده هرقل أو هرقلونس شريكة لهما في الحكم ، فعملت هذه الامبراطورة على انتهاء الحرب لانشغالها وساسة الروم بالفتن الداخلية التي قامت من أجل النزاع على العرش وصادت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام الروم المسيطرين على سير الأمور في مصر ، وعلى وجه الخصوص دومنتيانوس Domentianus الذي كان مواليا للامبراطورة مارتينا ، لذا اجتمعوا واتفقوا مع قيصر - الذي كان قد أعيد الى مصر (٤٩) - على انتهاء الحرب بعقد صلح مع

(٤٥) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها . ص ٧٦ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٤٦) المقرئى . الخطط . ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(*) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ٧٦ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٤٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٤٨) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٧ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٤٩) مات الامبراطور قسطنطين في ٢٥ مايو ٦٤١ م فتولى العرش هرقلونس ابن هرقل من مارتينا التي ظلت تشاركه في الحكم ، وتوجه سياسة البلاد وظل هرقلونس يحكم حتى سبتمبر ٦٤١ حينما شاركه قسطنطين في الحكم . وذلك بعد رحيل كيرس الى مصر مصحوبا بعدد كبير من القساوسة وتكليفه بعقد صلح مع العرب لوضع نهائية لكل المقاومات المستقبلية في البلاد ولإعيد تنظيم الادارة في مصر .

(Alfred Butler ; The Arab Conquest of Egypt, p. 305).

على أن كيرس حمل الامبراطور والامبراطورة والسناطور ورجال البلاط على الانصياع الى رايه الذى يقضى بأنه لا سبيل الى المقاومة ولا بد من الانعان للعرب (د . السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٣) .

المسلمين • وبالفعل انتهت تلك المساعي بعقد معاهدة بابلين الثانية أو معاهدة الاسكندرية (٥٠) وذلك فى ٨ نوفمبر ٦٤١ م (٥١) •

بل قيل أن من أهم العوامل التى ساعدت على عقد معاهدة بين المسلمين والروم أن الفوضى التى سادت العسكريين أدت الى تفكك قيادة الجيوش الرومية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال فى الدفاع عن البلاد المصرية ضد الجيوش الاسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك • وكان من بين القواد الذين قاوموا الجيوش الاسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذى حصد لحصار عمرو بن العاص للاسكندرية ، وكاد يبعث الضجر فى نفوس المحاصرين العرب • وما أن توفى هرقل حتى عم الاضطراب فى القسطنطينية ويئس مانويل من وصول امدادات تشد أزره فى الدفاع عن الاسكندرية وانسحب منها بحرا • فى الوقت الذى منحت فيه مارتينا - صاحبة النفوذ الأعلى فى دولة الروم آنذاك - للمقوقس سلطة مفاوضة العرب فى مصر (٥٢) • وبالفعل قام بعقد المعاهدة التى عرفت بمعاهدة الاسكندرية • وكانت أهم شروط تلك المعاهدة ما يلى :

١ - أن يدفع الجزية كل من تنطبق عليه المعاهدة •

٢ - عقد هدنة بين الطرفين مدتها احدى عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ٦٤٢ م •

٣ - أن يكف العرب والروم فى أثناء تلك الهدنة عن القتال •

٤ - أن ترحل حامية الاسكندرية فى البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم • على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته •

٥ - ألا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردّها •

(٥٠) د سيدت كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٣ - ١٤ •

(٥١) د الباز العرنى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٥ •

(٥٢) د ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ •

- ٢٥ -

٦ - أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم .

٧ - أن يتاح لليهود الإقامة في الاسكندرية .

٨ - أن يبعث الروم رهائن من قبلهم ، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من المدنيين ضمانا لتنفيذ المعاهدة (٥٢) .

كان لابد من اقرار تلك المعاهدة من جانب الخليفة عمر بن الخطاب وامبراطور الروم . وفي انتظار ذلك كان على كيرس (المقوقس) أن يقنع أهل الاسكندرية بضرورة الموافقة على هذا الصلح حتى قيل أنه كان يبكي « وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه انما بذل جهده في أمرهم وأن يرضوا بالصلح الذي عقده من أجلهم » وبالفعل عاد القاس الى رأى الجيش ورضوا بالنزول عن مدينتهم للعرب وأخذوا يجمعون قسط الجزية وهو ثلث المقدار المطلوب وأعطوه للمسلمين في ١٠ ديسمبر ٦٤٩ م / الحرم سنة ٢١ هـ (٥٤) . وكان المبلغ يقدر بحوالى ثلاثة عشر ألف دينار (٥٥) .

وفي نفس الوقت أخذ العرب يخضعون البلاد ريثما يتم التصديق على المعاهدة فاستولوا على مدن كثيرة بالدلتا مثل رشيد والبرلس ودمياط وتنبس (٥٦) .

وقد اختلف في فتح الاسكندرية الأول على يد العرب ، فالبعض يذكر

53. Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 320.

عن

حنا النقيوسى (John of Nikiou)

د السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ ، د سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٤ .

(٥٤) د السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ عن Diehl Butler . على أن البطريك كيرس لم يعيش حتى يشهد الجلاء .

النهاى للروم لانه مات في ٢١ مارس ٦٤٢ م (د الباز العرينى : المرجع السابق ص ٤٣٠)

(٥٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

(٥٦) د السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤٢٩ .

أنه كان « سنة عشرين » (٥٧) والبعض الآخر يذكر أنه كان « سنة إحدى وعشرين » (٥٨) ورأى أخير يذكر أنه كان « سنة اثنين وعشرين » (٥٩) .

وهكذا استسلمت الاسكندرية للعرب الفاتحين عن طريق معاهدة الاسكندرية السابقة الذكر . وتم للعرب بذلك الاستيلاء على « أعظم موقع استراتيجي ، مفتاح الشمال الافريقي بأسره ومركز حضارة ومدنية عمل الزمن وساعدت الظروف السياسية على اقامتها في الطرف الشمالى الشرقى من القارة الافريقية » (٦٠) . ولكن بالرغم من ذلك وبالرغم من ارتفاع مكانة الاسكندرية بتلك الصورة فان المسلمين لم يستخدموا تجاهها أى ضغط أو قوة فى بادئ الأمر (٦١) .

ويقال انه لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية هرب الروم فى البر والبحر ، فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى هو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ، ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب أن الله فتح عليهم الاسكندرية « عنوة بغير عقد ولا عهد » (٦٢) .

وعندما دخل عمرو بن العاص الاسكندرية فى ٢٩ سبتمبر ٦٤٢ م (٦٣)

(٥٧) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٩ .

(٥٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ ، المقرئى : الخطط . ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣١٤ . ويذكر الأخير أن ذلك كان فى مستهل المحرم من السنة . (٥٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٦٠) مقدمة المحقق عبد الله أنيس الطباعة لكتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : فتوح أفريقيا والاندلس ، ص ٨ - ٩ .

61. Alfred Butler : Op. Cit., p. 322.

(٦٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢١ . 63. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

٥٠ الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

وجد بها « ألف مركب من مراكب الروم الكبار » (٦٤) فجلا عنها الروم الذين كانوا يقدرّون « بمائتي ألف » (٦٥) وغادروا الأسطول الرومى فى الثانى عشر من سبتمبر (٦٦) أو السابع عشر منه ٦٤٢ م / ٢١ هـ « بعد أن استمرت قواته بها عشرة قرون من الزمان » (٦٧) . وقد اتجه الأسطول بعد مغادرة الاسكندرية الى جزيرة رودس (٦٨) . وقدر عدد الروم الذين غادروا الاسكندرية عندئذ بثلاثين ألفا حملوا معهم ما استطاعوا حمله من المال والمتاع والأهل ، أما من بقى فقد اعتبر أسيرا ، « وبقي من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان » (٦٩) .

استخلف عمرو بن العاص على الاسكندرية « عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمر بن هضيض بن كعب بن لؤى » (٧٠) وترك بالمدينة ربع القوات التى معه وجعل الربع الثانى بالسواحل ، أما النصف الباقى فكان معه . وكان الربع الذى يقيم بالاسكندرية يقيم لمدة ستة أشهر فى

(٦٤) ابن اياس . بدائع الزهور . ج ١ ، ص ١٢ . أما السيوطى . حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٢٢ فيذكر أن عدد المراكب كان مائة لا ألف . كذلك يضيف ابن اياس أن عمرو عبر فى رسالته للخليفة عمر بن الخطاب عن مدى عظم المدينة « وجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة بعد العصر » (٦٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ . المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

66. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

د . الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

67. Paul Lemerle : Le monde de Byzance, Histoire et Institutions, p. 354.

68. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

د . الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٠

(٦٩) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ . ويقال أن بيوت الاثرياء التى كانت حول الاسكندرية وقعت غنيمه فى يد المسلمين الذين حصلوا على غنيمه هائلة فاقتلعوا من معظم المنازل الاخشاب والحديد وأرسلوها فى مراكب نقل البضائع فى النيل الى حصن بابلون ليستخدموها فى عمليات اقامة الجسور

(Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 296).

(٧٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

الصيف ثم يعقبهم ربيع آخر ستة أشهر فى الشتاء (٧١) .

وكان عمر بن الخطاب « يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية فكانت الولاة لا تغفلها وتكشف رابطتها ولا تأمن من الروم عليها » (٧٢) . وكان المرابطون فى الاسكندرية من المجاهدين ينزلون دورا خصصت لهم وكانت الدار الواحدة أحيانا ما تسكنها قبيلتين أو ثلاث (٧٣) .

(٧١) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٦٣ . هنا تذكر الدكتور سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٠ « ان حامية الاسكندرية أو رابطتها كانت تقيم فى المدينة ستة اشهر تبدأ من شهر ابريل ، فقد ذكر المقرئى أن احتراس البحر بالاسكندرية يبدأ من خميس العهد أو خميس العدس وينتهى بشهر اكتوبر ، وفى اكتوبر تنهى الحامية أعمالها فتغادر الاسكندرية الى داخل البلاد ، حيث تقضى فصل الشتاء فى أعمال أخرى تقتضيها احوال البلاد بينما تحل محلها حامية أخرى أقل عددا وعدة وتبقى فى الثغر حتى آخر شباط (فبراير) » .

(٧٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٧٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١١ « كان لكل عريف قصر ينزل فيه بهن معه من أصحابه ، واتخذوا فيه أخائن فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل فيها ، ثم يأتى الأخير فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث » وهنا تعقب الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٠ - ٨١ على ذلك بقولها (ان الظروف كانت غير مواتية فى ذلك الوقت لبناء رباط أو ثكنات لاقامة الحامية فقد خصص لها عمرو الدور والفصور التى تركها الروم عند جلائهم عن المدينة مفضلا هذا عما اقتضته شروط الصلح التى تنص على أن ينزل العرب ضيوفا على أهل المدينة يقدمون لهم الطعام والعلوفة لخييلهم ٠٠ وكانت الدور تعطى فى أول الامر للعريف ورجاله عندما يأتون للمرابطة ، حتى اذا ما انتهت دورتهم الصيفية حلت محلهم حامية الشتاء ، وقد أدى نظام الشيوخ هذا الى خراب الدور لترتكها دون ترميم أو صيانة ، ولكن عمرا لاحظ هذا العيب وعمل على تلافيه فأرأى أن تؤول المنازل لساكنتيها ولبنيتهم لذلك قرر عند ذهابه من الفسطاط الى الاسكندرية « أن الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكان الدار تكون لقبيلتين أو ثلاثة حتى اذا نقلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ٠ وبهذا كان يسمح للروم بسكنى الدور فى الوقت الذى تخلو فيه من حاميتها الصيفية والشتوية على أن يقوموا بترميمها وصيانتها بدلا من الكراء لانها كانت وفقا لشروط الصلح ملكا عاما للعرب) .

هنا نود أن نشير الى نقطة هامة ، هي أن عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح الاسكندرية طلب منه أن يقسمها بين الفاتحين فاعتذر بأنه لن يفعل ذلك الا بعد أن يأخذ رأى أمير المؤمنين « لا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين » وبالفعل كتب اليه فى هذا الشأن فرد عليه عمر بالآ يقسمها وأن يتركها ليكون خراجها « فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم » (٧٤) فتركها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج (٧٥) .

وإذا كانت مصر كلها بعد فتح العرب لها تدفع للفتاحين جزية عن الرأس تقدر بدينارين « لا يزداد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع » فان أهل الاسكندرية كانوا يؤدون الخراج والجزية « على قدر ما يرى من وليهم » لأن الاسكندرية فتحت عنوة بخير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا تمة (٧٦) .

والحقيقة أن هذه النقطة كانت احدى الأسباب الهامة التى أدت الى نقض أهالى الاسكندرية لما عاهدوا عليه العرب الفاتحين . فقد قيل ان (صاحب اخنا) قدم على عمرو وقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك اتما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » لذا غضب صاحب اخنا وخرج الى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا الى الاسكندرية لمحاربتهم وبذلك نقضوا العهد الذى كان بينهم (٧٧) .

(٧٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٧٥) السيوطى : المصدر السابق نفس الصفحة .

غ (٧٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٨٢ - ٨٣ . المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٧٧) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٣ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ . (هنا يذكر ابن عبد الحكم أنه بعد مجئ الروم الى الاسكندرية بعد استئارة صاحب اخنا لهم وبعد أن تمت هزيمتهم أسر صاحب اخنا (النبطى) وجيء به الى عمرو فقال له الناساس أقتله فقال : لا بل انطلق فجئنا بجيش اخر) .

- ٣٠ -

فإذا كان موقف صاحب اخنا هذا هو أحد الأسباب التى جعلت الروم ينقضون عهدهم مع عمرو بن العاص ويعاودون القدوم الى الاسكندرية مره اخرى لاستعادتها ، فان المصادر والمراجع المختلفة أعطتنا عدة أسباب اخرى يمكننا أن نضيفها إلى هذا السبب منها :

انه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن مصر سنة ٢٥ هـ فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر (٧٨) .

بل قيل أنه فى ٢٥ هـ / ٦٤٥ م خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك « أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نفذ الصلح ، فاجابوهم الى ذلك » (٧٩) . فى حين يذكر رأى آخر أن أهل الاسكندرية نقضوا العهد سنة ٢٥ هـ « لأن ملك الروم بعث اليهم (معويل) الخصى فى مراكب فى البحر ، فطمعوا فى النصره ونقضوا ذمتهم » (٨٠) .

كما ذكر أيضاً أن جماعة من زعماء الاسكندرية أنفذوا كتباً الى الامبراطور قنسطانز الذى انفرد بالحكم بعد وفاة هرقلونس يسألونه النهوض لمساعدتهم ، وشرحوا له أنه ليس بالاسكندرية الاحامية ضعيفة لا تقوى على دفع جيش الروم . فأثرت تلك الكتب فى الامبراطور الذى لم ينس ما لحق بدولته من الضرر من ضياع مصر (٨١) .

ومهما اختلفت الآراء فقد حدثت انتفاضة فعلية من جانب الروم ومحاولة جادة لاستعادة الاسكندرية . وذلك سنة ٢٥ هـ أشارت اليها بعض المصادر

78. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٧٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٨٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٥ . والمقصود بمعويل هــا
منسويل .

(٨١) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٢ .

اشارات موجزة (٨٢) ، وأسهب بعض المصادر الأخرى في ذكر تفاصيلها (٨٣) .

فقد أرسل الامبراطور قنسطانز الثاني في ٢٥ هـ / ٦٤٥ م أسطولاً كبيراً هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاماً (٨٤) . ورست قطع الأسطول الرومى بقيادة (منويل الخصى) (٨٥) بالاسكندرية « وأجابه من بها من الروم ولم يكن الموقس تحرك ولا نكت » (٨٦) .

والواقع أن الروم توخوا السرية التامة فى ارسال تلك الحملة ، وكانت دولة الروم الى ذلك الحين لا تزال على سلطانها فى البحر « غير مدافعين ولا معاندين » . وعلى العكس من ذلك كان العرب ، فلم يكن لهم فى ذلك الوقت سفينة واحدة فى البحر المتوسط تأتيم بأخبار أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور للاستيلاء على الاسكندرية . فما شعر العرب الا وأسطول الروم يدخل ميناء الاسكندرية فى ثلثمائة سفينة ، وألقى فيها مراسيه غير مدافع ،

82. Agapitus : Kitab Al-Unvan : Patrologia Orientalis, V. VIII, p. 479.

اليقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٦٤ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٥ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٨٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٧٥ - ١٧٧ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١١ - ٢١٤ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٨١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٨٤) د . سيده كاشف : العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى للعام الجامعى ٩٥ / ١٣٩٦ هـ - الرئاسة العامة لتعليم البنات - كلية البنات بالرياض ، ص ٨٠ .

هنا أخطأ كل من ابن الاثير والسيوطى فى التحديد الزمنى لتلك الحملة وفى ذكر اسم الامبراطور الذى أرسلها . فذكروا ان السنة كانت (سنة ٣٥ هـ) وأن الامبراطور كان (قسطنطين بن هرقل) . ومن المرجح أن الخطأ وقع فيه ابن الاثير أولاً ثم نقله عنه السيوطى فى كتابه . (ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢) . أما ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ فيذكر أن امبراطور الروم فى ذلك الوقت كان قسطنطين بن هرقل وأنه هو الذى خرج بنفسه الى الاسكندرية فى ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين .

(٨٥) هو القائد البيزنطى (الرومى) الذى استبسل فى الدفاع عن الاسكندرية فى حضارها الاول ودافع عنها دفاعاً مجيداً (د . ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١)

(٨٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

ولم يكن بالمدينة إلا ألف رجل من العرب للدفاع عنها فقتل عليها العرب وقتلوهما إلا عددا قليلا (٨٧) .

وبالفعل تم استيلاء جيش الروم على الاسكندرية فى نهاية ٦٤٥ م / ٢٥ هـ وزحف من بعدها الى ما يليها من بلاد الدلتا ينهب فيها ويغتصب من السكان ما لديهم من القمح والتبذ والمال (٨٨) . عندئذ تخرج مركز العرب فى مصر وكان الوالى اذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان (٨٩) .

والحقيقة أن انتصار الروم فى ذلك الوقت كان « نصرا مؤقتا » (٩٠) فقد طلب أهل مصر عندئذ من الخليفة عثمان بن عفان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم ، فان له خبرة ودراية بمحاربة الروم فنفذ طلبهم (٩١) . وبالفعل أعيد عمرو الى مصر ، فكانت اعادته عملا هاما وخطة موفقة، حيث أتيح فيها لقاء فاتح مصر الأول والخبير بشؤونها بالقائد مانويل البيزنطى العنيد الذى كان كل هدفه أن يعيد مجد دولته فى مصر » (٩٢) .

(٨٧) د سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٧ ، د ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥١ .

(٨٨) د السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٣ .

(٨٩) د سيده كاشف : العرب واليغار ، المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨١ . كان عمر بن الخطاب قد توفى سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان رضى الله عنهما فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه . وكان عمر بن الخطاب قد ولى عبد الله بن سعد من الصعيد الفيوم ، فلما استخلف عثمان بن عفان طمع عمرو ابن العاص أن يعزل له عثمان عبد الله بن سعد عن الصعيد فرد عليه عثمان بقوله لقد ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة « وهو أخى فى الرضاة فكيف أعزله عما ولاه غيرى ، فغضب عمرو فعزل عثمان وولى عبد الله على مصر كلها » وكان ذلك سنة خمس وعشرين للهجرة وقبل عودة الروم لغزو الاسكندرية (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

90. Bernard Lewis : The Arabs in History, Hutchinson, p. 54, G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

(٩١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ص ١٧٥ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ١١ ، المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٩٢) د العدوى . الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ .

سار عمرو للالاقاة. عدوه بجيش مكون من « خمسة عشر ألفا » (٩٣) وانضم الى المقوقس من اطاعه من القبط أما الروم فلم يطعه منهم أحد . فأشار النبعض على عمرو بن العاص أن يسرع فى مهاجمتهم قبل أن يكثر عددهم وأنه لا يأمن « أن تنتفض مصر كلها » فرفض عمرو قائلا دعهم حتى يسيروا الى فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض » (٩٤) .

وبالفعل خرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يعترض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم فى البر والبحر ودارت بين الجانبين معارك شديدة طاردهم المسلمون فيها حتى الاسكندرية وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل قائد الروم منسويل الخصى (٩٥) ، أو هروبه للقسطنطينية (٩٦) ، ولأنه يرجح أنه قتل ، وذلك فى صيف ٦٤٦ م. (٩٧) .

وقد قتل مع قائد الروم أعدادا غفيرة منهم ، وفى النهاية تدخل البعض وطلبوا من عمرو أن يرفع السيف عنهم . وبالفعل تم ذلك ، ويثنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا وهو المسجد الذى يعرف فى الاسكندرية بمسجد الرحمة ، والذى سمي بذلك لرفع عمرو السيف هناك (٩٨) : أما من

(٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٠ .

(٩٤) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، السيوطى : المصدر السابق ،

ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٩٥) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، البلاذرى : فتوح :

البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، د العدوى :

الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٢ ، د سبده كاشف مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦٠ : Aly Mohamed Fahmy : Op. Cit., p. 78.

96. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115.

د السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١

97. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 115.

د السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، نفس الصفحة ، د العرينى : مصر

البيزنطية ، ص ٤٣٣ .

(٩٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦١ . وهنا تضيف الدكتور سعاد

ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٧٩ (لعل مكانه الآن حديقة الشلالات مكان

ضريح سيدى عمر بن يحيى) .

نجا من القتل من الروم فقد لجأوا الى السفن وهربوا بها بحرا (٩٩) .

وهكذا تشدد عمرو بن العاص فى موقفه من الروم فى الاسكندرية هذه المرة . وقد عبرت المصادر والمراجع المختلفة عن ذلك بصور شتى ، فمثلا البلاذرى يذكر أنه « دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية » (١٠٠) أما اليعقوبى فيقول أن عمرو فتح الاسكندرية سنة ٢٥ هـ « وسبى الذرارى ووجه بهم الى المدينة فردهم عثمان الى ذمتهم الأولى » (١٠١) . بينما يذكر ابن عبد الحكم والمقرئى أن عمرو فتح الاسكندرية فى هذه المرة « عنوة وقسرا » (١٠٢) فى حين يكتفى الكندى بالقول بأن الاسكندرية « فتحت الفتح الثانى عنوة سنة خمس وعشرين » (١٠٣) بينما يذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص غزا أهل الاسكندرية « فى ربيع الأول سنة ٢٥ هـ فافتتح الأرض عنوة وافتتح المدينة صلحا » (١٠٤) . أما ابن العماد فيذكر أن عمرو « قتل وسبى » (١٠٥) فى الوقت الذى اكتفى المؤرخ (الفريد بتلر) بالقول بأن الاسكندرية تم الاستيلاء عليها نهائيا بالقوة (١٠٦) .

والواقع أنه مهما اختلفت الآراء فان الاسكندرية فتحت فى المرة الثانية بالقوة .

وكان الروم عندما خرجوا من الاسكندرية وتوجهوا الى الوجه البحرى قد أخذوا الأموال من أهل القرى التى مروا بها سواء من أيدهم أو عارضهم فلما انتصر المسلمون عليهم جاء الفريق المعارض للروم وطلبوا من عمرو أن

(٩٩) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣٣ .

(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١١ .

(١٠١) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(١٠٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ج ١ ، ص ١٧٨ ، المقرئى : الخطط ،

ج ١ ، ص ٢١٤ .

(١٠٣) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ١١ .

(١٠٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٦٥ .

(١٠٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ٣٥ .

106. Alfred Butler : Op. Cit., p. 323.

يرد عليهم أموالهم ودوابهم لأنهم لم يخالفوهم « فردن عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة » (١٠٧) .

هذا وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور لأنه كان قد حلف أنه إذا نصره الله على الروم وأجلاهم عن الاسكندرية في تلك المرة ، أن يهدم سورها ويجعلها « مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب » (١٠٨) .

وقد ساعد الأقباط العرب الفاتحين ضد الروم واستسلموا لحكمهم منها .
يثبت أنهم « فضلوا الخضوع للعرب عن الخضوع لبيزنطة » (١٠٩) .

أما عمرو بن العاص فلم يستمر في ولاية مصر بعد فتح الاسكندرية الثاني سوى شهرا واحدا عزله بعده عثمان بن عفان وولى عبد الله بن سعد (١١٠) .

وبالنسبة لحركة الفتوحات الاسلامية فانها سارت قدما في طريقها الطبيعي واستولى العرب بعد فتح الاسكندرية الثاني على السواحل « فيما بين الاسكندرية والفرما » (١١١) . بل ان الخليفة عثمان بن عفان تشدد بعد ذلك في توصياته بضرورة الحفاظ على الاسكندرية والسهر على حراستها ، وهذا ما عبر عنه عندما كتب لواليه على مصر - عبد الله بن سعد بن أبي سرح يقول « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم

(١٠٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٨١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(١٠٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٨١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
109. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 115,

د . السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ، ص ١٤١ .
فقد قاد البطريرك المونوفيزييتي بنيامين الشعب السكندري في مظاهرة ضد الزنوم وأعلن الخضوع لحكم المسلمين .

(١١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ .
111. Agapitus : Kitab Al Unyan : Pátrologia Orientalis, V. VIII, p. 479.

- ٣٦ -

مرتين : فالزم الإسكندرية مرابطيها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم
في كل ستة أشهر (١١٢) .

والواقع أنه بعد فتح العرب الإسكندرية للمرة الثانية ، استمرت مصر
بصفة دائمة تحت الحكم الإسلامي (١١٣) .

ولقد كانت أهمية مصر بالنسبة لدولة الروم ، وعدم قدرة الأخيرة على
التسليم بضياح مصر هو الدافع وراء المحاولات الدائبة التي قامت بها دولة
الروم لاستعادة تلك البقعة الشديدة الأهمية بالنسبة لاقتصادها . وقد تمثلت
أولى تلك المحاولات بعد جوالى تسع سنوات من استيلاء العرب النهائي على
الإسكندرية ونقصد بها موقعة ذات الصواري البحرية الشهيرة .

(١١٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ،
ص ١٦٢ ، والمقصود بـ "بأمر المؤمنين" هنا عمر بن الخطاب .
113, G. Ostrogorsky, : Op. Cit., p. 115.

موقعة ذات الصواري (*)

اختلفت المصادر والمراجع فى تحديد تاريخ تلك المعركة ، فالبعض يذكر أنها كانت سنة « احدى وثلاثين للهجرة » (١١٤) ، والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة « أربع وثلاثين » (١١٥) فى حين يذكر فريق ثالث أنها كانت سنة « خمس وثلاثين » (١١٦) قبل مقتل عثمان بن عفان « (١١٧) » .

يرجع السبب البعيد لتلك الموقعة الى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح لما أصاب الروم « باغريقية » خرجوا لمحاربته (١١٨) أو أنه لما أصاب من الفرنج والبربر ببلاد أفريقية والأندلس « حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل » (١١٩) - والمقصود هنا قسطنطين الثانى (٦٤١ - ٦٦٨ م) (١٢٠) /

(*) سميت تلك الموقعة بموقعة ذات الصواري . « لكثرة صواري المراكب واجتماعها » (الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء . ص ١٢ .
 (١١٤) الطبرى : تاريخه . ج ٤ . ص ٨ ٢٨ . ابن الأثير : الكامل . ج ٢ . ص ١١٧ . ابن كثير : البداية والنهاية . ج ٧ ص ١٧١ . د . على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى . ص ٢٤٤ .
 (١١٥) الطبرى : المصدر السابق . ص ٢٨٨ . الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء . ص ١٣ ابن الأثير : الكامل . ج ٢ . ص ١١٧ . ابن كثير : البداية والنهاية . ج ٧ . ص ١٧١ . د . سيده كاشف . العرب والبحار . المرجع السابق . ص ٨٢ . د . العدوى : الامبراطورية البيزنطية ١٠٠٠ . ص ٥٣ . د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ١٠٠٠ ص ٨٠ .
 (١١٦) ابن الأثير : الكامل . ج ٣ . ص ١٩٩ . المقرئى : الخطوط . ج ١ . ص ٣١٥ . السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ . ص ١٦٢ .
 (١١٧) ابن الأثير : الكامل . ج ٢ . ص ١٩٩ . وقد قتل عثمان « فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة » سنة خمس وثلاثين (السعوى : مروج الذهب ومعادن الجوهر . ج ٢ . تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد . الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م) . ص ٣٥٥ .
 (١١٨) الطبرى : تاريخه . ج ٤ . ص ٢٩٠ .

(١١٩) ابن كثير : البداية والنهاية . ج ٧ . ص ٧٢ .
 120. G. Ostrogorsky : Op. Cit., pp. 114, 580,

د . الباز العريشى : الدولة البيزنطية، ص ٩٨٥

(٢١ - ٤٨ هـ) - وساروا لمحاربة المسلمين . وثمة رأى آخر يذكر « أن الروم انتهزوا فرصة انشغال عبد الله بن سعد بن أبي سرح فى محاربة (سبيلطة) من أرض تونس سنة ٢٧ هـ وجاءوا بأسطول كبير لمحاربته » (١٢١) .

أما السبب المباشر لتلك الموقعة فيقال أنه لما استولى العرب على الاسكندرية « جاءت الروم الى قسطنطين بن هرقل وقالوا له : أنترك الاسكندرية فى أيدي العرب وهى مدينتنا الكبرى » (١٢٢) ثم طلبوا منه أن يخرج بهم لاسترداد الاسكندرية « فأخرج على أننا نمسوت فتبايعوا على ذلك » (١٢٣) وخرجوا بأسطول بحرى كبير اختلفت المصادر فى تعدادة . فبينما ذكر الطبرى أنه كان مكونا من « خمسمائة مركب » (١٢٤) ، نجد الطبرى قد ذكر فى موضع آخر ، وأيده ابن الأثير فى هذا رأى ، وهو أنه كان يتراوح بين « خمسمائة أو ستمائة » (١٢٥) بينما ذكرت بعض المصادر الأخرى أنه كان حوالى « ألف مركب » (١٢٦) بل قيل أن ملك الروم خرج

هنا يذكر استروجرسكى ص ١١٤ أنه بناء على قرار اتخذه السناتى فى بيرنطة سنة ٦٤١ تقرر عزل مارتينا وهرقلونس وذلك بعد قطع لسان مارتينا وقطع أنف هرقلونس تم نفيهما الى جزيرة رودس . واعتلى العرش ابن قسطنطين الثالث الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره والذى اتخذ اسم هرقل عند تعميده . وهو اسم أبيه ، وعند نفيه اتخذ اسم قسطنطين وأطلق الناس عليه اسم قنسطانز (الثانى) وهو مصغر قنسطنطين . وهو الذى أصبح يعرف فيما بعد بالملتحى Pogonatus لادلائق لجذته كلما تقدم فى السن . وربما كان اتخاذه اسم قنسطنطين عند تنويجه هو الذى جعل غالبية المصادر العربية تخطئ وتسميه (قنسطنطين بن هرقل) وعلى سبيل المثال لا الحصر . الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

(١٢١) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية . . . ص ٨١ .
 (١٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢ . وقد خلط ابن اياس هنا أيضا بين اسم قنسطنطين بن هرقل وقنسطانز .
 (١٢٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢ .
 (١٢٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .
 (١٢٥) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ .
 (١٢٦) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ١٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ . القرىزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٦٢٢ . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ .

- ٢٩ -

« فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط » (١٢٧) . بينما كان عدد مرادب المسلمين يقدر « بمائتى مركب ونيفا » (١٢٨) .

وثمة رأى يذكر أن سبب تلك الواقعة هو أنه فى سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م أبحر الامبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية لعرقلة الاستعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانئ الشام لشحن اغارة على القسطنطينية (١٢٩) .

وكان الذى يتولى حكم مصر فى ذلك الوقت هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وهو يعتبر أمير البحر الثانى فى الاسلام ، وذلك بعد معاوية ابن أبى سفيان والى الشام قبل أن تصير له الخلافة (١٣٠) .

ولكن قبل أن نستعرض فى سرد أحداث تلك الواقعة الهامة نود أن نتساءل : أين دارت رحاها ؟ هل نشبت عند فونيكس Phoenix قرب شواطئ ليكيا ، بآسيا الصغرى ؟ أم بالقرب من ثغر فونيكه عرب الاسكندرية ؟

الواقع أن بعض المراجع الحديثة تؤكد أنها حدثت بالقرب من الاسكندرية (١٣١) والبعض الآخر يذكر أنها حدثت بالقرب من شاطئ ليكيا (Lycian Coast) بآسيا الصغرى (١٣٢) . فى حين تركتها بعض مراجع

-
- (١٢٧) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .
 (١٢٨) الكندى : المصدر السابق ، ص ١٣ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ .
 (١٢٩) د ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٣ .
 (١٣٠) د عبد الرحمن الرافعى ، د سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ ، د سيد كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٢ .
 (١٣١) د سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٤ ، د على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .
 132. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 116,
 د الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ ، د العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٣ .

أخرى دون تحديد مكتفية بالإشارة الى أنها اما حدثت بالقرب من أسيا الصغرى أو الاسكندرية (١٣٣) .

ونحن نميل الى اعتبار أن تلك الواقعة حدثت بالقرب من شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى ، ذلك لأن الطبرى مثلا يذكر في خلال سرده التاريخي لها ، أن عبد الله بن سعد « ركب في مركب وحده ما معه القبط حتى بلغوا دلت الصواري ، فلقوا جموع الروم » (١٣٤) كذلك كتب ابن كثير أن عبد الله بن سعد « أقام بذات الصواري أياما م رجع مؤيدا » (١٣٥) وذلك بعد احرازه للنصر . هذا الى جانب ما ذكرته بعض المراجع الحديثة من أن تلك الواقعة كانت « جزءا من سياسة العرب الدفاعية لتأمين سلامة شواطئهم على البحر الأبيض المتوسط » (١٣٦) .

وإذا كان الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، فقد خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح بأسطول مصر لقتال الروم قرب شواطئ آسيا الصغرى ليدهم مصر من خطر الروم .

وقد هال عبد الله بن سعد كثرة عدد سفن الروم بالنسبة لعدد سفن المسلمين ، لذا بدأ يستشير أصحابه فيما يفعل ، وطرح القضية أمامهم لاتخاذ الرأى فيها قائلا : « بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل اليكم فى ألف مركب فأشيروا على » . وبعد تفكير عميق قام أحد رجال الاسكندرية وطلب من عبد الله ضرورة مواجهة العدو والبدء بمهاجمته فورا ، وعقب على رأيه بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » (١٣٧) .

وبالفعل شحن عبد الله بن سعد سفن المسلمين بالرجال ولكنه لم يستطع أن يستفيد من كل القوة التى تحت يده ، لأن نصف القوات كانت قد خرجت

(١٣٣) د . سيده كاشف : مصر نى فجر الاسلام . ص ٨٥ . د . سيده كاشف : العرب والبحار ، ص ٥٤ .

(١٣٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(١٣٥) ابن كثير : البداية والنهاية . ج ٧ . ص ١٧٢ .

(١٣٦) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٤ .

(١٣٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

- ٤١ -

مع بسر بن أرطأة في البحر ، لذا ركب في كل مركب « نصف شحنته » (١٣٨) فقط ، كذلك شارك أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان في تلك الموقعة (١٣٩) .

وقد أعطانا الطبري وصفاً تفصيلياً لتلك المعركة حين ذكر انهم ربطوا سفنهم بسفن العدو ، حتى كانوا يضربون بعضهم بعضاً على سفنهم وسفن أعدائهم ، فقاتلوا قتالاً شديداً « حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الامواج وطرحت الامواج جثث الرجال ركاباً » (١٤٠) . فقد قتل من الجانبين أعداداً كبيرة « قتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى » (١٤١) والراجح ان عدد قتلى الروم فاق عدد قتلى المسلمين حيث يذكر الطبري ان الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة « ولم ينج من الروم الا الشريد » (١٤٢) .

وثمة رأى آخر يذكر أنه بعد تحريض الروم لامبراطورهم وحثه على ضرورة استرداد الاسكندرية من المسلمين ، سار الامبراطور بأسطول كبير لانجاز تلك المهمة لكن الله سبحانه وتعالى بعث عليهم رياحا عاصفة عالیه اغرقتهم ولم ينج منهم الا الامبراطور نفسه وعدد قليل من قواته ألقت بهم الريح بصقلية (١٤٣) . فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بما حدث له ولقواته ،

(١٣٨) المقرئى : نفس المصدر ، ص ٣١٥ :

(١٣٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٨ ، د . سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ٥٥٠ ص ٨٤ .

(١٤٠) الطبري : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ . ذكر أحد شهود العيان لتلك المعركة أنه رأى الساحل حيث تضرب الرياح الموج « وأن عنيه مثل الطرب العظيم من جثث الرجال وان الدم الغالب على الماء » والمقصود بالطرب هنا ما نتأ من الحجارة وحدد طرفه .

(١٤١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

(١٤٢) الطبري : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ .

(١٤٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ . المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص

٣١٥ . السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢ . وقد أخطأت كل تلك المصادر في تسمية امبراطور الروم باسم قنسطنطين بن هرقل .

فما كان منهم الا أن قالوا له « لقد أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت اليينا فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم » (١٤٤) ويتعبير آخر « شئت النصرانية وأفنيت رجالها ، لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم » (١٤٥) فأدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه فى المركب (١٤٦) .

هنا نتوقف قليلا عند تلك العبارة التى اتت على لسان اهل صقلية ، ثم موقفهم من امبراطورهم ، ثم ننقل الى تحليل الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر لها . ففى ثنايا قول اهل صقلية « لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم » نستطيع أن نستشف مدى المكانة العظيمة التى بدا العرب يحتلونها فى المجال البحرى وما بلغوه فى ذلك الوقت المبكر من مركز مرموق فى الحروب البحرية « مما يدحض الراى المتواتر عند جمهور المؤرخين من أن العرب كانوا حديثى العهد بممارسة البحر وركوبه ، فقد كانت أساطيل العالم فى ذلك الوقت ترهبهم وتخشى بأسهم ، وأن البلاد التى كان ركوب البحر حرفة وصناعة لها ، تملكها الزعر بعد انتصار العرب على الاسطول البيزنطى ، مما حدا بها الى قتل ملكها خشية انتقام العرب منهم اذا علموا بايوائهم له » (١٤٧) .

لكن هل قتل اهل صقلية امبراطور الروم حقا ؟ الواقع أننا نقف عند الاجابة على هذا السؤال أمام رأيين متناقضين . الأول وهو الذى يذكر أن اهل صقلية قتلوا الامبراطور (١٤٨) . والثانى أنه هرب بأعجوبة (١٤٩)

(١٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢ .

(١٤٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(١٤٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص

٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ،

ج ١ ، ص ١٢ .

(١٤٧) د سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٨٣ - ٨٤

(١٤٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص

٣١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ،

ج ١ ، ص ١٢ . وتضيف تلك المصادر أن امبراطور الروم دافع عن نفسه أمام اهل

بعد أن كاد يقع أسيرا في يد المسلمين (١٥٠) .

ونحن نرجح الرأي الثاني الذي يؤكد هرب الامبراطور ، مستنديين في ذلك الى ما كتبته استروجورسكي من أن الامبراطور قنسطانز الثاني .
Constant II « الذي كان في شدة الخطر استطاع أن يحمي نفسه بواسطة تضحية شخصية بطولية لأحد الجنود البيزنطيين الصغار » (١٥١)
وإذا كانت فترة حكم قنسطانز الثاني امتدت من (٦٤١ - ٦٦٨ م / ٢١ - ٨٤ هـ) فإن استروجورسكي يذكر في موضع آخر أنه « قتل في حمامه في ١٥ سبتمبر ٦٦٨ م بواسطة أحد الحجاب » (١٥٢) .

والحقيقة أن تلك الموقعة كانت حدا فاصلا في سياسة الروم تجاه المسلمين . فقد أفاق الامبراطور قنسطانز بعدها الى نفسه وأدرك أن اعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام يعتبر « مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات وأنها » (١٥٣) .

لقد كانت موقعة ذات الصواري نصرا بحريا كبيرا للمسلمين ، وقد « وصفها المؤرخ اليوناني ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم » (١٥٤) .

صفلية بقوله « اننا خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا . لكنهم صنعوا له الصمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقبلون ملككم ؟ قالوا كانه عرق معهم ثم قتلوه »
149. G. Ostrogorsky : Op. cit, p.116

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ١٧٢ . حيث يقول (انه بعد انتصار المسلمين هرب قسطنطين وجيشه وقد قتلوا جدا وبه جراحات شديدة مكينة مكث حيناً يداوى منها بعسد ذلك)

(١٥٠) د السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ .
151. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 116.

ويفصل نفس المرجع كيفية هرب الامبراطور قنسطانز في إحدى الحواشي التي نقلها عن ثيوفانس بقوله أن الامبراطور استبدل ملايسه مع أحد الجنود وبذلك تمكن من الهرب من حين قتل للعرب ذلك الجندي بدلا منه ، والراجح أنه كان من الجنود الشجعان فقد رويت عنه الكثير من روايات البطولة .
152. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 123.

(١٥٣) د العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٤ .

(١٥٤) د سيده كاشف : العرب والبحار ، ص ٨٣ .

بل ان بعض المؤرخين يعتبرون موقعة ذات الصوارى أعظم موقعة حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد (١٥٥) . فلقد كانت أول انتصار للعرب فى العصر الاسلامى فى الحروب البحرية ، بل انها جعلت العرب يدركون انهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرهما وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليها الفصل فى سيادة ذلك البحر وانتزاعه نهائيا من قبضة الروم (١٥٦) .

واذا كانت مصر قد انتصرت فى تلك الموقعة فانها استفادت من وراء ذلك الانتصار فائدة كبيرة فقد استولت على كثير من سفن الروم ، وكانت تلك السفن نواة للأسطول المصرى الكبير الذى اعترف بفضلها فى النضال الذى قام قيما بعد بين الامويين والروم (١٥٧) .

واذا كان عبد الله بن سعد قد استطاع أن يفخر فى التاريخ بأن أسطول مصر فى عهده صار قوة لها حسابها فى مياه البحر المتوسط ، بعد أن أنزل الهزيمة بأسطول الروم فى موقعة ذات الصوارى ، فإن خلفاء عبد الله بن سعد للذين تولوا ولاية مصر بعده أظهروا عناية كبرى بأمر الأسطول وخاصة أن غزوات الروم البحرية لم تنتقطع عن شواطئ مصر ومواقعها على البحر المتوسط (١٥٨) . ولو أن الطابع الغالب على تلك الهجمات كان طابع القرصنة فقد « تعرضت بعض المدن الساحلية دائما لغارات من البحارة والقرصان البيزنطيين » (١٥٩) .

(١٥٥) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ .

(١٥٦) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(١٥٧) د. على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

(١٥٨) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٢ .

(١٥٩) د. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٤ .

الباب الثاني

الروم والشواطىء المصرية حتى الحملة الصليبية الأولى

الفصل الأول : هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى حملة ٢٣٨ هـ على دمياط

الفصل الثاني : حملة ٢٣٨ هـ وأهميتها وأثارها •

الفصل الثالث : هجمات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحملة الصليبية الأولى

هجمات الروم من ٥٣ هـ حتى ٢٣٨ هـ على دمياط

تعرضت شواطئ مصر البحرية، بصفتها مستمرة لهجمات الروم . وقد نجحت تلك الهجمات حيناً وأخفقت أحياناً وسنحاول أن نستعرضها بشيء من الإيجاز فيما يلي :

نزل الروم في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م بالبرلس (١) وكان والى مصر آنذاك مسلمة بن مخلد (٢) ، فخرج المسلمون اليهم في البر والبحر واستشهد منهم « جمع كثير » (٣) وكنتيجة لهذا الهجوم بنيت أول دار لصناعة الأسلحة

(١) لا يعرف بالتحديد سبب توحيه تلك الحملة البحرية الرومية الى البرلس بالذات ولكن الراجح أن تلك الحملة وغيرها على الشواطئ الاسلانية كانت رد فعل لهجمات معاوية بن أبى سفيان المتتالية على اسيا الصغرى من ناحية البر خمسة عشر سنة متتالية من ٦٦٣ م حيث استطاع أن يحول فيها سكان ضواحيها بأكملها الى العبودية . وكذلك استطاع فى محال البحر أن يستولى على قبرس ورودس وغيرها من الجزر البحرية التابعة لدولة الروم . هذا وقد تمكن أحد قواده من الاستيلاء على جزيرة كيزيكوس Cyzicus . كما استطاع جزء من أسطول معاوية فى ٦٧٢ م . أى قبل مهاجمة البرلس بسنة تقريبا - من الاستيلاء على Smyrna واستولى جزءتان من الاسطول على بعض شواطئ قيلقية وليكيا . حدث كل ذلك فى عهد الامبراطور قنستنتين الرابع Constantine IV (٦٦٨ - ٦٨٥ م) والذى شهد عهده دورا فاضلا فى الصراع الاسلامى الرومى (G. Ostrogorsky, Op. Cit., pp. 122-124)

(٢) مسلمة بن مخلد الانصارى هو الذى ولى مصر من قبل معاوية « وجمع له الصلاة والخراج والمغرب » . وتوفى وهو وال عليها لخمس بقين من رجب سنة اثنين وستين ، وكانت ولايته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر (الكندى : كتاب الولاد وكتاب القضاء ، ص ٢٨ ، ٤٠)

ومسلمة بن مخلد كان يدعى أبو سعد الانصارى وهو الذى حل محل عقبة الصهنى فى مصر وكان الاخير قد أرسل بواسطة معاوية بن أبى سفيان ليستولى على جزيرة رودس فى سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ - ٦٦٨ م) . وقد ظل مسلمة حاكما لمصر وشمال افريقيا حتى وفاته فى ٦٢ هـ / ٦٨١ م (Fahmy A.M. : Op. Cit., p. 139)

(٣) الكندى : كتاب الولاد وكتاب القضاء ، ص ٢٨ . « ومن استشهد فى ذلك اليوم وردان مولى عمرو بن العاص وعائذ بن ثعلبة البلوى وأبو رقية عمرو بن قيس المخمى فى جمع من الناس كثير » .

بمصر فى السنة التالية فى جزيرة الروضة حيث وطد العزم على بناء السفن الحربية بها (٤) .

وفى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م نزل الروم على دمياط (٥) . وكان والى مصر حينئذ قرة بن شريك (٦) العيسى (٦٠ - ٩٦ هـ / ٧٠٩ - ٧١٤ م) وذلك فى عهد الخليفة الوليد الاول (٨) ، فانسروا خالد بن كيسان امير البحر وذهبوا به الى امبراطور الروم فاهداه الى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٦) من اجل الهدنة التى كانت بينه وبين الروم (١٠) .

4. Fahmy A.M. : Op. Cit., p. 139.

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . ودمياط فى ذلك الوقت كانت كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسحا . ويقال سميت بدمياط من ولد اشمن بن مصرام بن بصر بن حام بن نوح عليه السلام . ويقال دمياط حنمة سريامية اصلها دمط : أى العذرة . إشارة الى مجمع العذب والملح (المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠) . أما ياقوت الحموى . معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ (حرف الدال) دار صادر بيروت ، والمقزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٩٣ فيقول عنها أنها مخصوصة بالهواء لطيف وهى من ثغور الاسلام ، عندها يصب ماء النيل فى البحر وعرض النيل هناك نحو مائه ذراع وعليه من جانيه برجان ، بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يدخل مركب فى البحر ولا يخرج الا باذن ، وعلى سورها مدارس ورباطات كثيرة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر بن الخطاب : يا عمر سيفتح على يدك ثغران : الاسكندرية ومياط ، أما الاسكندرية فخرابها من الزلزال وأما دمياط فهم صفوة من صفوة الشهداء من رابطها ليلة كان معى فى حظيرة القنيس .

١١ (٦) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٩٠ هـ .

١٢ (٧) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ٦٤ : ٦٦ « قدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة تسعين وتوفى ليلة الخميس لمست بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وتسعين ، فكانت ولايته على مصر ست سنين الا أياما »

١٣ ويسميه الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ج ١ ، ص ١٠٠ (سرى بن شريك) ويصفه بأنه كان ظلوما عسوها (8. Fahmy A.M. : Op. Cit., p. 140.

١٤ (٩) الطبرى : تاريخه ، أحداث سنة ٩٠ هـ . ابن الاثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٨٥ أحداث سنة ٩٠ هـ .

(١٠) المقرئى : الخطط ، ج ١ ص ٤٠١ .

والحقيقة أنه في نفس الوقت تقريبا ٧٠٩ م كان العرب قد حاصروا الطسوانة Tyana وهى إحدى قلاع كبادوكيا وهزم جيش الروم الذى أرسل لرد ذلك الهجوم هزيمة فادحة ، واضطرت الطوانة فى النهاية للتسليم بعد أن فقدت الأمل فى وصول أية نجدة . كذلك قام العرب فى الفترة ما بين ٩٢ - ٩٣ هـ / ٧١٠ - ٧١١ م بالعديد من الهجمات على قيليقيا دون أن يقابلوا بأية معارضة ، واستولوا على العديد من القلاع (١١) .

كذلك وصلت أخبار فى ٩٦ هـ / ٧١٥ م تفيد باستعدادات بحرية ضخمة للمسلمين على الشواطئ الشامية ، « وقيام أسطول إسلامي سكندري بالتوجه الى موقع يقال له فونكس بأسيا الصغرى لقطع بعض أخشاب السرو لبناء السفن ولزيادة القدرة الهجومية للأسطول الإسلامى » . عندئذ فكر الامبراطور أنستاسيوس الثانى Anastasius II ٧١٣ - ٧١٥ م فى القيام بحروب دفاعية وذلك بمهاجمة الأسطول السكندري أثناء انشغاله بقطع الأخشاب ، وقد انتهت الحملة التى أرسلها أنستاسيوس بتمرد أطاح بالامبراطور نفسه (١٢) .

ولقد شاركت البحرية المصرية فى الحملة التى قام بها مسلمة بن عبد الملك لفتح السقطنطينية وذلك فى سنة ٩٩ هـ / ٧١٨ م ، « فقد وصل من مصر أسطول إسلامي يحمل المؤن والأسلحة » . وقد دخل ذلك الأسطول الى البسفور واتخذ موقعه فى (كالوس أجروس Kalos Agros) (١٣) . ولم تمض سوى سنتين تقريبا حتى تحرك الروم من جديد نحو شاطئ مصر . ففي رمضان ١٠١ هـ / ٧٢٠ م هاجموا تنيس (١٤) ، وذلك فى عهد الخليفة يزيد الثانى .

11. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 143.

كان ذلك فى فترة حكم الامبراطور جستنيان الثانى التى امتدت من ٦٨٥ - ٦٩٥ م ٧٠٥ - ٧١١ م

(١٢) د. وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٣) د. وسام عبد العزيز : نفس المرجع ، ص ١٥٩ . عن (Theophanes : Chronographia, Finlay : History of Greece)

(١٤) د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى،

==

(هجمات الروم)

وتنيس هي الثغر المصرى الشقيق لدمياط (١٥) ، وقد ظلت بيد المسلمين الى أن كانت ولاية بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك (١٦) نزلها الروم « فقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى فى جمع من الموالى » (١٧) .

ص ٧٣ ، د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٠٣ .
ومن المرجح أن ذلك أيضا كان رد فعل لهجوم مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية سنة ٧١٧ - ٧١٨ م والذى تضافرت عدة عوامل على اخفاقه مثل قسوة الشتاء آنذاك ومهاجمة البلغار للقوات الاسلامية ، جنبا الى جنب مع جيش الروم ، مما دفع الجيش الاسلامى الى الانسحاب من المياه الرومية (البيزنطية)
G. Ostrogorsky : Op. Cit., pp. 156-157.

(١٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٠ . سميت تنيس على اسم تنيس بن حام بن نوح . ويقال بناها قليمون من ولد اتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم . ويقال أن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز ، اذ يقول : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخيل . » كانتا لاختوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع ، فأحسن عمارته وهندسته وبنائه . وكان الملك يتنزه فيهما ، ويؤتى منهما بفرائب الفواكه واليقول ويعمل له من الاطعمة والاشربة مايسقطيه . فعجب بذلك المكان أحد الاختوين وكان كثير الضيافة والصدقة ، ففرق ماله فى وجوه البر . وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله ، وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه ، حتى بقى لا يملك شيئا .

وصارت تلك الجنة لآخيه ، واحتاج الى سؤاله ، فانتهره وطرده ، وعيره بالتبذير وقال : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ، ونفعنى امساكى فصرت أكثر منك مالا وولدا . وولى عنه مسرورا بماله وجنته . فأمر الله تعالى البحر ، فركب تلك القرى فغرقها جميعها فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور .

كذلك كانت تنيس مشهورة بثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل - سداه ولحمه - غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب . كذلك اشتهرت تنيس بصناعة كسوة الكعبة المشرفة . (المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٨)

(١٦) قدمها « لسبع عشرة خلت » فى ١٧ رمضان سنة ١٠١ هـ (الكندى : كتاب الولاء وكتاب القضاء ، ص ٧٠) .

(١٧) الكندى : المصدر السابق نفس الصفحة ، المقرئى : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٣٣١ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

الم تر بع فخرى الرجال بما لاقى بتنيس الموالى

أما فى ١٢١ هـ / ٧٣٩ م فقد قام الروم بهجوم ناجح على دمياط للمرة الثانية (١٨) فقد نزلوها فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من « ثلثمائة وستين مركبا » (١٩) فقتلوا وسبوا (٢٠) . ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجاحا ، جزئيا نتيجة للظروف الداخلية التى كانت عليها مصر آنذاك عندما قام الأقباط بثورة كبرى ، بالإضافة الى هجوم أقباط النوبة على مصر من الجنوب (٢١) .

وهنا يذكر (كانار) أن تحطيم الروم لأحد الأساطيل المصرية بالمقرب من جزيرة كريت حوالى سنة ٧٤٧ م / ١٢٩ - ١٣٠ هـ « أثر فى البحرية المصرية تأثيرا شديدا فأنقصها وزاد من ضعفها ووهنها فى المائة سنة التالية » (٢٢) . وثمة رأى آخر أكثر وضوحا يذكر أن المعركة التى اشتبك فيها أسطول كريت الرومى بالأسطول العربى الكبير المكون من ألف سفينة من مصر والشام بالمقرب من جزيرة قبرص التى انتصر فيها أسطول الروم لأنه كان مسلحا بالنار الاغريقية وانهزم فيها الأسطول العربى ولأن بالفرار ولم ينج منه سوى ثلاث قطع ، أدت تلك الهزيمة الى اختفاء قوة مصر البحرية فى البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان (٢٣) .

كذلك أثرت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وأدت الى امتداد الفتن الى أرض مصر « فطمع الروم فى البلاد ونزلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين » (٢٤) . فقد استغل الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ -

(١٨) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٨٨ ،
M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV Part I, p. 699.

د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٧٣
(١٩) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ ، د. سعاد ماهر : المرجع السابق ،

ص ٨٨ .

(٢٠) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢١) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .
22. M. Canard : Com. Med. Hist., V. IV Part 1, p. 699.

(٢٣) د. وسام عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

(٢٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . فبعد قيام ثورة فى بلاط قرطبة ضد الامير الحاكم ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م ترك بعض المغامرين الاسبان بلادهم

٢٨٠ م) تلك الظروف الصعبة التي كان عليها المسلمون وأرسل أسبطولا حوالى ٨١٧ م / ٢٠٢ هـ لهاجمة دمياط (٢٥) . وهذا ما دفع الأستاذة الدكتور سعاد ماهر الى وصف الهجمات البحرية التي شنّها الروم على مصر « بطابع الانتهازية » (٢٦) .

ولقد شهدت الفترة التالية عدة اتفاقات بين الجانبين الاسلامي والرومي . فمثلا فى شمال بلاد الشام عرض الثائر العربى نصر على امبراطور الروم أن يعقد معه تحالفا . وبالرغم من أن ذلك التحالف لم يتم فإن الخليفة المأمون عقد تحالفا مع توماس السلافى - وهو أحد قادة جيش الروم وكان قد هرب الى العرب فى عهد هارون الرشيد - وبمساعدة الخليفة توج امبراطورا بواسطة بطريك أنطاكية ، وفى ٨٢٠ م / ٢٠٥ هـ وهو تاريخ مقتل ليو الخامس واعتلاء ميخائيل الثانى العمورى العرش ، كان توماس قد استطاع بواسطة المساعدات الاسلامية أن يخترق أرمينيا وأن يضم غالبية المقاطعات العسكرية فى آسيا الصغرى اليه وبدأ يستعد للمسير الى القسطنطينية . ولم يستطع الامبراطور ميخائيل أن يقضى عليه قبل سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ هـ . ونتيجة لذلك فقد استطاع المسلمون الوصول الى كمخ وقاموا بعدة هجمات بحرية على شواطئ وجزر آسيا الصغرى . وأكثر من

وابحروا مصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم ، حتى نزلوا فى ضواحي الاسكندرية وكان ذلك حوالى ١٩٩ هـ / ٨١٤ - ٨١٥ م وفق رأى الكندى وبعد أن شعروا بقوتهم بعد فترة بدأوا يستغلون الفوضى السائدة فى مصر ليعملوا لحسابهم ، واختاروا أبو حفص قائدا لهم ثم استولوا على الاسكندرية فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ يولييه ٨١٦ م وظلوا مسيطرين على الاسكندرية حتى أرسل الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ - ٨٢٦ م ليضع نهاية للاضطرابات فى مصر وقد نجح فى اتمام مهمته خلال عامين استطاع خلالهما أن يخضع الحاكم الثائر فى صفر ٢١١ هـ مايو ٨٢٦ م وحاصر الاسكندرية فى ربيع الاول ٢١٢ هـ يونيه ٨٢٧ م واستولى عليها بعد تسعة ايام . عندئذ خضع الاسبان للقائد العباسى وحصلوا على تعهد بمغادرة الاسكندرية الى أى اقليم رومى خارج نطاق النفوذ الاسلامى ، فعزموا على التوجه الى جزيرة كريت ذات الموقع الاستراتيجى والتجارى الهام . وعليه كان غزوهم لتلك الجزيرة فى صيف ٨٢٧ م. (Fahmy A.M. : Op. Cit., pp. 128-130)

25.. M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV, Part 1., p. 709.

(٢٦) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٠٠٠ ص ٨٩ .

ذلك فقد استطاع اللاجئون الذين قدموا من قرطبة واستقروا في الاسكندرية أن يغزوا جزيرة كريت ويستولوا عليها في ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . ورغم محاولات الروم استعادتها عن طريق ارسال حملتين في سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م إلا أنهم أخفقوا « ومنيت الحملة الثانية بفشل ذريع فقد ذبحت قواتها وأفنى أسطولها وهرب قائدها » (٢٧) .

حملة ٢٣٨ هـ وأهميتها وأثارها

كان للعرب الأندلسيين في كريت دورا كبيرا في تحريك تلك الحملة لى شواطئ مصر . وعليه فلكي نتعرف عن كثب على الأبعاد الحقيقية لتلك الحملة ينبغي أن نركز الضوء قليلا على جزيرة كريت آنذاك .

ففي مستهل وصاية الامبراطورة ثيودورا ، أرملة الامبراطور ثيوفيل ٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٧ هـ على ابنها القاصر ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧ م / ٢٢٧ - ٢٥٣ هـ قرر المسئولون في القسطنطينية ارسال حملة الى كريت لاستردادها من المسلمين . وبالفعل أبحرت تلك الحملة في ١٨ مارس ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ بقيادة ثيوكتستوس فنزل بقواته على أرض الجزيرة وقاتل بشجاعة وأحرز انتصارا على المسلمين الذين فوجئوا بهذه الحملة في الوقت الذي كان فيه أسطولهم يقوم بالاغارة على البحر الايجي (٢٨) .

27. M. Canard : Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p.709.

(٢٨) د . اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٨٦ عن

(موناخوس Monachus)

وثيوكتستوس هو أبرز أعضاء مجلس الوصاية على الاطلاق في فترة وصايتها على ابنها ولا يرجع نفوذه الكبير الى خدماته المخلصة للامبراطور ثيوفيل لكن يرجع في الحقيقة بالدرجة الاولى الى كونه السبب الرئيسي في اعتلاء ميخائيل الثاني العرش بعد مقتل ليو الخامس . وتعتبر وظيفة اللغثيث Logothete التي تولاهها ثيوكتستوس في عهد ثيودورا ثم ستيليانوس زوتزس Stylianus Zoutzes على عهد ليو السادس

من أهم الوظائف العظيمة والمتزايدة الاهمية .
(Cam. Med. Hist. V. IV Part 1, pp. 105, 106, G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 250).

وللتفصيل أكثر أنظر كتاب المرأة في الحضارة البيزنطية للمؤلفة ص ٥٥ - ٥٦ .

عندئذ رأى مسلمو كريت أنه من الممكن أن يتغلبوا على ضعف إمكاناتهم العسكرية باللجوء الى الحيلة وذلك « بأن رشوا أحد الضباط البيزنطيين وأوعزوا اليه أن يشيع فى معسكره أن الامبراطورة ثيودورا عزلت ثيوكتستوس من مجلس الوصاية » وأنها اختارت أحد منافسيه ليحل محله .
عندئذ سرت تلك الاشاعة فى المعسكر الرومى حتى وصلت الى ثيوكتستوس نفسه ، فخشى على منصبه وترك جيشه وأسطوله وأسرع بالعودة الى القسطنطينية (٢٩) .

وهكذا أدى اهتمام ثيوكتستوس بمصالحه الشخصية الى اضاعة الفرصة على بيزنطة فى استرداد كريت وتسبب فى اخفاق تلك الحملة وتكبيد الدولة خسائر فادحة مادية وبشرية (٣٠) .

ولما كان العرب الأندلسيون فى كريت ، لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر بحر ايجيه وشواطئه بالقرصنة ، لذلك أمرت ثيودورا بالاغارة على سواحل مصر لتخريب ما فيها من دار صناعة بحرية هامة - ترسانة لصناعة السفن - كانت تزود عرب كريت بالسفن والعتاد وأحياناً بالرجال (٣١) كان هذا هو أحد أسباب حملة الروم البحرية على مصر ٨٥٢م / ٢٣٨ هـ . يضاف الى ذلك سبباً آخر هام هو رغبة كل من ثيوكتستوس وثيودورا فى الانتقام لما أنزله أهل كريت بحملة ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ ، لكن الضربة لم تكن موجهة تلك المرة الى كريت وإنما الى مصر نظراً للرابطة القوية التى كانت تربط حكام مصر بأهالى كريت (٣٢) .

والمعروف أن كريت كانت تتبع أحياناً الروم وأحياناً أخرى كانت تتبع الخلافة العباسية ، وفى فترات تبعيتها للطرف الأخير كانت تتبع من ناحية التقسيم الإدارى للدولة العباسية اقليم مصر (٣٣) .

(٢٩) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ عن موثاخوس .

(٣٠) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٣١) د. أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٣٢) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣٣) د. اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٥ عن (النعمان : المجالس

والمسائرات)

كانت كريت تمد مصر بالمعسل النحل والجبن (٢٤) وكانت تصدر الى مصر وسوريا الأخشاب وزيت الزيتون (٣٥) . والراجح أن مصر استخدمت تلك الأخشاب فى دار صناعتها لصناعة السفن ، التى كانت ترسل منها عددا الى كريت كما كانت تمدها أيضا بالسلاح والعتاد الحربى (٣٦) وكل ما يدعم حكامها (٣٧) .

وقد قيل أن السبب المباشر لتوجيه حملة الى سواحل مصر فى ذلك الوقت (٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ) هو ما وصل الى المسئولين الروم من أن هناك كمية من السلاح موجودة بمدينة دمياط (٣٨) . أراد المصريون حملها « الى أبى حفص صاحب اقريطش » (٣٩) وعلى ذلك كان هدف تلك الحملة هو قطع الاتصال والمعونة البحرية التى قامت بين مصر - مقر القرسانة - وجزيرة كريت التى غدت خطرا جسيما يهدد قواعد الروم البحرية فى آسيا الصغرى ويهاجمها باستمرار وبانتظام (٤٠) .

وهكذا توجه أسطول رومى الى مصر ، وهنا تجمع غالبية المصادر العربية على أنه كان مكونا من « ثلثمائة مركب » (٤١) بينما يذكر اليعقوبى أن عدده كان « خمسة وثمانين مركبا » (٤٢) والراجح أن اليعقوبى كان يقصد هنا عدد الجزء من الأسطول الذى بدأ الهجوم . وكان الأسطول بقيادة ثلاثة من قادة الروم البحريين . أشار اليهم الطبرى باسم « عرقا وابن

(٢٤) د . اسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٨

35. William H. McNeill : A World History, p.42.

36. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1. p. 713.

37. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 222.

(٣٨) د . اسمت غنيم . المرجع السابق ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣٩) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ (دار المعارف) .

40. L. Brehier : Vie et Mort, p. 128,

د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر ، ص ٨٩ .

(٤١) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ادارة

الطباعة - المنيرة ١٣٥٧ هـ) ص ٢٩٢ ، الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ١٤٤ ،

اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، أبو الحسن : النجوم

الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(٤٢) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ .

قطونا وأمردناقة» (٤٣) أما ابن الأثير فيذكر فقط أن الاسطول كان بقيادة
« ثلاثة رؤساء » (٤٤) .

وإذا كان اليوم الذى حدد للهجوم على دمياط هو ٢٢ مايو ٨٥٣ م (٤٥)
/ ٩ ذى الحجة ٢٣٨ هـ (٤٦) . فإن ذلك يدل على « مهارة تدبير الإدارة
البيزنطية » (٤٧) فقد كان والى مصر فى ذلك الوقت عنبسه بن اسحاق (٤٨)
آخر والى عربى تقلد أزمة الحكم فى مصر وذلك فى عهد الخليفة المتوكل
العباسى (٨٤٧ - ٨٦١ م / ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) (٤٩) .

وهكذا تصادف ذلك الهجوم مع خلق دمياط من حاميتها ، وقد علل
ذلك بسببين : الأول أن عنبسه بن اسحاق أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا
الى الفسطاط عندما اقترب العيد ، « ليتجمل بهم » (٥٠) . والسبب الثانى
أن عنبسه أراد ظهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح واحتفل
بتلك المناسبة احتفالا كبيرا حتى بلغ به الأمر أن أرسل الى ثغرى دمياط

(٤٣) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٣

(٤٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

45. Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1 p. 106.

(٤٦) الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاء ، ص ٢٠١ ،

. المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج

٢ . ص ٢٩٤ . حيث ذكرنا أن ذلك كان يوم عرفة ويؤيد هذا ما ذكره ابن اياس :
بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٤ من أن (بنو الاصفر) - أى الروم - جاؤوا الى ثغر
دمياط سنة ٢٣٨ هـ وهاجموها ٠٠ وأن الخبر جاء «الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر»
أى أن الروم هاجموا دمياط ليلة العيد :

(٤٧) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ٠٠٠ ، ص ٩٢ .

(٤٨) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ص ٢٨٨ ، الكندى : كتاب الولاه وكتاب القضاء ،

ص ٢٠٠ ، أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ فيسميه عنبسه بن
اسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسه . أما ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص
٢٤ ، فيكتفى بتسميته عنبسه بن اسحق بن شمر فى حين يحرف زامباور الاسم بعض
الشيء فى كتابه : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ص ٤١ فيسميه
عنبسه بن اسحق بن شامر .

(٤٩) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٩١ .

(٥٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

وتنيس فأحضر « سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزرايين » وكذلك من كان بثغر الاسكندرية من المذكورين (٥١) . والراجح أن السببين تضافرا معا على اخلاء دمياط من « مسلحتها » (٥٢) على حد تعبير ابن خلدون . وان تلك الحامية استدعيت للاشتراك فى عرض حربى فى الفسطاط وزغب الوالى أن يجعله أكبر عرض حربى ممكن (٥٣) .

ومهما يكن من أمر فإن موقع دمياط سهل على الروم العبث والتخريب فيها على نحو كبير . فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التى تقع على الضفة اليمنى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثنى عشر كيلو مترا من البحر المتوسط ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضى اتساعه كيلو متر واحد ويستدل من أقوال الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة أرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر المتوسط ، كما أن الشريط الأرضى الذى يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنها جزيرة منعزلة فى الماء (٥٤) .

هاجم الروم دمياط « فقتلوا من أمكنهم قتله من الرجال ، وأخذوا من الأمتعة والقند والكتان ما كان عبي ليحصل الى العراق » (٥٥) . بل قيل أنهم « هجموا على أهلها وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة » (٥٦) .

هنا يبين اليعقوبى مدى فداحة الخسائر البشرية حين يقول أن عدد سبائيا الروم « من المسلمين ألفا وثمانمائة وعشرين امرأة ومن نساء القبط

(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٥٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٥٣) أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، د العدوى : الامبراطورية البيزنطية

ص ٩٢ .

(٥٤) د العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩٢ .

(٥٥) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ . والمقصود بالقند هنا غسل قصب

السكر (مختار الصحاح للرازى . دار التراث العربى - حرف المقاف والنون)

(٥٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٤ .

ألف امرأة ومن اليهود مائة امرأة » (٥٧) وهو رأى انفرد به اليعقوبى ونحن نرجحه لأنه أقدم من الطبرى الذى أخذت عنه غالبية المصادر العربية الأخرى حين قال ان عدد السبايا بلغ حوالى « ستمائة امرأة » (٥٨) وأن عدد المسلمات منهن حوالى « مائة وخمس وعشرون امرأة » (٥٩) *

كذلك استولى الروم على السلاح الذى كان بدمياط (٦٠) واستولوا على السقط (٦١) ، كما « أحرقوا خزانة القلوع وهى شرع السفن وأحرقوا المسجد الجامع بدمياط وأحرقوا الكنائس » (٦٢) عدت هرب الأهالى « فغسرق في البحر نحو ألفين » (٦٣) *

ورغم ما أبداه بعض أهالى دمياط من شجاعة نادرة فى قتال الروم الا أن ذلك لم يغير من نتيجة تلك الغارة التى رجحت فيها كفة الروم * فقد كسر بسر بن الأكشف - الذى كان قد حبس بأمر عنبسه - قيوده بواسطة عدد

(٥٧) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ *

(٥٨) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٩ ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ أحداث ٢٣٨ هـ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٢ ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ص ٨٩ *

(٥٩) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ *

(٦٠) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ،

ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ *

(٦١) اليعقوبى : نفس المصدر السابق والصفحة ، والسقط أى المتاع (مختار

الصالح للرازى ، حرف السين والقاف)

(٦٢) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ *

هنا تعقب الاستاذة الدكتور سعاد ماهر على ذلك التصرف بقولها : انه مما يدل على أن تلك الغارة كان يقصد منها أهداف أوسع من السلب الذى جسرت عليه الغارات التقليدية آنذاك ، وأنها كانت جزء من سياسة الروم ازاء أسطول كريت ، أن الجند استولوا على مؤن ونخيرة فى دمياط كانت معدة للشحن الى كريت * ثم أحرقوا أشربة السفن المكسدة فى المخازن البحرية بدمياط (د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩٠) *

(٦٣) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ *

من أعوانه ، وخرج يقاتل الروم هو وجماعة آخرين ، وبالفعل قتل عدد منهم (٦٤) .

وإذا كان اليعقوبى قد أوضح أن الهجوم الرومى على دمياط قد استمر « يومين وليلتين » (٦٥) فإن بعض المصادر العربية أشارت الى أن الروم ولوا مسرعين فى البحر (٦٦) دون أن تشير الى أية مقاومة من جانب المصريين . بينما يشير الكندى - وأخذ عنه المقرئى نفس رأى - الى أن عنبسة بن اسحاق نفر اليهم فى جيشه ونفر معه كثير من الناس فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة « (٦٧) . أما أبو المحاسن فيفسر اسراع الروم بمغادرة دمياط بقوله أن ابن الأكشف « هزمهم وأخرجهم عن دمياط فنزحوا عنها منهزمين » (٦٨) أى أن رحيل الروم عاد بالدرجة الأولى الى استماتة أهالى دمياط فقط فى الدفاع عنها .

بينما يعطينا ابن اياس رأيا آخر يؤكد فيه أن المصريين جميعا وقفوا

(٦٤) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٦٥) اليعقوبى : تاريخه ، ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٦٦) اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٨ .

(٦٧) الكندى : كتاب الولاء ، وكتاب القضاء ، ص ٢٠١ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . ويعقب الكندى على رايه هذا بايراد شعر ليحيى بن الفضل كتبه للمتوكل يعجب فيه من موقف عنبسة ويتحسر لان الدين كاد أن يذهب على يد الولاء المتراخين فى أداء واجبه نحو البلاد ويعجب من موقف عنبسة . ومن ذلك الشعر تلك الابيات :

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة	وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب	بتنيس رأى العين منه واقرب
مقيمون بالاشتوم يبعون مثل ما	أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا ولا درى	من العجز ما يأتى وما يتجنب
فلا تنسنا أنا بدار مضىعة	بمصر ، وان الدين قد كاد يذهب

(٦٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

جيفا واحدا أمام تلك الحملة حتى أجلوها عن البلاد . فقد ذكر أنه عندما وصلت أخبار تلك الحملة الى مصر فى يوم عيد الأضحى « نودى بالذفير فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط وتحاربوا مع بنى الأصفر فانتصر عليهم عنيسة » وأسر منهم جماعة وهرب الباكون جميعا (٦٩) . وفى تلك إشارة الى حدوث صدام بين الروم والمصريين آنذاك .

ومهما يكن الأمر فإن الروم بما أحدثوه فى دمياط كانوا هم المنتصرين لكنهم لم يكن فى مخططهم البقاء أكثر من ذلك فى الثغر لأن هدفهم كما مر بنا كان الاستيلاء على كل ما يمكن أن يرسل الى كريت لتقوى به ضدهم . وعليه فقد توجهوا بعد ذلك الى أشتوم تنيس (٧٠) .

وقبل أن نستعرض فى الحسديث عن مصير تلك الحملة بعد مغادرتها دمياط ، نود أن نشير الى أنه رغم كل ما أحرزه الروم من ورائها ، ورغم تحقيقهم للغرض الأساسى من توجيهها الا أن غالبية (المصنادر البيزنطية صممت تماما عن الإشارة اليها . وكل ما عثرنا عليه من اشارات عن تلك الحملة فى المصادر والمراجع الأجنبية قليل جدا . فمثلا (استروجورسكى) اكتفى بالإشارة الى نتيجة الحملة بإيجاز بقوله « أن دمياط دمرت وحرقت تماما » ثم عقب على الحملة ككل بقوله أنه « لأول مرة يتجاسر البيزنطيون بالمخاطرة بعيدا فى صراع بحرى » (٧١) . أما (بزييه) فقد ذكر « أن الحملة البيزنطية البحرية على دمياط أسفرت عن نهب وحرق المدينة » (٧٢)

كذلك أشار أحد المراجع الأجنية بإيجاز الى نتائج تلك الحملة بقوله « ان الأسطول استولى على دمياط وأحرقها وقتل عددا من الأهالى وأخذ الباقين أسرى ثم استولى على مخازن السلاح والمؤن » (٧٣) . كما أشار مرجع مشابه الى « أن البيزنطيين قد استولوا على دمياط فى ٢٢ مايو ٨٥٣ م »

٦٩) ابن آياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٤ .

٧٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص

٢٩٢ ويسمىها أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ (أشمون تنيس)
71. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 222.

72. L. Brehier : Vie et Mort, p. 128.

73. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 713 من M. Canard.

وأن ذلك قد ورد بدون شك فى مصدرين عربيين مهمين وأنهما « عزرا بأوراق بردى تم كشفها حديثا وترجع أيضا الى أصل عربى » (٧٤) .

والواقع أننا لا ندرى أى مصدرين عربيين يقصد ذلك المرجع الحديث من بين التحدث السابق للمصادر العربية . كذلك لم يرد شيئا عن أوراق البردى التى ذكرها . هذا بالإضافة الى أنه ذكر أن حملة مايو ٨٥٣ م انتهت بالاستيلاء على دمياط ، لكن الحقيقة أن الروم لم يستقروا فيها بعد تدميرهم وتخريبهم لها مما لا يعطيها صفة الفتح المستقر الثابت .

لكن الغارة على دمياط حققت هدفها فى الانتقام لهزيمة ثيوكتستوس التى لحقت به من مسلمى كريت ٨٤٣ م (٧٥) / ٢٢٨ هـ . كما فوتت على مسلمى كريت فرصة الاستفادة من السلاح والمعدات التى قد يحصلوا عليها من مصر. ورغم ذلك كله - وكما هو واضح لنا - نلاحظ أن غالبية المصادر التى أمدتنا بالمعلومات عن تلك الحملة كانت مصادر عربية لا بيزنطية . وليس هذا بالشيء المستغرب فقد تعرض تاريخ الأسرة العمورية لكثير من التشويه ، ولاخفاء كثير من الانتصارات التى حققها أباطرة تلك الأسرة (٧٦) .

والواقع أن روح الحقد والجسد نجحت عبر القرون فى حرمان عهد ثيوذورا وثيوكتستوس وسرجيوس « من مجرد اسمه الذى يجعله مشهورا » ذلك العهد الذى وصف فى غالبته بأنه « عهد حكم القديسين » (٧٧) :

والواقع أن أحد جوانب القصور الخطيرة فى المؤرخين البيزنطيين الحديثين ، هو المدى الواسع الذى سمحوا فيه لأنفسهم أن يخدعوا بواسطة مصادر غيرت تغييرا فعليا بواسطة مؤرخين أرخوا لمصلحة الأسرة المقدونية، وكان على رأسهم الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس نفسه (٧٨) .

74. Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p. 106. عن (The Late H. Grégoris)

(٧٥) د. آسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، ص ٩١ .

(٧٦) نفس المرجع ، ص ٨٩ .

77. Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 107.

78. Cam. Med. Hist. : Ibid., V. IV. Part 1, p. 105.

نعود مرة أخرى لنتتبع ما حدث لحملة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م بعد مغادرتها لدمياط . فنجد أنها اتجهت شرقا لمهاجمة تنيس ، وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط . ولكن التيار أفسد خطة الروم الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم الى الرمال . ومن ثم اتجهوا الى أشتوم التى لا تبعد كثيرا عن تنيس (٧٩) « بينها وبين تنيس أربعة فراسخ وأقل » (٨٠) ، وكانت مركزا حصينا له سور وأبواب حديدية كان المعتصم قد أقامه فاقترح الروم ذلك الحصن وخربوا معظمه (٨١) . وأحرقوا ماكان به من الآلات الحربية (٨٢) من « المجانيق والعرادات » (٨٣) وأخذوا بعض الأبواب الحديدية وأبحروا عائدين الى بلادهم قبل أن تصل الامدادات الاسلامية من داخل البلاد (٨٤) . « فلم يعرض لهم أحد » (٨٥) .

كان رد فعل تلك الغارة على شواطئ مصر أن أمر الخليفة المتوكل ببناء حصن دمياط فى رمضان ٢٣٩ هـ (٨٦) / الموافق فبراير ٨٥٤ م (٨٧) كما أمر بتشديد حصنين آخرين أحدهما فى الفرما والآخر فى مدينة تنيس ، وقد أشرف على انشائهم جميعا أمير مصر عنبسة بن اسحاق وأنفق لهذا الغرض أموالا عظيمة (٨٨) .

(٧٩) د. العدوى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٩٣ .
(٨٠) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ . وتقع أشتوم عند مدخل بحيرة تنيس .
(Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1, 713). أما عن فرسخ الطريق فهو ثلاثة أميال هاشمية وقيل اثنا عشر ألف ذراع وهى تقريبا ثمانية كيلو مترات والكلمة فارسية (المنجد فى اللغة والاداب والعلوم - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ص ٦٠٧) .
(٨١) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ، د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٨٢) د. العدوى : نفس المرجع السابق والصفحة ، د. أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٨٣) الطبرى : تاريخه ، ج ٩ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .
(٨٤) د. العدوى : المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(٨٥) الطبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ (إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٧ هـ ، ص ٢٩٢ .
(٨٦) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
(٨٧) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٩١ .
(٨٨) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

فما كان من الروم الا أن أعادوا أسطولهم من جديد الى دمياط لتعويق بناء السفن وأعمال الصيانة والاصلاح التى أمر بها الخليفة ومكثوا فى دمياط حوالى شهرا ينهبون كل ما يقع تحت أبصارهم أو تصل اليه أيديهم (٨٩) .

هجمات الروم من ٢٣٨ هـ حتى الحملة الصليبية الأولى

عاود الروم مهاجمة دمياط بحملة ثالثة سنة ٨٥٩ م (٩٠) / ٢٤٥ هـ وكان والى مصر آنذاك يزيد بن عبد الله بن دينار (٩١) . فخرج يزيد « الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة خمس وأربعين » (٩٢) وأقام بها مدة « لم يلق حربا » (٩٣) فرجع الى الفسطاط فى ربيع الأول من نفس السنة ، ولكن بمجرد وصوله الى بنها بلغه أن الروم « نزلوا القرما » فرجع فى جيشه « فلم يلقهم » (٩٤) . وهكذا لم يحدث أى اشتباك بين تلك الحملة وبين أولى الأمر فى مصر .

أما فى عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) (٩٥) فقد كانت مصر على أيام أحمد بن طولون ومن جاء بعده من الطولونيين - للمرة الأولى منذ عهد البطالة - قاعدة لقوة عسكرية مستقلة وقوية

89. Cam. Med. Hist. V. IV. Part 1. p. 713.

90. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 227, Cam. Med. Hist., V. IV, Part. 1, p. 713 عن M. (Canard), Cam. Med. Hist. V. IV, Part. 1, p. 110 عن (The Late H. Grégoire)

ويذكر المرجع الاخير أن ذلك كان فى يونية ، يولية من السنة .

(٩١) قدم يزيد الى مصر « يوم الاثنين لعشر بقين من رجب » ٢٤٢ هـ (الكندى :

كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ٢٠٢) .

(٩٢) الكندى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٩٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٩٤) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ٢٠٣ .

أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ . فيذكر أنه عاد الى مصر قبله نزول الروم الى دمياط مرة ثانية فخرج اليهم فلم يلقهم ، فاقام بالثغر مدة ثم عاد الى مصر .

(٩٥) زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص

١٤٣ ، د. سيده كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ١٧ .

سياسية مرموقة مع استقلال أيضا في سياستها ودور متصاعد في شئون الشرق الأوسط كله (٩٦) .

فمنذ اللحظة الأولى لتولى أحمد بن طولون شئون مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، اتجه الى دعم قوته البحرية ليدفع عن نفسه وولايته محاولات الخلافة العباسية استرداد نفوذها المطلق عليها . ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون أسطول مصر (٩٧) . الذى زادت قوته زيادة ملحوظة وأصبح خطرا يهدد الروم ، وخصوصا بعد أن استطاع أحمد بن طولون بعد تحسن العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية من أن ينقل بعض قطع الأسطول الى (طرطوس) في شمال بلاد الشام وأن يجعلها قاعدة حربية تخرج منها السفن التى تهاجم معاقل الروم في آسيا الصغرى (٩٨) .

وإذا كانت بعض المراجع (٩٩) قد جعلت ذلك السبب هو الدافع القوى الذى جعل امبراطور الروم باسل الأول Basil I (٨٦٧ - ٨٨٦ م) (١٠٠) ٢٥٢ - ٢٧٣ هـ) يسارع بإرسال وفد الى أحمد بن طولون «يخطب وده» ويحمل له هدية قيمة تشمل عدة أسرى من ذوى المكانة الهامة ، وعسدة مصاحف ، فقد أرسل « عبد الله بن رشيد بن كاوس وعدة أسرى ، وأنفذ معهم عدة مصاحف منه هدية اليه » (١٠١) .

فالحقيقة أن هناك أسبابا كثيرة تضافرت لتجعل امبراطور الروم باسل الأول لا يسارع بالقيام بهجوم بحرى ضد مصر - مقر ابن طولون الأساسى

96. Cam. Hist. of Islam, V. 1, p. 184.

(٩٧) د: سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٩١ . ويضيف نفس المرجع أن ابن طولون جدد بناء دور الصناعة التى تصنع بها السفن ودب النشاط فى القواعد البحرية فى دمياط والاسكندرية .
(٩٨) د: سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٩٩) المرجع السابق نفس الصفحة .

100. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 578.

(١٠١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٢٨ . كان ارسال حاكم منطقة الثغر العربية الذى كان قد وقع اسيرا فى ايدي الروم دليلا على رغبة الامبراطور فى كسب ودأحمد بن طولون . (د: سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٢) .

آنذاك - ليجهض تلك القوة البحرية الناشئة قبل أن يستفحل خطرهما . ذلك لأنه كان مشغولا بالحرب في جبهات مختلفة شرقية وغربية وباقرار نفوذ الروم في أكثر من جبهة .

ففي مستهل حكمه عاد نفوذ الروم من جديد الى الساحل الادرياتي الشرقي وتم انشاء الـ *Thema of Dalmatia* الدالماتية في ذلك الوقت أيضا . كذلك أجبرت القبائل السلافية على تقديم التأييد الحربي لدولة الروم . وازداد نفوذ الروم قوة ورسوخا في البلقان . كما شهدت تلك الفترة تحول الكثير من قبائل العرب والسلاف الى المسيحية بواسطة بيزنطة، وأجرز الروم نصرا مؤقتا على كرواتيا . وبصفة عامة ازداد تأثير الروم ظهورا في كل من بلغاريا ومقدونيا وصربيا (١٠٢) .

واذا كان العرب قد استولوا على مالطة في سنة ٨٧٠ م / ٢٥٧ هـ مما دعم مركزهم البحري أكثر في البحر المتوسط فان لوييس الثاني امبراطور المانيا (١٠٣) - استطاع أيضا أن يستولى على بارى Bary سنة ٨٧١ م / ٢٥٨ هـ . لكن رغم ذلك وجه الروم كل اهتمامهم لعدة سنوات تالية بأحياء الشرق حيث انشغلوا في تتبع البيالقة (١٠٤) Paulicians في آسيا الصغرى ، وتمكنوا من قتل زعيمهم حوالي ٨٧٢ م / ٢٥٩ هـ ، وبعد ذلك اندفع الامبراطور باسل الى اقليم الفرات في ٨٧٣ م فاستولى على زبطره وسميساط . واذا كان باسل قد منى بهزيمة قاسية عند ملطية وعند أطراف طوروس فانه اكتفى بما حققه من نجاح جزئي ، وكان ذلك فاتحة لعدة حملات حربية منظمة على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية .

كذلك أعاد الروم سيطرتهم على بارى بايطاليا ٨٧٦ م / ٢٦٣ هـ كما ردوا هجوما عربيا على الأقاليم الساحلية الدالماتية ، وعلى اليونان والبلبونيز بل انهم خططوا للاستيلاء على جزيرة قبرص لمدة سبع سنوات . ثم لحق الروم ضربة قوية عندما استولى العرب على سيراكوز Syracuse

102. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 236.

103. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 600.

(١٠٤) انظر كتاب المؤلف : الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية

في العصور الوسطى ، ص ١٧١ - ١٧٨ .

بصقلية ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م . ولكن فى السنوات الأخيرة من حكم باسل الأول - وخصوصا بعد أن أسندت القيادة العسكرية الى القائد نقفور فوقاس «عاد جنوب إيطاليا من جديد تحت الحكم البيزنطى » (١٠٥) .

وما أن وصلت الدولة الطولونية الى شيخوختها وبدأت مظاهر الاضمحلال الاقتصادى تظهر عليها حتى بدأ الروم يوجهون أبصارهم اليها من جديد « فبدأوا يستأنفون هجماتهم البحرية على شواطئها » (١٠٦) .

بموت هرون بن خمارويه فى ١٨ صفر ٢٩٢ هـ (١٠٧) / ٩٠٥ م انقرضت الدولة الطولونية وشرذ رجالها أو ذبحوا . فلما عادت مصر الى المكتفى ، ولى عليها عيسى النوشرى أحد قواده . « كما ولى على مديريات مصر جماعة من قواد جيشه الآخرين ، وكان نصيب دمياط وتنبس معا مهاجر بن طليق » (١٠٨) .

وفى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م انتهز الروم اضطراب أوضاع مصر وهاجموا دمياط بأسطول مكون من « مائتى مركب » وأقاموا حوالى شهرا يثيرون الفساد والاضطراب على الساحل « ويقتلون ويأسرون » فالتصم المسلمون معهم فى عدة معارك (١٠٩) .

وعاد الروم لمهاجمة دمياط مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م فدخلوا

105. G. Ostrogorsky : Op. cit., pp. 237-238.

هنا يضيف أستروجورسكى : « أن روما نفسها التى كانت مهددة بواسطة الهجمات العربية المستمرة على السواحل الايطالية ، اضطرت لطلب النجدة من الامبراطور البيزنطى . وهذه نقطة جديرة بأن يلفت اليها النظر عن الموقف التسامح الذى اتخذته البابوية فى الشئون الدينية آنذاك تجاه البيزنطيين » .

106. Cam. Hist. of Islam, V. 1, p. 181.

(١٠٧) الكندى : كتاب الولاء وكتاب القضاء ، ص ٢٤٦ . فقد ذكر أن هرون قتل ليلة الأحد لحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة اثنين وتسعين ومائتين « وهنا أخطأ الشيخ عبد الله الشرقاوى فه كتبه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاء والسلطين ، ج ١ ، ص ١٢٧ حين ذكر أن هرون توفى فى سنة ٢٩١ هـ .

(١٠٨) نقولا يوسف : تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، ص ١٠٩ .

(١٠٩) المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

المدينة » وأخذوا من فيها وما فيها وضربوا الناقوس فى جامعها « (١١٠) .

وفى ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م أسس مسمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية (١١١) . فعنى بانشاء المراكب الحربية ونقل جزءا من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة الى الفسطاط فى دار عرف باسم «صناعة السفن » وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة وفى دار صناعة الجزيرة تارة أخرى (١١٢) .

وعندما انشغل الروم بقيادة حنا كوركواس بالحرب مع سيف الدولة الحمدانى - وذلك فى الأربعينات من القرن العاشر الميلادى ، والثلاثينات من القرن الرابع الهجرى « ولكى يحموا أنفسهم من ذلك العدو الجديد اضطروا للدخول فى علاقات ودية مع خلافة بغداد ومع الاخشيديين فى مصر » (١١٣) لذلك لم نقرأ عن حملات للروم وجهت الى شواطئ مصر فى تلك الفترة .

ولكن كدأب الروم دائما أنه كلما لمحووا بادرة صغيرة من بوادر الضعف فى شئون مصر سارعوا بإرسال حملة بحرية اليها . فقد انتهز الروم الفتنة التى سادت مصر بعد وفاة كافور الاخشيدى (١١٤) . وهاجموا دمياط فى العاشر من رجب ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م « طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، فى بضع وعشرين مركبا » فقتلوا وأسروا حوالى مائة وخمسين من المسلمين (١١٥) .

(١١٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ .

(١١١) د. سيده كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(١١٢) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٠٠٠ ، ص ٩٤ .

113. G. Ostrogorsky : Op. cit., p. 276.

(١١٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ ، زامبور : معجم الانساب ، ص ١٤٤ . أما الشيخ عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين ، ص ١ ، ج ١ ، ص ١٢٩ فقد أخطأ فى تحديد سنة وفاة كافور حين ذكر أنها كانت سنة ٣٤٩ هـ والصحيح أن هذا التاريخ هو تاريخ وفاة أونوجور بن الاخشيد الذى قيل أن كافور دس له السم فمات (د. سيده كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٣٥) .

(١١٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠١ . هنا تذكر الدكتور سعاد ماهر أن ذلك كان فى العاشر من يونيو ٩٥٨ م ولكن الراجح أنها ٩٦٨ م . بمقابلتها بالتاريخ الهجرى الذى ذكره المقرئى وبلاستعانة بزامبور : معجم الانساب ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

وبقيام الدولة الفاطمية كان اهتمام الخليفة المعز لدين الله ، أبو تميم معد (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م) بالبحر شديدا ، حتى أن أهالي جزيرة كريت استنجدوا به ضد تهديدات الروم وأوضحوا له أن مجيء الأسطول الفاطمي اليهم يتيح له فرصة الحصول على قاعدة حربية قريبة من القسطنطينية عاصمة الروم ويهيئ للفاطميين مركزا لسيادة شرق البحر المتوسط . وبالفعل بادر المعز بالاتصال بالآخشيديين وطلب منهم مساعدته في تلك المهمة (١١٧) . ولكن تدهور أحوال الآخشيديين بعد وفاة كافور كما رأينا شجعت الروم على مهاجمة دمياط .

هذا وقد وصلت البحرية المصرية في عهد الخليفة العزيز ، أبو منصور نزار (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) درجة كبيرة من التقدم مكنته من اعداد حملة بحرية لغزو بلاد الروم غير أن تلك الحملة لم تحقق الغرض الذي كانت تجهز من أجله « لاحتراق مراكبها » (١١٩) عندئذ أرسل

١ (١١٦) زامبور : معجم الانساب ، ص ١٤٤ .

(١١٧) د . سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٤ - ٩٦ .

(١١٨) زامبور : معجم الانساب ، ص ١٤٤ .

(١١٩) د . حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ . اذا كان الدكتور حسن ابراهيم يذكر هنا أن الحملة كانت قد أرسلت بالفعل الا أن الدكتورة سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٩٨ تذكر أنها كانت في مرحلة الاعداد ولو أنها اخطأت في ذكر السنة حيث قالت أنها ٩٩٦ م وهي تقابل بذلك ٣٨٦ هـ ، ولكن الراجح أنها ٣٧٧ هـ لان الروم بعثوا بعدها في طلب الصلح من العزيز . وتفصل لنا الدكتورة سعاد ماهر الحديث عن احتراق تلك الحملة أثناء اعدادها بقولها : « ان الروم هالهم قوة الاسطول المصرى في العصر الفاطمي فلجأوا الى بعض أساليب الغدر والخيانة لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية ، فقد حدث سنة ٩٩٦ م أن أمر الخليفة العزيز بالله بأعداد أسطول عظيم في دار الصناعة بالمقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام ، ولكن ما كادت دار الصناعة تفرغ من بناء السفن حتى نشبت فيها النار وأحرقت معظم قطع الاسطول واتهم الخليفة الفاطمي تجار الروم وعملاءهم من مدينة أملفى بتدبير هذا الحادث واعترف الروم بجريمتهم وغادروا البلاد مطرودون » (د . سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٩٨ عن Bréhier : Vie et Mort de Byzance .

امبراطور الروم رسله الى الخليفة العزيز لطلب الصلح وحملهم بالمهاديا
فوافق الخليفة على الصلح (١٢٠) .

والحقيقة أن الامبراطور باسل الثاني Basil II ٩٧٦ - ١٠٢٥ م (١٢١)
/ ٣٦٦ - ٤١٦ هـ مرت به آنذاك بعض الأحداث اضطرتة الى طلب تلك الهدنة
من الفاطميين (١٢٢) .

لكن الهدنة لم تستمر طويلا «بسبب الصراع الفاطمي الحمداني الذي

120. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 724,

د. الباز العريني : الدولة البيزنطية ، طبعة ١٩٦٥ ص ٦١١
د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ٩٨ . د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ
الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ ، د. على ابراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ،
ص ٢٨٢ . ويذكر المرجعان الاخيران أن أهم شروط ذلك الصلح كانت : اطلاق سراح
أسرى المسلمين ، الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة ، وأن
تكون مدة الهدنة بين الفريقين سبع سنين . أما أسد رستم ، ج ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥
فيذكر أن مسجد القسطنطينية كان قد أقيم منذ القرن الثامن (عن Slumberger, Dolger)
121. G. Ostrogorsky ; Op. Cit., p. 578.

(١٢٢) بعد هزيمة الامبراطور باسل في بلاد البلغار بدأت الارستقراطية البيزنطية
تتشجع على الثورة فتجهز سكليروس لغزو آسيا وكان يدعى الملك لنفسه في حين أن
برداس فوكاس لم يكن أقل طموحا من سكليروس ولم ينس ما نزل به في السنوات
القليلة الماضية من الانزال والمهانة بأن عزله عن دمشق الشرقية التي يتولى صاحبها
القيادة العامة للجيش البيزنطية في الشرق . يضاف الى ذلك أن بارداس اتخذ
عمه الامبراطور نففور فوقاس مثله الاعلى ثم أعلن نفسه امبراطورا في أغسطس سنة
٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ . وهكذا أصبح هناك امبراطوران في اسيا برداس سكليروس
وبرداس فوقاس (يسميهم أسد رستم البرداسيين) . وامبراطوران بالقسطنطينية (باسل
وقنسطنطين) وخشى الاولان اذا تطاحنا أفاد من ذلك الاخران متحالفا واتفقا ضد
عدوهم المشترك . وعلى ذلك بدأ باسل يستعين بالجند المرتزقة من الروس ليوازن
بذلك الانشقاق الداخلي في امبراطوريته بينه وبين كبار القواد . وأدت تلك الظروف
مجتمعة الى خوف باسل من الدخول في حرب مكشوفة مع الفاطميين فسعى لعقد هدنة
معهم سنة ٣٧٧ هـ (د. الباز العريني : الدولة البيزنطية طبعة ١٩٦٥ ، ص ٦٠٧ ،
٦١٠ ، ٦١٢ ، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، طبعة ١٩٦٣ ، ص ٦٨ ،
د. أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٥٤) .

تحول الى صراع فاطمى بيزنطى بسبب استنجد ولاية حلب الحمدانيين بالبيزنطيين « (١٢٣) » .

وبوفاة الخليفة العزيز ، خلفه الخليفة الحاكم ، أبو على المنصور (٣٦٨ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١ م الذى « أحرزت الجيوش المصرية فى بداية عهده العديد من الانتصارات على الدولة البيزنطية فى بلاد الشام (١٢٤) » . وعندما وصلت تلك الأخبار الى الامبراطور باسل حزن حزنا شديدا لأنه كان مشغولا حينئذ بحرب البلغار ، فحرص على أن يستتب الأمن والسلام فى بلاد الشام حتى يتفرغ لحربه مع البلغار ، اذ كان يخشى من تدخل الفاطميين فى بلاد الروم ، لذلك طلب عقد هدنة سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لكن الحاكم بأمر الله بعث له باجابة غير مرضية مما جعل الامبراطور

123. Grousset : L'Empire du Levant, p. 123.

ولقد سيطر الحمدانيون على حلب فى الفترة ما بين سيف الدولة أبو الحسن على ٣٣٣ هـ الى اخضاع الفاطميين لمرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ ٤٠٦ هـ (زامبور: معجم الانساب ، ص ٢٠١) استنجد سعد الدولة الحمدانى (٣٥٦ م - ٣٨١ هـ) بالروم ضد الفاطميين فقدم اليه جيش رومى بقيادة ميخائيل بورتزيه ، لكن لحقت بهم الهزيمة وأسر قائد الروم (Grousset : Op. Cit., p. 123) وبعد وفاة سعد الدولة حاول الفاطميون الاستفادة من صغر سن ابنه سعيد الدولة (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) للاستيلاء على حلب فاستنجد سعيد الدولة بالامبراطور باسل الثانى وكتب اليه « لتأت مسرعا يا باسل ، ان الصوت الوحيد أو الاشاعة بمجيئك سوف تجبر المصريين على فك الحصار » فتقدم باسل بنفسه ، وكان قد فرغ من حرب البلغار ، ووصل فى ربيع الثانى ٣٨٥ هـ فى سرعة مذهلة فقدم اليه أميرها فروض الولاء والطاعة ، وتقدم باسسل فاستولى على شيزر وحمص ورفنيه من الحاميات الفاطمية .

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٨ ، (Grousset : Ibid., p. 124) عندئذ أفاق الأمير الحمدانى من الصدمة وأدرك الخليفة الفاطمى خطاه فى استمرار النزاع بينهما فقرر عقد الصلح ٣٨٥ هـ ثم رأى الخليفة العزيز الخروج بنفسه لقتال الروم حتى اذا ما وصل الى بلبيس توفى فى رمضان ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (ابن القلائس . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٤ ، ابن ميسر ! أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ ،

Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 724).

124. Lane-Poole, St. : A Hist. of Egypt... V. 1, p. 159, Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 725, Grousset : L'Empire du Levant, p. 124.

يصمم على الاتجاه بنفسه الى بلاد الشام مرة أخرى تاركاً القيادة في بلغاريا لنقفور أورانوس (١٢٥) .

وبالفعل قدم الامبراطور باسل بنفسه الى بلاد الشام ٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ وأحرز عدة انتصارات على الفاطميين فيها (١٢٦) . وعندئذ علم بوفاة ملك الكرج الذي كان قد أوصى بملكه قبل وفاته لباسل ، لذلك أسرع باسل بالعودة وضم بلاد الكرج الى امبراطوريته (١٢٧) . وبوصول باسلن للقسطنطينية وجد هناك سفارة بعثها الحاكم بأمر الله برئاسة أريستوس Arestes بطريك بيت المقدس يطلب عقد هدنة لمدة عشر سنوات وذلك ١٠٠١ م / ٣٩٢ هـ (١٢٨) .

وهناك رأى آخر يذكر أن امبراطور الروم هو الذي أرسل رسله الى مصر لطلب الهدنة وأن الحاكم أعد عدته لاستقبال السفراء وبالغ في تزيين القصر وفي الحفاوة برسول الروم ، وتم الاتفاق على صلح لمدة عشر سنوات (١٢٩)

ومهما اختلفت الآراء فإن مانود أن يؤكد هنا هو أنه عقدت هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات . الا أن تلك السياسة الودية ما لبثت أن تبدلت الى علاقة عدائية عندما علم الامبراطور البيزنطي بنبأ السياسة العدائية التي اتبعها الحاكم ازاء النصارى (١٣٠) ، وظل الأمر كذلك حتى عهد

(١٢٥) د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٤ (طبعة ١٩٦٥) .

(١٢٦) د. العرينى : المرجع السابق ، ص ٦٧٦ ، أسد رستم : الروم ، ج ٢ ،

ص ٥٦ - ٥٧ ،

Grousset : L'Empire... p. 125, Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, pp. 724-725.

(١٢٧) أسد رستم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(١٢٨) د. الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٧ (طبعة ١٩٦٥) ،

Cam. Med. Hist. V. IV, Part. 1, p. 725.

(١٢٩) د. أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، د. على إبراهيم حسن : مصر في

العصور الوسطى ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية،

ص ٢٥٨

130. William of Tyre : A History of Deeds done beyond the See, V. 1, pp. 66-67

- ٧٢ -

الخليفة الظاهر أبو الحسن على (٤١١ - ٤٢٧ هـ (١٣١) / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م) فعلت عمته ست الملك التي كانت وصية عليه على اقامة علاقات ودية بين مصر ودولة الروم (١٣٢) .

تلى ذلك فترة من الهدوء النسبي بين الجانبين ففى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م عقدت معاهدة بين امبراطور الروم قنسطنطين الثامن Constantine VIII ١٠٢٥ - ١٠٢٨ / ٤١٦ - ٤١٩ هـ وبين الخليفة الظاهر تمت بمقتضاها الموافقة على الدعوة للظاهر فى الخطبة فى جامع القسطنطينية (١٣٢) . كذلك عقد الظاهر معاهدة صداقة مع الامبراطور رومانوس الثالث Rumanus III Argerus (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م) (١٣٤) .

وفى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ (١٣٥) / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م كانت العلاقة بين الدولة الفاطمية ودولة الروم

=

وقد فصل وليم الصورى تلك السياسة الشاذة للحاكم بأمر الله وعلى رأسها «نیش كنيسة السيد المسيح» أى كنيسة القيامة ببيت المقدس : ولو أننا نرجح أن ذلك فيه مبالغة شديدة من جانب وليم كمعهده دائماً مع المسلمين عامة فكيف لا يكون هذا رأيه فى الحاكم بأمر الله .

(١٣١) زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ٠٠٠ ، ص ١٤٤ .

(١٣٢) د . على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ . أرسلت نفقور بطريك بيت المقدس سفيرا الى الامبراطور ليبلغه أمر الاجراءات التي اتخذت فى القاهرة لصالح النصرى وتجديد بناء الكنائس .

وهنا أخطأ د . أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٦٥ فى نقطتين حين ذكر أن التي كانت تقوم بالوصاية فى ذلك الوقت كانت أرملة الظاهر والحقيقة أنها عمته ست الملك كما ذكر كذلك أن الذى كان قاصرا هو المنتصر ، والحقيقة أنه الظاهر .

133. Lane-Poole. St. : A Hist. of Egypt... V. 1, p. 136.

تقرر فيها الخطبة للظاهر ببلاد الروم وافتتاح الجامع فى القسطنطينية وتزويده بالحصص والقناديل ومده بهؤنن ، وعند ذلك اذن الظاهر بفتح كنيسة القيامة التى بالقدس (المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، د . على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٨٤ ، د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٨) .

134. William of Tyre : Op. Cit., V. I, p. 69.

(١٣٥) زامبور : معجم الانساب ٠٠٠٠ ، ص ١٤٥ .

على شيء من الصفاء أيضا . وفى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والامبراطور ميخائيل الرابع Michael IV (١٠٣٤ - ١٠٤١ م / ١٣٦ - ٤٢٦ هـ - ٤٣٣ هـ) .

ثم تجددت العلاقات الودية بين الخليفة المستنصر والامبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م / ٤٣٤ - ٤٤٧ هـ) . وعليه وفى ٨ ذى الحجة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م وردت هدية من الامبراطور قنسطنطين التاسع للخليفة المستنصر بالله الفاطمى « كان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والابريسسم والعمامم المعلمة ما لا يقدر على مثله فعوض عن هديته بمثلها من حق مصر ومن الجوهر والمسك والعود والطران ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعته (١٣٧) .

وفى ١٠٤٧ - ١٠٤٨ م / ٤٣٩ - ٤٤٠ هـ وقعت معاهدة بواسطة قنسطنطين مونوماخوس ، الذى تبادل فى مناسبات عديدة السفارات مع الخليفة الفاطمى المستنصر . وفى ١٠٥١ - ١٠٥٢ م / ٤٤٣ - ٤٤٤ هـ تمكن الامبراطور قنسطنطين من القبض على الرسول الذى كان متوجها الى حاكم شمال افريقيا الشائر وأخبر به الخليفة المستنصر بسرعة (١٣٨) .

(١٣٦) ابن الاثير . الكامل ، ج ٩ ، دار صادر وبيروت ١٩٦٦) ، ص ٤٦٠ . وقد تم الاتفاق بينهما على أن يطلق الروم خمسة آلاف أسير وأن يعمرؤا كنيسة القيامة التى كانت قد خربت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله . فأطلق امبراطور الروم الاسرى وأرسل من عمر الكنيسة وأنفق عليها أموالا كثيرة ، كذلك أصبح للامبراطور حق اختيار بطريرك بيت المقدس « ولو أن ذلك لا يفهم منه أن هناك أية حماية فرضت من الجانب البيزنطى على الاماكن المقدسة » .
(Cam. Med. Hist., V. IV, Part 1, p. 726.

(١٣٧) القرينى : اتعاط الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، ج ٢ ، ص

وقد وقع اتفاق جديد بين الجـانـبيين فى ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م — أثناء الشدة العظمى (١٣٩) التى عانت منها مصر آنذاك — وقد نص الاتفاق على أن يمد الامبراطور مصر بالغلل والأقوات ليستطيع الخليفة بذلك أن يقاوم الغلاء والمجاعة التى حلت بمصر فى تلك السنة (١٤٠) . « فقد هلك الناس بالجوع وفنت ذخائر مصر بعد مقاساة شديدة من غلاء السعر . وكان القمح والشعير يجلب من بلاد الأندلس وبلاد النصرى . وكان التجار الذين يجلبونه يأخذون فيه الجوهر والياقوت وغير ذلك من ذخائر مصر » (١٤١)

وقد اختلفت الآراء عن مدى تنفيذ الاتفاق السابق الذكر فبينما يذكر العيني أن الامبراطور أرسل للمستنصر « أربعمئة أردب » من غلات بلاده (١٤٢) . أو بمعنى آخر أمد الفاطميين بالقمح (١٤٣) . يذكر رأى آخر أن الامبراطور قنسطنطين التاسع مات قبل أن ينفذ الاتفاق (١٤٤) .

لكن مهما كان الأمر فإن الامبراطورة ثيودورا Theodora التى خلفته

(١٣٩) هنا يذكر عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاد والسلطين ، ج ١ ، ص ١٣٩ أنه حدث فى عهد المستنصر (غلاء عظيم لم يعهد مثله الا ما كان فى زمن يوسف عليه السلام فمكث سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضا وبيع الرغيف الواحد بخمسين دينارا وخرجت امرأة بمد جوهر وطلبت عوضه مدبر فلم يوجد من يأخذه) .
140. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. I, p. 726.

د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ .
(١٤١) تحقيق الدكتور حسن نصار : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ ، ص ٧٩ . ويضيف نفس المرجع ص ٧٨ « أن المستنصر لقي شدايد وأهوالا وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر فأخرج فيها أمواله وذخائره الى أن بقى لا يملك غير سجاده التى يجلس عليها وهو مع ذلك صابر غير خاشع » .
(١٤٢) العيني : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جزء ١٥ مجلد ١ ص ٩٨ . مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ .
(١٤٣) أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، عن (Doİger, Regesten)
(١٤٤) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د. على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٤ .

اشتترطت مساعدة الفاطميين الحربية ضد السلاجقة فى مقابل امدادها لهم بالقمح ، فلما رفض المستنصر منعت عنه القمح (١٤٥) . فما كان من المستنصر الا أن أرسل حملة حربية الى أنطاكية فردت الامبراطورة على ذلك بإرسال حملة بحرية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م . فأرسل المستنصر الى القسطنطينية بالقاضى عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف بين الدولتين (١٤٦)

ولكن ثيودورا لم تهتم بوجود رسول المستنصر ، بينما سمحت لرسول السلطان طغرلبيك السلجوقى بالخطبة للخليفة القائم العباسى ، فغضب المستنصر واستولى على نفائس كنيسة القيامة (١٤٧) .

ولم تلبث دولة الروم أن دخلت فى مرحلة حرجة من تاريخها « بدأ فيها موكب الغروب ليسجل بداية النهاية لتلك الدولة وهى الفترة الممتدة من ١٠٥٧ - ١٢٠٤ م (١٤٨) » .

ويجمل لنا الأستاذ الدكتور حسنين ربيع معالم تلك الفترة بقوله أنه بوفاة الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦ م / ٤٤٨ هـ انتهت الأسرة المقدونية وبدأت فترة من الفوضى والاضطراب استمرت لمدة خمس وعشرين سنة انتهت بتولية الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وكانت أهم ملامح تلك الفترة من الفوضى والاضطراب التى شاهدها الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٦ -

145. Cam. Med. Hist. V. IV. Part. 1, p. 726,

Wustenfeld

د . أسد رستم : الروم ، ج ٢ ص ٧٨ عن

وقد نسيت ثيودورا أن مصر كانت يوماً ما مخزن قمح القسطنطينية .

(١٤٦) د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٩ ، د . على

ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٥ . يذكر عبد الله عنان : الحاكم

بأمر الله ، ص ٢٣٣ « أن أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ، الفقيه

المحدث المؤرخ ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتوفى سنة ٤٥٤ هـ

وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى

عهد المستنصر بالله وأوفده المستنصر الى ثيودورا امبراطورة القسطنطينية سنة

٤٤٧ هـ .

(١٤٧) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٧ ،

Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, p. 726.

(١٤٨) د . حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٥٦

١٠٨١ م ما حدث من زيادة النزاع بين الفئات العسكرية فى المناطق الثغرية من أرباب السيوف وأفراد السلطات البيروقراطية فى العاصمة القسطنطينية من أصحاب الأقاليم ، وما حدث من تغييرات اجتماعية واقتصادية هزت المجتمع البيزنطى ، وما تعرضت له بيزنطة من أخطار خارجية من النورمان والبشناق Patzinaks والسلاجقة وغيرهم» (١٤٩) .

ويكفى للتدليل على مدى الهزات التى أصيبت بها دولة الروم آنذاك أن نذكر هزيمة الروم فى موقعة مانزيكرت ١٠٧١ م / ٤٦٣ هـ على يد السلاجقة وأسر الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) على يد السلطان ألب أرسلان السلجوقى (١٥٠) . وما ترتب على تلك الموقعة من نتائج خطيرة بالنسبة لدولة الروم . ذلك أنها لا تقل عن معركة اليرموك . لأن مانزيكرت قررت مصير آسيا الصغرى ، واليرموك قررت مصير الشام ، فلقد كانت خسارة دولة الروم لولايات شرق آسيا الصغرى دليلاً وبرهاناً على قرب موت دولتهم أو بداية النهاية لحياتها « فعندما فقدت الدولة البيزنطية ولاياتها الغنية فى آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية رأساً حرم من الجسد الذى يسنده » (١٥١) .

وبوصول الكسيوس كومنين الى عرش الروم ١٠٨١ - ١١١٨ م كان عليه أن يواجه الأخطار الثلاثة السابقة الذكر : السلاجقة والبشناق والنورمان .

والواقع أن الخطر الأخير كان أشد وأقوى من أى وقت مضى بظهور أطماع روبرت جويسكارد النورماندى فى عرش القسطنطينية نفسها (١٥٢) .

(١٤٩) د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .
150. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 344,

ابن الاثير : الكامل ، ج ١ ، ص ٦٥ (دار صادر وبيروت ١٩٦٦ - ١٣٨٦ هـ) واللب أرسلان حكم من ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ، ص ٣٣٣)

(١٥١) د. حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٩٠ - ١٩١ . عن Vryonis

(١٥٢) كان روبرت جويسكارد زعيم النورمان قد انتهى فى ١٠٧١ م - وهى التى سبق أن ذكرنا أنه حدث فيها موقعة مانزيكرت - من الاستيلاء على مدينة بارى وهو

وبوفاة جويسكارد بالمطاعون فى بداية ١٠٨٥ م دخلت إيطاليا فى فترة من الاضطراب واستراحت دولة الروم من الخطر النورماندى لعدة سنوات (١٥٢)

وفى ١٠٩٠ - ١٠٩١ م هوجمت القسطنطينية برا وبحرا بواسطة البشناق فاستخدم الكسيوس كومنين الدبلوماسية البيزنطية فى الاستعانة ببعض القبائل البربرية خاصة الكومان الذين قدموا من سهول جنوب روسيا فى التخلص من الخطر البشناقى وانتهى الأمر بهزيمة البشناق فى معركة جبل ليفونيون Mt. Levonion الشهيرة فى ٢٩ ابريل ١٠٩١ م (١٥٤)

وباستيلاء السلاجقة على بيت المقدس ١٠٧٧ م كان على دولة الروم أن تبحث عن وسيلة تحمى بها الأراضى المقدسة باعتبار أن تلك الأراضى كانت يوما ما ضمن دائرة نفوذها . وربما كان ذلك هو الدافع للكسيوس كومنين لطلب جنسود مرتزقة من الكونت روبرت فلاندر Count Robert of Flanders الذى زاره أثناء حجه سنة ١٠٨٩ م أو بداية ١٠٩٠ م والذى أعطاه وعدا بارسال خمسة آلاف فارس ، وكان نفس المطلب هو الذى رعى اليه الكسيوس عندما طلب المساعدة من روما وعلى رأسها البابا أوربان الثانى Urban II « ولكن الأحداث تطورت بطريقة غير مرغوب فيها وغير متوقعة » وفى الوقت الذى بدأت فيه الحملة الصليبية الأولى تأخذ طريقها الى الشرق بسرعة كان الامبراطور الكسيوس يعد نفسه للحملة العسكرية الى آسيا الصغرى وبعد مرور خمسة عشر عاما قضاها امبراطور الروم فى صراعات مع جبهات معادية مختلفة وجد نفسه أمام خطر جديد لم يحسب حسابه (١٥٥) .

العمل الذى جعله سيد جنوب إيطاليا ومن هذا المركز فى أبوليا استطاع روبرت جويسكارد تحقيق انتصارات سريعة بغزوه ما تبقى من أقاليم صغيرة للدولة البيزنطية فى داخل إيطاليا وسهلت انتصاراته فى جنوب إيطاليا استرداد صقلية من المسلمين . وأصبح جويسكارد دوقا لأبوليا واعتبر نفسه خليفة شرعيا للاباطرة البيزنطيين ، وقد ذهبت آمال جويسكارد الى أبعد من أراضى جنوب إيطاليا فقد انتهز فرصة ضعف الدولة البيزنطية من الداخل ومشاكلها الخطرة فى الخارج وتطلع الى تحقيق حلمه فى الاستيلاء على التاج الامبراطورى البيزنطى . (د . حنين ربيع : المرجع السابق، 153. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 358. ص ١٩٤ . 154. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 360. 155. G. Ostrogorsky : Ibid., pp. 361-363.

ولم تلبث أن تطورت الأحداث بسرعة ووصل العديد من أمراء الغرب الى القسطنطينية فما كان من الامبراطور الكسيوس الا أن جعلهم يقسمون له يمين الولاء والطاعة وتم بين الجانبين اتفاق ١٠٩٧ م تعهد الأمراء الصليبيين بمقتضاه « أن يعيدوا للامبراطور كل ما استولوا عليه من مدن كانت تتبع فيما مضى الامبراطورية البيزنطية » ووعدهم الامبراطور في مقابل ذلك بكل ما يحتاجون اليه من مؤن ومعدات عسكرية وأن يتولى بنفسه قيادتهم مع كل قواته . ولقد وافق جميع أمراء الصليبيين على ذلك الاتفاق فيما عدا ريموند التولوزي (١٥٦) .

وقد نفذ الصليبيون بالفعل اتفاقهم مع امبراطور الروم فقور استيلائهم على نيقية في يونية ١٠٩٧ م سلموها للامبراطور ، لكن ما أن استولى الصليبيون على انطاكية في يونيه ١٠٩٨ م حتى انتهت علاقات الود والتألف بين الصليبيين والروم وبدأت تظهر المنافسات الدفينة بين أمراء الصليبيين أنفسهم (١٥٧) . وبتعبير آخر كان استيلاء الصليبيين على انطاكية ١٠٩٨ م « مفترقا للطرق » (١٥٨) سواء بالنسبة للعلاقات بين دولة الروم والصليبيين أو بين الصليبيين أنفسهم .

وهنا يتبادر للذهن سؤال عن حقيقة موقف دولة الروم من مصر وشواطئها آنذاك ؟ خصوصا بعد أن لمسنا مدى حرص دولة الروم باستمرار على عدم التفريط في مصر .

هنا يشير (رنسيما) الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين نصيح الصليبيين أثناء تواجدهم بالقسطنطينية بالوصول الى شيء من التفاهم مع الفاطميين في مصر (١٥٩) . وبالفعل أرسلت سفارة صليبية لهذا الغرض من نيقية (١٦٠) .

156. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 363.

كان أمراء الصليبيين الذين وافقوا على اتفاقية ١٠٩٧ م هم جودفري بوايون دوق اللورين وهيو أف فرماندوا شقيق ملك فرنسا وروبرت النورماندي شقيق ملك إنجلترا وروبرت أف فلاندرز وبوهيموند النورمانى ابن روبرت جويسكارد .

157. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 364.

(١٥٨) د حنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢١١ .

159. Runciman : Op. Op. Cit., V. 1, p. 229.

160. Runciman : Ibid., V. 1, p. 230.

وقبل أن نستعرض فى تتبع تلك السفارة ونتائجها نود أن نتوقف قليلاً
لنتعرف عن قرب على هدف الكسيوس كومنين الحقيقى من وراء نصيحته
تلك . وهنا لن نجد تفسيراً أصدق مما دونته ابنته الأميرة المؤرخة أنا كومينا
نفسها عندما قالت « أنه عندما كان يتصارع عدوين للروم بعضهما مع بعض
كان من الضروري أن يساعد الامبراطور - والدها - الأضعف ، وليس ذلك
يهدف أن تزداد قوته ، لكن لكى يتغلب على خصمه الآخر ، ثم بعد ذلك
يستطيع الامبراطور أن ينتزع البلد من المنتصر ويجعلها ضمن ممتلكاته ويتلو
ذلك أن يأخذ بالتدريج بلداً بعد آخر . وهكذا يستطيع الامبراطور أن يوسع
رقعة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت محدودة جداً وخصوصاً بعد أن
زادت قوة سيف الأتراك زيادة ملحوظة » (١٦١) .

والواقع أن ذلك كان الهدف البعيد الذى رمى اليه الكسيوس من وراء
نصيحته تلك للصليبيين ان صح تسليمنا بها . وعلى ذلك يتحالف الصليبيون
والفاطميون ويقضى الحليفان على الأتراك السلاجقة عندئذ تسنح الفرصة
للكسيوس فيسهل عليه استعادة ممتلكات الروم من أيدي السلاجقة ، ثم بعد
ذلك يأتى دور الفاطميين بعد أن تزداد قوته وسطوته . والراجح أن ذلك كان
السبب فى عدم وجود أى احتكاكات رومية مصرية فى ذلك الوقت .

بل ان المصادر والمراجع المختلفة تسهب فى الكلام عن مشروع التحالف
الفاطمى الصليبي (١٦٢) . فى ذلك الوقت والذى يعتبر - فى رأينا - رد
الفعل الطبيعى لتوصية الكسيوس والسفارة الصليبية الى مصر ، رغم إشارة
رنسيमान الى أن الصليبيين لم يأخذوا بنصيحة الامبراطور (١٦٣) .

161. Anna Comnena : The Alexiad... p. 158.

162. William of Tyre : Op. cit., V. 1, p. 224, J. Prawer : Op. Cit. T. 1,
pp. 219-220. Runciman: Op. Cit., V. 1, p. 229, Stevenson : The
Crusaders in the East, p. 26.

هنا يذكر الاستاد الدكتور سعيد عاشور نقلاً عن
Riant : Inventaire des Lettres des Croisades.
ان الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى مما جعلهم يرجعون بالسفارة
التى ارسلها اليهم الافضل فى أوائل ١٠٩٨ م أمام أنطاكية .
163. Runciman : Ibid., V. 1, p. 229.

وقد فصل لنا ولیم الصوری الحديث عن ملابسات ذلك التحالف بصورة توضیح مدی جهل الفاطمیین فی مصر بمغزی الحركة الصلیبیه آنذاك . حیث ذکر فی روايته « أن المصریین كانوا ينظرون نظرة شك الى أى تقدم یحرزه (الفرس والأترک) (١٦٤) ، ولقد سر (أمير مصر) (١٦٥) سروراً بالغاً لسماعه أخبار فقدان قلیج أرسلان السلجوقی لنیقیة ولحصار المسیحیین أنطاکیة . وعندما طال حصارها وخشى من اخفاق أهلنا أرسل مبعوثین من قبله لیرجوا القادة أن یستمرروا فی الحصار وأكد للمسیحیین أن السلطان (١٦٦) سیمدهم بالتأیید العسکری والمؤن ، وكان علیهم أيضاً أن یکسبوا ود القادة وأن یوقعوا معهم معاهدة صداقة » . ثم یؤكد ولیم الصوری أن المبعوثین المصریین « قوبلوا بحفاوة واحترام من هادة جیشنا » (١٦٧) .

وكانت أهم النقاط التى دارت حولها المفاوضات الفاطمیه الصلیبیه عندئذ هو أن تكون أنطاکیة والمنطقة الشمالیه من بلاد الشام للصلیبیین وتكون بیت المقدس والأراضی المقدسة فی جنوب بلاد الشام للفاطمیین (١٦٨) .

استمع الصلیبیون الى المقترحات الخاصة بالتحالف الصلیبى الفاطمى بسرور (١٦٩) واستقبلوا سفراء الفاطمیین بمودة (١٧٠) . وكيف لا یفرحوا وهذا غایة ما كانوا یتمنوه ، حیث یکفل لهم ذلك التحالف التخلص من نصف الجبهة الاسلامیه آنذاك .

(١٦٤) یقصد بالطبع الخلافة العباسیه والسلاجقة .

(١٦٥) یعنى هنا الوزير الفاطمى الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، الحاكم الفعلى لمصر آنذاك من ٤٨٧ - ٥١٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ٠٠٠ ص ١٤٩) ١٠٩٤ - ١١٢١ م والذى ظل یحكم مصر طوال عهد الخلیفة المستعلى والعشرین سنة الاولى من حکم الخلیفة الامر (د . عاشور : الحركة الصلیبیه ج ١ ص ١٩٧) . (١٦٦) یقصد الخلیفة الفاطمى .

167. William of Tyre : Op. Cit., V. 1, pp. 223-224.

168. J. Prawer : Op. cit., T. 1, p. 220, Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229,

د . سعید عاشور : الحركة الصلیبیه ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

169. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 220.

170. Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229.

وبعد عدة أسابيع عاد المبعوثين الفاطميين الى مصر محملين بالهدايا ومصحوبين بسفارة صليبية صغيرة (١٧١) ، للتفاوض مع أولى الأمر في مصر (١٧٢) .

ولكن الأفضل لم يلبث أن أرسل جيشا استولى على بيت المقدس ١٠٩٨م ويقال أن ذلك حدث أثناء وجود السفارة المصرية في معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (١٧٣) . بينما يشير رأى آخر الى أن ذلك تم أثناء وجود السفارة الصليبية التي جاءت بعد ذلك الى مصر لتأكيد التحالف الصليبي الفاطمي (١٧٤) .

وثمة رأى يذكر أن الوزير الفاطمي الأفضل نظر الى الصليبيين على أنهم « جنودا مرتزقة لامبراطور الروم » (١٧٥) ، وعليه فقد دخل معهم في مفاوضات لتحالف ضد السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين . وهذا يوضح لنا أنه حدث في ذلك الوقت تقاربا بين كل من أولى الأمر في مصر وبين امبراطور الروم ، ومما يعضد ذلك الرأى أن ثمة اتفاق سري تم بين امبراطور الروم وبين الفاطميين في مصر . وقد شاء سوء الحظ أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل في أيدي الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة (١٧٦) .

والذى نود أن نبرزه هنا هو أن دولة الروم لم تقم قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى الى الشرق وفي أثناء تواجدها به بأى هجمات على شواطئ مصر لانشغالها بالقضية الصليبية التي جددت على مسرح بلاد الشام . ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع الصليبي الرومي على الأرض المقدسة يحل محل أى تطلعات أخرى لدولة الروم .

171. Runciman : Ibid., V. 1, p. 229.

172. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 220.

(١٧٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٨

174. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 220.

175. Runciman : Op. Cit., V. 1, p. 229.

(١٧٦) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢١٧ عن
(Chalandon : Alexis Comnene)

(هجمات الروم)

الباب الثالث

التحالف بين الصليبيين والروم ضد مصر

- الفصل الأول : الصليبيون وضرورة الاستيلاء على مصر
- الفصل الثاني : الدور الايجابي للتحالف بين الصليبيين والروم
- الفصل الثالث : الهجوم الصليبي الرومي على دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

الصلبييون وضرورة الاستيلاء على مصر

تجددت هجمات نور الدين محمود (١) على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، ففتح ما تبقى في يد الصليبيين من امارة الرها ، واستولى على مدن عديدة تقع في شرق امارة أنطاكية . وقد حاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢ م / ٥٣٩ - ٥٥٨ هـ) أن يوقف تلك القلاقل والاضطرابات بتجديد التحالف القديم مع دمشق من جهة وبيازدياد التقرب من مانويل امبراطور الروم (٢) (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٨ - ٥٧٦ هـ) من جهة أخرى . وهو ما أشار اليه (أبو شامة) بقوله : « أن المصالحة بين ملك الفرنج وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت » وذلك في ٥٥٤ هـ (٣) / ١١٥٩ م .

(١) قال عنه ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل) ، ص ١٦٣ « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينفشه وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه » ومما قاله العماد محمد بن حامد الكاتب عنه : « ٠٠٠٠ كانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا ، حتى أسر ملوكهم ، وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم وحماها عنهم ٠٠٠٠ » (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٧٤) .

(٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، ص ٧٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٢٣ . ولو أن امبراطور الروم دخل في نفس الوقت في علاقات ودية مع نور الدين أيضا في جمادى الاولى سنة ٥٥٤ هـ « تجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعهد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقاريرات » وقد أوضح لنا ذلك أبو شامة في نفس المصدر السابق والصفحة وأضاف قائلا « أن ملك الروم أجيب الى ما التمسه من اطلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين فأنفذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاويه من الاتحاف باثواب الديباج الفاخرة المختلفة الاجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة ، وما استحسن من الخيول الجبلية ٠٠ » .

- ٨٦ -

بل انه لمن المرجح أيضا أن العلاقات المصرية الصليبية والمصرية الرومية كانت مستتبة الى حد ما فى ذلك الوقت أيضا . فقد ذكر (ابن ميسر) انه فى ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م « وصل رسول الفرنج يطلب الصلح ورسول من صاحب قسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على صاحب صقلية » لذلك فعندما خرجت القوات المصرية فى البر والبحر فى تلك السنة عادوا بكثير من الأسرى منهم شقيق صاحب جزيرة قبرص فأكرمه الصالح - طلائع بن رزيك وزير مصر آنذاك - وسيره الى امبراطور الروم (٤) .

ولقد ظل الاتصال مستمرا بين مملكة بيت المقدس ودولة الروم ، أثناء حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول (١١٦٢ - ١١٧٤ م (٥) / ٥٥٨ -

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ . والصالح طلائع بن رزيك تولى الوزارة فى مصر للخليفة الفاطمى الفائز وذلك فى الفترة ما بين ٥٤٩ الى ٥٥٥ هـ . (زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، ص ١٥٠ .

(٥) كان عمورى الاول يمتلك من المواهب ما جعلت منه ملكا ممتازا ، فمثلا كان يفضل التسلية بأشياء تحتاج لجهد مثل الصيد عن المسرحيات الكوميديّة وكان مأكرا . ورغم انه لم يكن مثقفا ما فيه الكفاية الا أنه كان يهوى القراءة والدخول فى مناقشات مع رجال مثل وليم الصورى - الذى كتب تاريخه بالحاح منه - وكان متذوقا لكل ما يسمعه أو يقرأ له . الى جانب أنه كان شجاعا لدرجة الجراءة فى المعركة ، رابط الجأش وحاسما فى قيادته ، له شهرته فى الدبلوماسية والاستراتيجية . ولكن رغم كل انجازاته لم تكن له شعبية أخيه بلدون ، فقد كانت تنقصه عذوبة معاشرته بلدوين وكان يميل للصمت وأحيانا كان استبداديا ، كما كان مفرطا فى فرض الضرائب ، قادرا على تبرأة نفسه من الاثم بما يقدمه من مبررات . عارضه بعض البارونات بسبب زوجته Agnès of Courtenay التى كانوا يعتبرونها حقيرة تافهة ، وقد صدق حدسهم فيما بعد حيث مارست تأثيرا شريرا على شؤون المملكة

(Setton : A History of the Crusades, V. 1, p. 549, Norman Daniel : The Arabs and Mediaeval Europe p. 179)

تزوج عمورى أيضا من أميرة رومية واعترف بسيادة الامبراطور مانويل الذى انفق الكثير على كنائس الاماكن المقدسة وأثارها ، وقد اعترف الملك عمورى بذلك وأقام النقوش تخليدا لاهتمام سيده «ولا تزال هناك كتابة باليونانية تحفظ ذكر ما يدل على سيادة الفسيلفس (الامبراطور) وهذا النقش التاريخي يبدأ بعبارة : فى عهد عمانوئيل وكما كان أمورى ملك أورشليم » (د . أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ١٥٤ عن (Corpus Inscript, Graecarum)

هذا وقد كان عمورى مولعا بالتنجيم والمنجمين الذين لعبوا دورا هاما فى فترة حملاته على مصر .

(Norman Daniel : Op. Cit., p. 179.

٥٧٠ هـ) ٠ بل ان علاقات الروم مع الصليبيين ظلت حسنة طيبة حتى نهاية عهد مانويل الذى ظل « محافظا على احترامه لأمرء الفرنجة مكبرا فيهم مثلهم العليا فى الفروسية طوال أيامه » (٦) ٠ وقد تزوج كل من بلدوين وعمورى من بيت كومنين ٠٠ كما تزوج مانويل من ماريا أميرة انطاكية وابنه ريموند (٧) ٠

ولم يلبث بلدوين الثالث أن هدد بغزو مصر حوالى ١١٦٠ م (٨) / ٥٥٦ هـ أو ١١٦١ م (٩) / ٥٥٧ هـ منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ٥٥٥ هـ (١٠) / ١١٦٠ م ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تنذيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار (١١) ٠

(٦) أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ٠

(٧) أرنست باركر : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، المؤلف : المرأة فى الحضارة البيزنطية ص ٤٣ - ٤٦ ٠ بعد وفاة زوجة الامبراطور مانويل الاولى (برته الالمانية) اتجه نحو قصور الامراء الصليبيين ليفتش عن « فسيلسه » جديدة (أى امبراطورة) وكاد يجدها فى طرابلس فى شخص شقيقة أميرها الصليبي ٠ ثم اثر الاقتران بمریم ابنة قسطنس (مارى ابنه كونستانس) وريثة انطاكية فتزوج منها فى سنة ١١٦١ م (أسد رستم : ١ الروم ، ج ٢ ، ص ١٥٣ عن Chalandon)

(٨) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى ٠

9. The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, p. 286.

(١٠) هو أبو القاسم عيسى تولى فى مستهل صفر ٥٤٩ وتوفى فى ١٧ رجب ٥٥٥ هـ (زامبور : معجم الانساب ، ص ١٤٥)

كان احتمال سقوط الخلافة الفاطمية وسط مؤمرات القصر وعمليات القتل الكثيرة التى حدثت فى مصر ، تجعل الصليبيين فى بيت المقدس فى حالة قلق شديد من وقوع مصر فى قبضة مسلمى بلاد الشام السنين أى نور الدين ورجاله
The New Encyclopaedia Britannica, V. 5 (1768) p. 302.

بل قيل ان من أكبر العوامل التى حركت بلدوين الثالث انذاك هو ذلك التحالف الذى تم بين حلب وديشق بواسطة نور الدين (Setton : Op. Cit., V. I, p. 549).
11. Runciman : A History of the crusades, V. 2, p. 367,

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٠٤ عن وليم الصورى وميخائيل السريانى ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. I, p. 286.

وهنا يعقب استاذنا الدكتور سعيد عاشور تعقبا منطقيا ووجيها على عسدم ذكر المصادر العربية لذلك الخبر بأنه اذا كانت الدولة الفاطمية فى ذلك الدور =

وقد أفاد بلدوين الثالث من حملته تلك على مصر بأن أحيط علما
بفكرة حقيقية عن مدى ضعفها وأيضا بمدى أهميتها الاستراتيجية . وقد جهز
نفسه لعملية سياسية وعسكرية لاسترجاع غزة وأخذ عسقلان . وقد اتبعت
تلك السياسة خلال العشر سنوات التالية أى خلال فترة حكم أخيه وخليفته
عمورى الأول (١٢) . والواقع أن مصر بدأت تحتل مكان الصدارة فى خطط
الفرنجية منذ عهد جودفرى بوايون وبلدوين الأول (١٣) . « ولم يتركوا
التفكير فى مشروع التحالف البيزنطى ، بالرغم من خيبة الآمال المتراكمة
فيه » (١٤) .

وبوفاة بلدوين الثالث واعتلاء أخيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس ،
وبالتحديد فى مستهل حكمه ، تحجج بعدم وفاء الفاطميين بوعدهم بدفع جزية
سنوية ، وقام بمغامرته الأولى فغزاها فى سبتمبر ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وعبر
برزخ السويس وحاصر بلبيس ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وأجبر
عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين (١٥) . بل قيل أن المصريين حفروا
الخنائق وأجبروه على الانسحاب (١٦) .

= أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة فلا أقل من أن تشتري مسالمتهم بأمال . وهذا
موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث لا يصل خبره الى الرعة فيستثيرهم ، والى كافة
المسلمين فيؤذى شعورهم ويسىء الى الخلافة الفاطمية نفسها وربما كان هذا هو السر
فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالي عدم اشارتهم اليه .

12. J. Prawer : Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, T. 1, p. 427.

(١٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د. الباز العرينى ، ص ٧٨ .

14. J. Prawer : Op. Cit., p. 427.

15. Setton : A History of the Crusades, V. I, p. 550, Runciman : Op.
Cit., V. 2, p. 367,

د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٢٠٠٠ ص ٢٠٤ عن Schlumberger :
Campagnes du roi Amoury de Jerusalem en Egypte), J. Prawer : Op.
Cit., T. 1, p. 432.

وهنا يذكر برويه أن عمورى الذى كان قبل اعتلائه العرش أميرا ليافا وعسقلان ،
وكان مرتبطا بالمنطقة الساحلية الفلسطينية فى جزئها الجنوبى المتجه نحو مصر ، لذلك
ساهم وضعه هذا فى توجيه نظره الى مصر ، بالاضافة الى تكملته للخط السياسى الذى
سار عليه الفرنج منذ عهد بلدوين الثالث .

(J. Prawer : p. 430).

16. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

ومع أن عمورى الأول عاد الى فلسطين فاشلا ، فان تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين ، ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها « وهذا ما كتبه عمورى الى لويس السابع ملك فرنسا » (١٧) . مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر . ولقد كان أخطر ما يخشاه عمورى فى رأى (ستون) أن تقع مصر فى قبضة النفوذ السورى السنى الاسلامى ، وبذلك تطوق الامارات اللاتينية هذا بالاضافة الى أهمية مصر ومينائها العظيم ، الاسكندرية ولقد كان ذلك هو سبب اصرار عمورى فيما بعد على الاندفاع جنوبا (١٨) .

ومن ناحية أخرى فان جراءة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية واحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى (١٩) .

هنا تدخل القدر ليسرع بتحقيق رغبات كل من نور الدين وعمورى فى مصر . فقد خرج على وزير مصر المسمى شاور السعدى (٢٠) ، رجل يقال له ضرغام وتغلب عليه وقتل ولده وتولى الوزارة مكانه « كان يروم

= والراجع أن هذه الحملة هى التى أشار اليها ميخائيل السريانى وخلط بينها وبين حملة عمورى التالية على مصر لان الحملتين ورد فيهما ذكر حصار عمورى لبلبيس . ومن المرجح أن المقصود بها حملة ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ التى سيأتى ذكرها فيما بعد . فقد ذكر ميخائيل السريانى أن عمورى خرج الى مصر لجمع الضريبة فانقسم المصريون قسمين قسم قدم له فروض الولاء والقسم الثانى كانوا ممثلين بالريبة فقأوموه واستنجدوا بنور الدين ضده . (Michel Le Syrien : Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens, T. 1, p. 359).

17. J. Prayer : Op. Cit., T. 1, p. 432.

18. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 540.

(١٩) د. عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٢٠) اسمه بالكامل « شاور بن مجير بن نزار بن عشاير بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن مخيس بن أبى ذؤيب . كان الصالح بن رزيق قد ولى فى =

منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة « . وقتل ولده طيا وولى الوزارة (٢١) . وخطورة ذلك الوضع كانت تكمن فى أن المصريين كانوا يخضعون لللاقوى وأن « قوتهم كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان » (٢٢) .

لذلك عندما قهر شاور - أمير الجيوش ابو شجاع - وأخرج من القاهرة اتجه الى بلاد الشام وقصد نور الدين بن زنكى فى ربيع الأول ٥٥٨ هـ مستصرخا ومستصررا على ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور (٢٣) فطلب نور الدين من أسد الدين شيركوه الخروج الى مصر لأنه لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع منه (٢٤) . وذلك « قضاء لحق الواقد المستصرخ وحفظا للبلاد

= أيام وزارته أبوشجاع شاور الصعيد بكماله . وكان شاور ذا شهامة ونجاجة وفروسية وشجاعة . وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزىك أن لا يتعرض لشاور بمساءة قط ولا يغير عليه . وأن يتلافاه جهده فانه لا يأمن عصيانه زخوجه « (ابن ابيك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، الدر المطلوب فى اخبار ملوك بنى أيوب ص ١٨ - ١٩ حوادث ٥٥٧ هـ) وهو ما حدث فعلا فقد تغلب شاور على الوزارة وانتزعها من بنى رزىك وقتل رزىك بن طلائع بن رزىك الذى وزر بعد أبيه (أبو شامة : الروضتين : ج ١ ، ص ١٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ مطبعة دار الكتب ١٩٣٥) ص ٣٦٣ . (٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين (ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٤٦ . وكان ضرغام مقدم الامراء البرقية، ونائب الباب (ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ طبعة (١٩٧١) ويقال ضرغام كان يتمتع بشعبية كبيرة واستحوذ على حب العامة

(J. Prawer 'Op. Cit., p. 432)

(٢٢) ابن شداد : المصدر السابق والصفحة ، أبو شامة : المصدر السابق والصفحة فقد كانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه « .

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٧ . وكان الخليفة يرمنذ هو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن أبى الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله والحكم للوزراء .

(٢٤) هو أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان شيركوه وأيوب أبناء شادى من بلدة دوين - وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلى الروم وكانوا من أصل كردى - كانوا فى خدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، وبعد قتل شيركوه لاحد المسيحيين المقربين للامير ، فر الاخان الى زنكى فى الموصل حيث

وتطلعا على أحوالها « (٢٥) الى جانب رغبته الملحة فى « الاستيلاء على اقليم
اشتهر بالهرطقة (المذهب الشيعى) اعادته الى المذهب الصحيح ، وهو
المذهب السنى واتمام تطويق مملكة بيت المقدس » (٢٦) .

فاستجاب أسد الدين بسرعة لطلب نور الدين ، فقد « كان هوى أسد
الدين فى ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه
بمخاوفه » (٢٧) . وقد قيل أن شاور شرط لنور الدين أنه ان سير معه قواته
ليقوى بهم على خصمه ضرغام وينتزع الوزارة منه « ان يكون لنور الدين
حصته من البلاد ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره » (٢٨)
وبمعنى آخر أطمع شاور نور الدين فى البلاد وقال له : « أكون نائبك بها
وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقي لك » (٢٩) .

ولا عبرة هنا بما ذكره ميخائيل السريانى من أن سبب استنجد بعض
المصريين بنور الدين هو تشككهم فى نوايا الملك عمورى الذى كان قد قدم
لأخذ الضريبة السنوية (٣٠) .

= بدأ نجمهما فى الصعود ، فلما قتل الشهيد عمل نجم الدين فى خدمة صاحب دمشق،
أما أسد الدين شيركوه فقد خدم نور الدين ، فرأى منه فى حروبه آثارا يعجز عنها
غيره فزاد فى اقتطاعه وقربه حتى صار له حمص والرحبة وغيرها وجعله مقدم جيشه
(ابن الاثير ، الباهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ،

(The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 288

(٢٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ،
ص ١٣٠ . والمصدر الاخير يضع كلمة حبسا مكان حفظا . وسواء كان غرض نور الدين
حبسا للبلاد أو حفظا لها فنحن نلمح فى التعبيرين رغبته فى المحافظة عليها من
الصليبيين حتى لا تذهب لايديهم وفى نفس الوقت نلاحظ أيضا رغبة نور الدين فى
تملكها بعد الاطلاع على أحوالها عن قرب .

(٢٦) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ .

(٢٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .
ويعضف
ابن الاثير هنا أن نور الدين طلب من أسد الدين إعادة شاور الى منصبه والانتقام
ممن نازعه فى الوزارة .

(٢٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٣٥ ص ٣٤٦ .

30. Michel Le Syrien : Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

ويبدو أن نور الدين كان متردداً في بادئ الأمر في إرسال حملة إلى مصر ، وربما يرجع ذلك إلى سببين : أولهما في رأى برويه « أن الذى يطلب النجدة أو الدعم السورى هو شاور وحزبه وأن ذلك يجعل من الممكن أن يصبح نور الدين سيداً لبلد شيعى (٣١) » . والثانى هو الخوف من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى الشام (٣٢) . فكان يقدم فى ذلك رجلاً ويؤخر أخرى « تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه إلا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضا » (٣٣) . والدليل على ذلك أنه « استخار الله سبحانه فى ذلك » ثم خرج بنفسه بصحبة أسد الدين « إلى طرف بلاد الاسلام مما يلي بلد الافرنج فى بقية العسكر ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين » (٣٤) . وصحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين على كره منه (٣٥) . وكان ذلك فى جمادى الأولى ٥٥٩ هـ (٣٦) .

وثمة رأى لابن شداد يذكر فيه أنهم وصلوا إلى مصر فى جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ (٣٧) . والراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة . وأنها سنة ٥٥٩ هـ (٣٨)

31. J. Prayer : Op. Cit., T. 1, p. 432.

(٣٢) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٠٥ .

(٣٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣٠ .

(٣٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ . هنا يذكر برويه أن شيركوه هو الذى أزال تردده « ورجع كفة » تلبية رغبة شاور لأن فى ذلك تحقيقاً لحلمه فى أن يكون حاكماً لمصر تحت سيادة نور الدين

(J. Prayer : Op. Cit., T. 1, p. 433).

(٣٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

(٣٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ .

(٣٧) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ . ذكرنا أنهم وصلوا القاهرة فى أواخر جمادى الاول . أما ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٦ وابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ فقد ذكرنا أنهم وصلوها فى جمادى الآخرة من السنة ٥٥٩ هـ .

١١٦٤م (٣٩) لاجماع المصباح والمراجع على ذلك ، بل ان (ستيفنسون Stevenson) « يعتبر سنة ١١٦٤ م نقطة تحول فى تاريخ تلك الفترة لأنها شهدت أولى خطوات الوحدة بين مسلمى مصر وسوريا » (٤٠) .

وفى الوقت الذى استنجد فيه شاور بنور الدين ، استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى ، مقابل مساعدته ، أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين (٤١) . والحقيقة أن عمورى وجد فى تلك الحرب « وسيلة للافلات من مصيدة نور الدين وازدياد الاتصال المباشر المثمر بالتجارة الشرقية » (٤٢) الا أن جيش القائد الكردي الماهر شيركوه وصل قبل الجيش الصليبي رغم كبر سن أسد الدين (٤٣) .

وعند اقتراب أسد الدين من مصر خرج الى لقاءه ناصر الدين أخو الضرغام بقوات مصر ، فلقبهم فانهزم ناصر الدين وعاد الى القاهرة ، فلما وصل أسد الدين القاهرة خرج اليه ضرغام فقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب (٤٤) . « وبذلك كانت مدة وزارة ضرغام تسعة أشهر وعشرة أيام » وعاد شاور الى وزارته الثانية آخر جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ (٤٥) / آخر مايو ١١٦٤ م (٤٦) .

39. L. Bréhier : Vie et Mort de Byzance, p. 338, Gibb : The life of Saladin, p. 5, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

ويذكر ستون أن الحملة تحركت الى مصر فى ابريل ١١٦٤ م
40. Stevenson : Op. Cit., p. 186.

(٤١) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠ ص ٢٠٥ عن (عماره اليمنى ، Wiet) ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٨٥ .

(٤٢) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ص ٧٩ .

(٤٣) د. سيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٠٥ .

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، ابن خلدون : تاريخه ،

ج ٤ ، ص ٧٧ .

(٤٥) أبو شامة : الروضتين ؛ ج ١ ، ص ١٣١ ، ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ،

الدر المطلوب ٠٠٠ ص ٢٦ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٧ ، هنا

يذكر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٥ (عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن

أبى طى الحلبي) أن بعض الامراء فى مصر كانوا غير راضين عن ضرغام وذلك لان

بعضهم حسدوه وكاتبوا شاور الذى كان قد صار الى الشام « فأخذ فى اعمال الحيلة

عندئذ طلب أسد الدين من شاور أن يفي له بما تعهد به ، فتنكر له شاور بل طلب منه الرجوع الى الشام (٤٧) فامتنع أسد الدين وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه فلم يجبه شاور « (٤٨) » وأمام اصرار شاور على النكث بالعهود وعلى الغدر أرسل أسد الدين نوابه الى مدينة بلبيس فتسلموها وحكم اقليم الشرقية (٤٩) . عندئذ خاف شاور من قوات الشام (٥٠) واستنجد بالفرنج (٥١) وخوفهم من نور الدين وأنه ان ملك مصر فلن ينعموا بالاستقرار (٥٢) .

عليهم وأحضرهم الى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا « . وقيل أنه قتل منهم سبعين أميراً آنذاك .
46. Kunciman : Op. Cit., V. 2, p. 368.

وهو يذكر هنا أن ضرغام مات ولم يشر الى أنه قتل .

(٤٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢١ ، وفي ص ١٦٦ يذكر أبو شامة عن كتاب السيرة الصلاحية أن أسد الدين أرسل الى شاور يستعجله ما تعهد به لنور الدين بعد أن « ضجر العسكر من الحر والغبار » فأرسل اليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال له ترحل الآن . عندئذ أرسل اليه أسد الدين يقول ان نور الدين أوصاه أنه اذا ملك شاور مصر أن يقيم عنده ويكون له ثلث غلة البلاد والثلث الثاني لشاور والجيش والثلث للخليفة . عندئذ قال له شاور : أنا ما قررت شيئاً مع نور الدين وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصرفوا .
(٤٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٤٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ، الذهبي : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٣ ، Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550
50. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

هنا يذكر ابن العبري أن شاور أحس من حملة شيركوه أنها قدمت لازاحة المصريين عن الحكم .

51. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

أبو شامة : الروضتين

ج ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، ابن ايبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، الدرر المطلوب ، ص ٢٧ ، Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

هنا اخطأ ابن ايبيك عندما ذكر أن شاور استنجد بملك الروم (مرى) لان مرى هو نفسه عموري الاول ملك بيت المقدس لا ملك الروم .

(٥٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

والحقيقة أن الفرنج كانوا فى حالة خوف شديد عندما سمعوا بتوجه قوات نور الدين الى مصر فقد أيقنوا بالهلاك اذا استولى عليها نور الدين لذلك فعندما وصلتهم رسل شاور تطلب المساعدة ساروا بذلك وساروا بتلبية طلبه (٥٣) .

وهنا يؤكد (برييه) ذلك القول بأن عمورى لم يتردد فى التدخل وأنه لبى رغبة شاور « كى يحطم الخطر الذى قد يطوق الامارات المسيحية ، اذا وفق نور الدين فى تقوية وتعزيز مركزه فى وادى النيل » (٥٤) . وبذلك نجح شاور فى تأليبهم ضد أسد الدين بعد أن وعدهم باعطائهم مبلغا من المال (٥٥) وبمعنى آخر عقد معهم صلحا (٥٦) ووعدهم « بتأييد عسكرى ومساعدة مالية » (٥٧) .

عندئذ ساروا الى مصر . فوصلت تلك الأخبار الى نور الدين فما كان منه الا أن سار بقواته الى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، لكنهم لم يكثرثوا لذلك لعلمهم « أن الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم » لذلك ترك ملك بيت المقدس بعض قواته فى مملكته وسار بالقوات الباقية الى مصر ، مستعينا فى ذلك بجموع الصليبيين الكثيرة التى وفدت لزيارة بيت المقدس فى ذلك الوقت (٥٨) كى لا يستنزف دفاع المملكة (٥٩) .

(٥٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .
 هنا يذكر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية أن شاور ضمن لعمورى ملك الصليبيين عن كل مرحلة يرحلها الى مصر ألف دينار بل انه قرر شيئا لدوابه ولطائفة الاسبتارية . ويقال ان عمورى قطع المسافة بين عسقلان وفاقوس « فى سبع وعشرين مرحلة قبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار » .
 54. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 338.

(٥٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ٠٠ ج ١ ، ص ١٣٩ ، د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ، ص ٢٠٦ عن (Schlumberger)

56. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289.

57. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

(٥٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣١ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

كان أسد الدين فى ذلك الوقت - كما سبق القول - متحصنا فى مدينة بلبيس « معتمدا على مساعدات عرب كثانة » (٦٠) فهاجمته القوات المصرية بقيادة شاور والقوات الصليبية بقيادة عمورى (٦١) التى اتحدت لأول مرة (٦٢) وحاصروه ببلبيس عدة أشهر (٦٣) فاستبسل فى قتالهم رغم بساطة معداته وتحصيناته لكنهم لم ينالوا منه شيئا (٦٤) .

وثمة رأى هنا لأبن أيك يذكر فيه أن أسد الدين عندما رأى اتحاد الصليبيين والمصريين ضده ، واشتم رائحة الغدر من شاور ، أرسل الى الملك عمورى وطلب منه الصلح على أن يعطيه ما بقى معهم من مال ، وأخبره أنه اذا رفض فسوف يستبسلوا فى القتال ضدهم « فان تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا نفذناها اليك » وان أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد منا حتى يقتل عدة منكم . (٦٥) .

59. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 550.

وكان قد عقد اجتماعا مع (بارونات) ووضع شئون المملكة تحت رعاية بوهيموند الثالث أمير أنطاكية .

(٦٠) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٠٦ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٦ ، قدرى قلجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٦٨ .

61. Gibb : The Life of Saladin, p. 5.

62. L. Bréhier: Vie et Mort, p. 338.

(٦٣) يذكر ميخائيل السريانى أن مدة الحصار كانت سبعة أشهر
Michel Le Syrien : Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

أما أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى ابن أبى طى الحلبي فيذكر أنها كانت ثمانية أشهر . أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٤٦ فيقول أنها كانت شهرين . أما ستون فيحدها بثلاثة أشهر من أغسطس الى أكتوبر ١١٦٤ م

(٦٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢١ ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٦٥) انظر الملحق رقم (٣) . وليس معنى ذلك أن القوات المصرية الصليبية المتحدة أجبرت شيركوه على التنازل عن مصر والرحيل عنها كما ذكر برييه
(L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339)

لم تلبث أن وصلت الى مسامع الصليبيين عندئذ أخبار استيلاء نور الدين على حارم (٦٦) ، ثم توجه بعد ذلك الى بانياس لأخذها فساوهم الخوف فراسلوا أسد الدين في الصلح وتسليم ما بيده من البلاد الى المصريين فوافق (٦٧) . ويقال أن سبب موافقته أنه «لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل» (٦٨) . وأن الأقوات قلت مع قواته (٦٩) و « علم عجزه عن مقاومة

(٦٦) هنا يذكر ميخائيل السرياني أن ملك بيت المقدس علم بمهاجمة نور الدين لحارم أثناء محاصرته بلبيس . فأرسل الى أهالي حارم خطابا يأمرهم فيه بعدم الخروج من الحصن حتى يصل اليهم . ولكنه بمجرد تركه الحصار وبداية المسير الى حارم علم أن أهالي حارم لم يلتزموا بما أمرهم به وأنه خرجوا من الحصن ، ووقعوا في أيدي المسلمين الذين أخذوهم على غرة فقتلوا منهم عددا كبيرا وسيطروا على الحصن بعد أن أسروا أمير أنطاكية وحشدا آخر من كبار الشخصيات .
Michel Le Syrien : Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 359.

(٦٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 289,
Setton : Op. Cit., V. 1, pp. 550-551.

وفصل لنا بروييه ذلك بقوله أن السبب في اسراع عموري في الدخول في مفاوضات من أجل الصلح مع شيركوه هو أن أكثر قوات الفرنج كانت موجودة في مصر آنذاك معه وان نور الدين استولى على قلعة حارم وعلى نهر العاصي ، كما أسر عددا كبيرا من الامراء الصليبيين من بينهم أمير أنطاكية وأمير طرابلس وبذلك انتهت ممتلكات الصليبيين شرق العاصي كذلك هاجم بانياس التي كان حاكمها مع عموري بمصر فسلمها القائد Gautier de Quesnoy لنور الدين
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 433-434)

وهنا أخطأ (جب) في القول بأن طلب نور الدين الهدنة كانت المنقذ لشيركوه من الحصار المضروب حوله آنذاك وأنه كان محظوظا «
(Gibb : The Life of Saladin, p. 5)

كما لا نأخذ هنا أيضا برأي (ستيفنسون) الذي يشير الى سرور شيركوه لشروط الصلح عندما قدمها عموري .
(Stevenson : Op. Cit., p. 188)

(٦٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ . ويؤيد هذا الرأي أيضا ما ذكره (ستون) من أن نور الدين كان قد طلب ارسال رؤوس القتلى من الصليبيين وأعلامهم ، التي وقعت في أيدي القوات الاسلامية بعد الاستيلاء على حارم في ١٢ أغسطس ١١٦٤ م ، الى شيركوه في مصر وأعطى تعليماته بعرضهم

(هجمات الروم)

الفريقين فصالحهم » (٧٠) وعاد الى بلاد الشام بعد أن « بذلوا له قطيعة » (٧١) ونحن نرجح أن قلة الأقوات مع شيركوه هي التي جعلته يوافق بسرعة على الصلح .

رجع شيركوه وكله رغبة في العودة الى مصر ، « عاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الايهام بالمحال » (٧٢) . ولكنه انشغل مع نور الدين في تدبير أمور بلاد الشام ولم ينس مطلقا التفكير في الرجوع الى مصر « أقام بالشام مدبرا لأمره

=

على أسوار بلبس لتخويف المحاصرين (Setton : Op. Cit., V. 1, p. 551)

ولكن الراجح أنها لم تكن قد وصلت الى شيركوه بعد .
ولو أن أبو شامة يعود في موضع آخر فيذكر أن أسد الدين علم بذلك ونفذ طلب نور الدين (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ عن السيرة الصلاحية ليحيى بن أبي طي الحلبي)

69. Setton : Op. Cit., V. 1, pp. 550-551,

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠

(٧٠) ابن واصل : نفس المصدر السابق والصفحة .

والواقع أن هذا يتعارض مع ما ذكر من الاشارة بشجاعة شيركوه وأنه خرج وأصحابه أمامه « يحمي ساقاتهم وفي يده لت حديد والمسلمون ، والفرننج ينظرون إليه فجاءه رجل من الفرنج وقال له أما تخاف أن يفدر بك هؤلاء المسلمون والفرننج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية » فقال شيركوه يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم ووالله لو أطاعنى هؤلاء - يعنى أصحابه - لخرجت اليكم أول يوم لكنهم امتنعوا . فصلب الفرنجى على وجهه وقال كنا نتعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم » (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٢٢) .

(٧١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة : الروضتين ،

ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٦٧ . فقد تعهد شاور لشيركوه بدفع ثلاثين ألف دينار أخرى .

أما ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٧ فيذكر أنه كانت هناك عقبات في طريق عودة أسد الدين الى الشام فأخذ منه الملك عمورى بعض المال فى مقابل افساح الطريق

لهم . وهو يشير لعمورى بملك الروم كما سبق الذكر .

(٧٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

مفكرا فى كيفية الرجوع الى البلاد المصرية « (٧٣) .

ويرى (ستون) أن تلك الحملة التى كان يرجى من ورائها نتائج مختلفة تماما للصليبيين ، « انتهت وهم فى مأزق بسبب الحكم المتفائل للملك « (٧٤) عمورى الأول ، اذا أخذنا فى اعتبارنا شدة الحاجة الى تقوية الحدود الشمالية فى مواجهة نور الدين .

هنا يشير (ستون وبروييه) أنه منذ ذلك الوقت أيضا بدأ نور الدين يشعر بالخوف من أى تدخل بيزنطى يحفظ توازن القوى فى شمال سوريا (٧٥) وأن ذلك كان سبب احجامة عن مهاجمة انطاكية نفسها (٧٦) .

وهكذا انتهت تلك الجولة وعاد الجميع وكلهم رغبة فى العودة ثانية الى مصر : فأسد الدين كانت فى قلبه « نار لا تنطفىء من فعل شاور » (٧٧) وكان تفكيره دائماً فى كيفية الرجوع الى مصر (٧٨) . وربما كان نور الدين نفسه مهياً جداً فى ذلك الوقت لما يدور فى خلد شيركوه لأنه كان فى قلبه من شاور

(٧٣) ابن شداد : نفس المصدر والصفحة . هنا يضيف أستاذنا الدكتور سعيد عاشور عن (شلومبرجيه) الذى لم يسعدنا الحظ بالاطلاع عليه أنه لو ترك الامر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو ١١٦٦ م (٥٦٠ - ٥٦١ هـ) ولكن يبدو أن نور الدين خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين خوفاً من تشتيت جهوده وتقسيم قواته فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى شيئاً من اليقظة والانتباه (د . سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٢٠٠ ص ٢٠٧)

74. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 551.

هنا تتضح لنا مدى خطورة الوضع بالنسبة لملكة بيت المقدس بل وللصليبيين عامة مما ذكره (ستون) من أن نور الدين بعد استيلائه على حارم كان قد أسر عدداً كبيراً من كبار أمراء الصليبيين وفرسانهم مثل بوهموند الثالث أمير انطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وقنسطنطين كولومان حاكم قيليقية البيزنطى وجوسلين الثالث أمير الرها الاسمى ، هذا بالإضافة الى أن عمورى الاول كان قد أخذ معه فى حملته على مصر معظم القوات الصليبية ، وبذلك كانت الملكة معرضة للهجوم والخطر .

75. Setton : Ibid., V. 1, p. 552, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 434.

بل قيل ان الامبراطور مانول كان يفكر فى الاستيلاء على انطاكية نفسها آنذاك

Stevenson : Op. Cit., p. 189.

76. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 434.

(٧٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨ .

(٧٨) ابن شداد : النوار السطانية ، ص ٣٧ .

حزاة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج (٧٩) .

أما عمورى فكان يطمع فى العودة الى مصر لينعم بثرائها وبموقعها الاستراتيجى الممتاز ، لكى يستطيع فى نفس الوقت أن ينعم بشيء من الراحة تجاه نور الدين وتوسعاته .

والحقيقة أن أشد ما كان يخشاه نور الدين - كما سبق الذكر - هو الخوف من تحالف بين الروم والصليبيين يضعه بين فكى الكماشة ، يضاف الى ذلك رغبته الملحة فى ضم مصر الى حظيرة المذهب السننى والسيادة العباسية .

ومهما يكن من أمر فقد رغب نور الدين فى أن يمتلك مصر ، لذلك أمر أسد الدين « بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال » (٨٠) .

كذلك ما أن سبر شاور غور أسد الدين واستشف حقيقة ما فى نفسه من طمع فى مصر وأنه لايد له من قصدها (٨١) حتى اشتد خوفه على البلاد من الأتراك ، فأعاد الاستنجاد بالصليبيين مرة ثانية ، واتفق معهم على أن يحضروا الى مصر « ويمكنونه فيها تمكيننا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه » (٨٢) .

(٧٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٨ .
(٨٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧ . وثمة رأى لرنسيماى هنا يذكر فيه أن شيركوه كان له دور ملحوظ فى حث الخليفة العباسى نفسه فى بغداد كى يعلن أن تلك الحرب هى حرب مقدسة ضد (هرطقة) الخلافة الفاطمية الشيعية (Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 372) والواقع أنه بالرغم من أننا لم نعثر على ما يؤيد رايه هذا فى المصادر العربية الا أننا نرجع صحة مضمونه على اعتبار أنه استشفه من طبيعة العلاقات السنية الشيعية آنذاك .

(٨١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ . كان أسد الدين يكثر من التحدث الى من يشق فيهم عن رغبته فى الرجوع الى مصر ، حتى وصلت تلك الاخبار الى شاور .
(٨٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٣ ، ص ٣٤١ . وهنا يصور لنا أبو شامة فى الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٢ مدى خوف شاور من أسد الدين ببيتين من قصيدة لعرقلة الكلبى جاء فيها : وهل هم يوما شيركوه بجلق الى الصيد الا ارتاع فى مصر شاور هو الملك المنصور والاسيد الذى ثنا ذكره فى الشرق والغرب سائر

وما أن علم عمورى الأول بخروج شيركوه - الذى يصفه ستون - « بالمتأثر » فى يناير ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـ متجها الى مصر « ليستعيد مكانه فيها » (٨٣) أو للانتقام من شاور (٨٤) ، حتى عقد مجلسا فى نابلس ضم كبار رجال مملكته وتقرر فيه ضرورة ارسال حملة جديدة لتعترض سبيل شيركوه ، وقد قرر المجلس أن يدفع رجال الدين والمدنيين ممن لن يصاحبوا تلك الحملة الى مصر ضريبة تقدر بحوالى ١٠٪ على كل الممتلكات ، وعليه فقد جمع الملك قواته وتقدم بها فى آخر يناير فى حملته الثالثة على مصر ٠٠ وفى تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم قبل أن يساعده فى محاربة شيركوه ، فما كان من شاور الا أن جدد تعهده السابفة لعمورى من جديد ٠ وبالفعل تم توقيع اتفاق جديد بين عمورى من ناحية وشاور من ناحية أخرى ، بل ان الملك عمورى حرص على اعطائها صفة رسمية فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمى زارته فى مصر حيث تم اعتماد الاتفاق (٨٥) ٠

هنا يذكر (ابن شداد) أن جيش أسد الدين شيركوه وصل الى مصر فى نفس الوقت الذى وصل فيه جيش عمورى اليها « مقارنا لوصول الفرنج

83. Setton : Op. Cit., V, 1, p. 552.

يوافق ذلك ربيع الاول سنة ٥٦٢ هـ (ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٨ ٠

84. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 338.

85. Setton : Op. Cit., V, 1, p. 552, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 434-435.

٠ عبد الرحمن الرافعى ، د ٠ سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ٠

ص ٢٨٨ ٠ عن

(Schumberger : Campagnes du Roi Amoury.)

وقدرى قلجى : صلاح الدين الايوى ، ص ١٧٢ ٠ هنا يذكر ستون أن شاور تعهد بدفع ٤٠٠,٠٠٠ دينار دفع نصفها مقدما للصليبيين ، وتعهد الملك بالآلات يترك مصر حتى يسحق جيش شيركوه أو ينسحب من البلاد ٠ وكان الوفد المفوض عن الملك فى توقيع تلك المعاهدة برئاسة هيو حاكم قيصرية ٠ وقد أيد الخليفة الفاطمى شاور فى استنجاهه بالصليبيين وعضده بدليل ما ذكره ستون من كرم الخليفة الزائد وتواضعه فى مقابلة هيو رئيس الوفد وأنه أعاد وراعه نص المعاهدة فى صدق وإخلاص ٠ ٠

اليها» (٨٦) . أما غالبية المصادر العربية الأخرى (٨٧) فتشير إلى أن شيركوه وصل أولاً ثم تلى ذلك استنجد شاور بملك بيت المقدس . ويتفق رنسيمان مع الرأي الثانى حيث يذكر أن قوات عمورى « وصلت متأخرة جداً » (٨٨) .

بينما انفرد أبو شامة برواية أخرى توضح أن الملك عمورى هو الذى أخبر شاور بتحريك شيركوه إلى مصر فأعاد شاور طلب النجدة منه فسار عمورى بجيشه إلى مصر بجوار البحر بينما كان أسد الدين يسير فى البر فسبقه الفرنج ونزلوا بلبيس واجتمعوا بشاور وانتظروا وصول الجيش النورى ، عندئذ وصلت تلك الأخبار لأسد الدين فغير طريقه ووصل إلى الصعيد وعبر إلى البر الغربى فلم يستطع الفرنج وشاور اللحاق به (٨٩) .

(٨٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧ . فى الوقت الذى يذكر فيه ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٨ أن جيش شيركوه كان ألفى فارس . يذكر ابن العبرى أنه وصل إلى مصر فى عدد قليل من المشاه وذلك بسبب قلقه وميله الشديد للعودة إلى مصر ، وذلك دون اعطاء رقم معين لهذا الجيش .
(The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 290).

ثم يعود بعد ذلك فيذكر أن عدد الجيش كان ألفى فارس
أما بروييه فيؤكد أن جيش شيركوه كان ألفى جندي يضاف عليهم بعض القوات من الاسكندرية على رأسها نجم الدين بن مصال . أما جيش الصليبيين فكان يقدر بـ ٣٧١ فارس و ٥٠٠٠ راجل يضاف اليهم الجنود المصريين التابعين لشاور
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 435).

(٨٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨ ، اليافعى : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ .
88. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 372.

(٨٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٨ . عن كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طى الحلبي هنا يذكر نفس المصدر أن أسد الدين حاول أن يتعاون مع شاور ضد الصليبيين وأنه أرسل إليه رسولا يقول له : « أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو وبكل يمين يثق بها مسلم من أخيه أننى لا أقوم ببلاد مصر ولا أعاد اليها أبدا ولا أمكن أحد من التعرض اليها . وما أوصل منك الا نصر الاسلام فقط وهوان العدو . . . وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته ونخمد نأثرته » فلما وصل الرسول إلى شاور قتله واطلع عمورى بفحوى الرسالة . فلما علم أسد الدين ذلك ندم على ما فعله مع شاور وقال « لعنة الله لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج » عندئذ كتب إلى =

جاء الصليبيون الى مصر وكان « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم » (٩٠) وكان أسد الدين شيركوه قد عبر النيل الى البر الغربى ، ذلك أنه عمل حسابا لاستنجد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة (٩١) . وسار الى الصعيد واستقر فى مكان يعرف بالمبابين فتتبعته القوات المصرية والصليبية وأدركوه فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ٥٦٢ هـ (٩٢) / ١٨ مارس ١١٦٧ م (٩٣) . وقد استطاع شيركوه أن ينزل بهم هزيمة ساحقة رغم قلة قواته بالنسبة لقواتهم ورغم محاولة بعض أصحابه اقناعه بالرجوع الى الشام (٩٤) . وكان ذلك

= أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور .

هنا أيضا نقرا رأيا خاطئا للذهبي يذكر فيه أن الصليبيين دخلوا الى مصر سنة ٥٦٢ هـ « من بحر دمياط » (الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٦) .
(٩٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ .
(٩١) د . عبد الرحمن الرافعى ، د . سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٧ .

(٩٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٠ . هنا ذكر أبو شامة البابين خطأ (البانين) والراجع أنه خطأ مطبعى .

93. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 553, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 374.

أما جرويه فيذكر أن ذلك كان فى مارس أو أبريل ١١٦٧ م
(J. Prawer : T. 1, p. 435)

(٩٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٣ .
فبالرغم من معرفة كثرة عدد المصريين والصليبيين وعددهم الا أن أسد الدين صمم على ضرورة قتالهم ، الا أنه خاف أن تضعف نفوسهم فى هذا المكان الخطير الذى « عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعودة الى الشام وقالوا له : نحن ان انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فالى أين نلتجئ وبمن نحتفى وكل من فى هذه الديار عدو لنا . فقام أحد المماليك النورية يسمى (برغش) وقال ما ملخصه : من يخاف القتل لا يخدم الملوك ، بل يبقى فى بيته مع النساء ، والله لو رجعت الى الملك العادل نور الدين من غير غلبة فسوف يأخذ اقطاعاتكم وأمرالكم التى أعطاها لكم الى يومنا هذا ويقول لكم تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، فقال أسد الدين ، أن هذا رأيه وبه يعمل . ووافقه صلاح الدين . ثم اجتمعت كلمتهم على ضرورة القتال ، فوضع أسد الدين خطة محكمة ضمنت لهم النصر . وبالفعل انزلوا بالقوات المشتركة هزيمة منكرة .

« من أعجب ما يؤرخ أن ألقى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل » (٩٥) .

وقد قتل فى تلك المعركة « العديد من فرسان الصليبيين وأسر حشدا كبيرا أيضا ، بالإضافة الى استيلاء المسلمين على كمية كبيرة من معدات العدو الحربية » (٩٦) .

وهكذا رجع شاور والملك عمورى الى القاهرة «فى أنحس الأحوال» (٩٧)
أما أسد الدين فقد سار الى الاسكندرية « ففتح له حاكمها أبوابها » (٩٨)
وتسلمها من أهلها بغير قتال (٩٩) ، ثم أناب بها ابن أخيه صلاح الدين وسار

(٩٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣
96. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 553.

هنا يفرد ستون كمرجع أجنبى بالكلام عن الخسائر بين الجانبين فيذكر أن الملك عمورى أحصى القتلى فى الحانبين فوجد قتلاهم ١٠٠ وقتلى المسلمين ١٥٠٠ . ويبدو أن هذا الرقم فيه شيء من المبالغة . أما المصادر العربية فقد ذكرت عدة روايات مختلفة عن هذا الموضوع فمثلا أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ ذكر أن أسد الدين أسر « سبعون فارسا من باروناتهم » أما ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩ فقد ذكر أن أسد الدين كسر قوات أعدائه كسرة عظيمة و « أخذ صاحب قيسارية أسيرا مع جماعة من أصحابهم » . بينما ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ، ص ٢٤٩ أن أسد الدين وصلاح الدين قتلوا من الصليبيين « ألوفاً وأسرا مائة وسبعون فارسا » .

أما برييه فيعطينا رأيا خاطئاً عندما ذكر أن عمورى « عاقب شيركوه بهزيمة فاصلة » فى تلك المعركة .

L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

والواقع أن عمورى وجد أن « الواجب يحتم عليه أن يهرب حيا » فى ذلك اليوم كما ذكر رنسيومان .

Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 374.

(٩٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩
98. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 436.

(٩٩) هنا يذكر ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ أن أهل الاسكندرية ساعدوا جيش شيركوه خوفا من الفرنج . أما ابن واصل مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ١٥١ فقد ذكر أن ذلك يرجع الى ميلهم لمذهب السنة وكرهيتهم لرأى المصريين ، بينما أعطانا استاذنا الدكتور سعيد عاشور رأيا آخر له قيمته وهو أن أهل الاسكندرية عرفوا دائما بالنخوة والشهامة - بالإضافة =

هو الى الصعيد فاستولى عليه « وجبى أمواله » (١٠٠) .
عندئذ حشد الصليبيون من جيش عمورى بالاضافة الى المصريين بقيادة
شاور جيشا كبيرا تقدموا به الى الاسكندرية وحاصروها. حصارا شديدا (١٠١)
فأبدى صلاح الدين شجاعة نادرة فى الدفاع عن المدينة رغم قلة الطعام
والسلاح مع قواته (١٠٢) . عندئذ توجه شيركوه بمن معه لنجدة صلاح الدين

الى أن بعدهم عن العاصمة وعلّستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر جعلهم أكثر
احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم (د. عاشور : بحوث
ودراسات ١٠٠ ص ٢١٠) . أما رنسيمان وستيفنسون فيذكرا أن ذلك كان راجعا الى أن
شاور كان مكروها من بعض السكندريين
(Runiciman : Op. Cit., V. 2, p. 375), Stevenson : Op. Cit., p. 191.

(١٠٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص
١٥١ . وقد ظل أسد الدين بالصعيد حتى شهر رمضان ٥٦٢ هـ .
وهنا يعقب الدكتور حامد غنيم . الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية
ج ٢ ، ص ٢٩ بأن مصر شهدت لمدة حوالى شهرين وجود نظامين متصارعين على أرضها
فى الاسكندرية والصعيد كان يوجد نظام يمثل حركة المقاومة الاسلامية . وفى القاهرة
ومناطق أخرى كان يوجد نظام يمثل تحالف شاور مع الصليبيين وهو تحالف معاد لحركة
المقاومة الاسلامية .

(١٠١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ،
١٦٨ - ١٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ،
ج ٧ ، ص ٢٩ وهنا يذكر رنسيمان أن أسطولا صليبيا اشترك من البحر فى الحصار
الى جانب تعزيزات برية وصلت من فلسطين
(Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 375).

وهنا يذكر ابن ايبك أن الحصار استمر سبعة وخمسون يوما بينما ذكر جب أنه
استمر ٧٥ يوما ، والراجح أنه أخطأ فى ترجمة العدد
(Gibb : The Life of Saladin, p. 5).

بل قيل استمر لمدة « أربعة أشهر » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥)
وفى موضع آخر ذكر نفس المصدر ص ١٦٨ عن كتاب السيرة الصلاحية أنه استمر
ثلاثة أشهر « ويتفق برويه مع ذلك الرأى الاخير
(Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 436)

(١٠٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ .
J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 436.

هنا يعلق برويه على موقف أهل الاسكندرية بقوله أنهم لم يكونوا معتادين على
العمليات العسكرية باعتبارها مدينة تجارية لذا تعب أهلها كثيرا وقد نتج عن هذا
الحصار مجاعة .

ومن معه (١٠٢) أى أنه توجه الى الاسكندرية رأسا عندئذ علم الصليبيون أنه حشد لهم جيشا كبيرا « استنهض لقصد القوم العموم والخصوص ٠٠٠ فرحلوا عن الحصار » (١٠٤) .

وثمة رأى هنا لابن أيبك يذكر فيه أن أسد الدين جاء من الصعيد و « نازل القاهرة وحاصرها ، وضيق على من بها وعلى العاضد صاحب القصر » (١٠٥) والراجح أنه ربما فكر فى محاصرتهم وهو فى طريقه الى الاسكندرية ، ولكنه توجه من أن يقابل بمقاومة ضارية (١٠٦) . عندئذ وصلته رسل المصريين والصليبيين تطلب الصلح (١٠٧) . خصوصا بعد أن وصل للصليبيين أخبار هجمات نور الدين فى بلاد الشام على ممتلكاتهم (١٠٨)

(١٠٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(١٠٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(١٠٥) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩ . يؤيد ذلك ما ذكره برويه من أن القاهرة كان يقود الدفاع عنها Hugues d'Ibelin (Prawer : T. 1, p. 436)

أما أبو المحاسن فيذكر أن أسد الدين ضيع فرصة احتلال القاهرة فى الحال لانه لم يتبع الصليبيين اليها . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٩) .

(١٠٦) قدرى قلجى : صلاح الدين الايوبى ، ص ١٧٨ .

(١٠٧) اذا كانت كل المصادر العربية تقريبا تذكر ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر:

ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 291,

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ . فان (برويه أخطأ فى أنه ذكر أن عمورى وجيشه هو الذى أجبر أهل الاسكندرية على التسليم وعلى توقيع معاهدة » (L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339)

كذلك أخطأ برويه فى القول بأن شيركوه هو الذى بدأ مفاوضات الصلح (J. Prawer : Op. Cit. T. 1, p. 436)

والراجح أن طلب الصلح بدأ من الجانب الصليبي المصري وأنه جاء فى وقت كان شاوَر قد استمال فيه جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين فوافق الاخير على الصلح استنادا الى رأى ابن الاثير وأبو شامة .

108. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 436.

اتفق الجانبان - المصريون والصليبيون من ناحية وشيركوه من ناحية أخرى - على عقد صلح وأن يقدم المصريون والصليبيون لشيركوه «خمسین ألف دينار» (١٠٩) ولا يقيم الصليبيون بمصر ولا يتسلموا منها قرية واحدة وأن تعاد الاسكندرية الى المصريين (١١٠) .

كذلك عقد اتفاق داخلى بين الصليبيين والمصريين - بمعنى أصبح بين عمورى وشاور على أن يكون للصليبيين شحنة بالقاهرة ، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون للصليبيين كل سنة مائة ألف دينار (١١١) وهذا ما أورده (بريه) تحت اصطلاح «فرض الحماية الفرنجية الحقيقية على مصر» (١١٢) وأوضحه ستون فى قوله «أن شيركوه لم يكن قد حطم ولكن اللاتين كانت لهم السيادة فى مصر» (١١٣) .

عاد أسد الدين شيركوه حزينا الى دمشق فى سبتمبر ١١٦٧ م (١١٤) ذى القعدة ٥٦٢ هـ (١١٥) . أما الملك عمورى الذى وصل عسقلان فى أغسطس

= وصلت أخبار من بلاد الشام تشير الى عمليات لنور الدين قرب طرابلس وأنه هاجم مملكة بيت المقدس وهدم قلعة حنين على طريق صور فى الجليل الشمالى .

(١٠٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 291.

وفى موضع آخر يذكر أبو شامة (عن صاحب السيرة الصلاحية) : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٩ أن شاور اتفق مع أسد الدين على أن يعطيه كل ما تكلفته تلك الحملة وأن يعطى للصليبيين ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم الى بلاده وأن صلاح الدين طلب من ملك الصليبيين مراكب حمل فيها الضعفاء من أصحابه فأرسل له عدة مراكب .
(١١٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ . هنا يذكر المصدر الاخير أن المصريين تسلموا الاسكندرية فى منتصف شوال .

(١١١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٤٩ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٨ .
112. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

113. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 554.

114. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 553, Stevenson : Op. Cit., p. 191.

(١١٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ،

ج ١ ، ص ١٥١ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

- ١٠٨ -

١١٦٧ م (١١٦) / شوال ٥٦٢ هـ ، فقد رجع هو الآخر الى مملكته مضطرا نظرا لصعوبة موقف الصليبيين بالشام تحت وطأة ضربات نور الدين محمود (١١٧) الا أن الصليبيين لم يتخلوا مطلقا عن فكرة ضرورة الاستيلاء على مصر ، وهو ما سنتبته لنا الحوادث التالية •

116. Setton: Op. Cit., V. 1, p. 533, Runciman: Op. Cit., V. 2, p. 376.

(١١٧) د• سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١١ ، د• عبد الرحمن الرافعى ، د• سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨٩ •

الدور الإيجابي للمتحالف بين الصليبيين والروم

رأينا كيف احتلت مصر مكان الصدارة فى خطط الصليبيين ، وكان ذلك هو سبب تعدد السفارات المبعوثة الى أوروبا لطلب النجدة ولو أنها لم تأت بأية نتائج مثمرة . فقد كانت أوروبا لا تزال تحت تأثير الآثار السيئة للحملة الصليبية الثانية . ومن ناحية ثانية كانت المشكلات المعقدة التى نتجت عن العلاقات بين فرنسا وإنجلترا من ناحية والبابوية ودولة الروم من ناحية ثانية ، قد غطت على كل المشكلات الأخرى (١١٨) .

والحقيقة أن الملك عمورى كان فى بداية حكمه يرى فى الروم عدوا لا يقل خطورة عن المسلمين ، وعليه فقد بنى آماله على لويس السابع ملك فرنسا ، الا أنه بمرور الوقت اتضح له أنه من الواجب عليه ألا ينتظر أى نجدة من فرنسا . (١١٩) .

وهنا نود أن نؤكد ما قيل من أنه اذا كانت أحداث الفترة المبكرة لحكم عمورى الأول قد أثبتت بوضوح مدى ضعف مصر حينئذ ، فإنها أيضا تركز الضوء على طبيعة الدفاع الصليبي المحفوف بالمخاطر فى شمال بلاد الشام . وعليه فقد زاد نفوذ ومكانة امبراطور الروم مانويل كومنين فى الشمال ، وهو الذى كان ممسكا بيده توازن القوى فى الشرق ، ومن هنا كان على الصليبيين أن يعملوا على حماية استقلالهم بتأييده فى أهدافه التى كانت منصبة فى الغالب على أنطاكية (١٢٠) .

لم تلبث العلاقات بين الصليبيين والروم أن دخلت فى دور إيجابى فعال عن طريق اتمام بعض الزيجات بين الجانبين ، وعن طريق العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين .

فقد تزوج بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من حفيدة الامبراطور مانويل

118. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 428.

119. J. Prawer : Ibid., p. 438.

120. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 554.

بينما تزوج الامبراطور مانويل كومنين من ماريا أخت بوهيموند نفسه . كذلك تزوج الملك عمورى من ماريا ابنة حناكومنين ، فى كنيسة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧ م ، وذلك بعد رجوع عمورى من حملته الثالثة على مصر مباشرة (١٢١) .

وهكذا دعمت تلك الزيجات الروابط بين الصليبيين والروم وشجعت الجانبين على الدخول فى علاقات دبلوماسية تزيد من تقوية تلك الروابط ولو لفترة محدودة .

ومما لا شك فيه أن عمورى كان قد أدرك بعد احتكاكه عن قرب بمصر أكثر من مرة أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء عليها ، بل وفى المحافظة على مركزه بها ، الى جانب القدرة على مواجهة نور الدين المتكررة (١٢٢) .

لذلك فكر فى تقوية الرابطة مع امبراطورية الروم ، ولم يتوان عن الزواج من الأميرة مارى كومنين . وفى نفس الوقت لم يكن أباطرة القسطنطينية فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل ، لذلك لم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ م / ٥٦٣ هـ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك بحيث تقوم القوات الرومية الصليبية بفتح مصر على أن يكون الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته للصليبيين هو جزء من مصر ، فضلا عن أنطاكية (١٢٣) .

121. Setton : Ibid., V. 1, p. 554, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 438.
L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339, Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 362, 377.

فبعد انفصال الملك عمورى عن زوجته الاولى Agnes دى كورتناى - أم بلدوين الرابع وايزابيلا - بتدخل الكنيسة بسبب شدة القرابة بينهما ، أرسل عمورى بعثة الى القسطنطينية فعادت معها ماريا كومنين حيث قابلهم عمورى فى صور بعد عودته من مصر وهناك تم الزواج

122. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

(١٢٣) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١١ عن Schlumberger : Campagnes du roi Amoury de Jerusalem en Egypte.

وقد أورد لنا وليم الصوري نصا لتلك الرسالة التي بعث بها الامبراطور الى الملك عمورى (١٢٤) .
وسواء أكان الملك عمورى هو الذى بدأ المفاوضات من أجل مصر (١٢٥) أم أن الامبراطور نفسه هو الذى بدأها (١٢٦) فإن الملك عمورى أرسل بعثة من قبله الى القسطنطينية ، كان أحد أعضائها المؤرخ المشهور وليم الصوري ، رئيس أساقفة صور (١٢٧) .

هنا يذكر بروبيه أن المفاوضات فى ذلك الموضوع بدأت فى صور فى فترة زواج الملك عمورى من ماريا كونيون وأن مبعوثا الامبراطور فى تلك المفاوضات كانا الكسندرز الجرافيتى .
Michel d'Otranté Alexandre de Conversano
(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, pp. 438-439)
أما اديلى بايكوك Emily Babcock منجمة كتاب وليم الصوري الى الانجليزية فتشير فى إحدى الحواشى الى أنه من الطريف أن يكون مبعوثى الامبراطور مانويل من جنوب ايطاليا ، وأنه فى ذلك الوقت كان هناك العديد من الغربيين فى بلاط القسطنطينية وأن مانويل اعتمد عليهم فى الاحداث ذات الامة الكبرى .
(William of Tyre : A History of deeds done beyond the Sea, V. II, p. 347).

124. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 348.

وفحواها « أن الامبراطور قد أدرك أن مملكة مصر التى كانت حتى الوقت الحاضر أى عهد عمورى ومانويل - قوية وغنية غنى مفرطا قد وقعت فى أيدي سُلالة ضعيفة متخلفة ، وأن الشعوب المحيطة بها قد تيقنت من عجز وعدم قدرة الحاكم والامراء ، وأن الامبراطور يعتقد أنه بمساعدة الملك يستطيع أن يضع مصر بسهولة تحت سيادته » .
125. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 438, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379, Stevenson : Op. Cit., p. 193, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.
126. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 348, L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.
127. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 348, Setton : Op. Cit., V. I, p. 555.

هنا يذكر وليم نفسه « أنه أضيف للوفد كأحد أعضائه بأمر الملك » . وأنه فوض فى التوقيع على الاتفاق ، وربما دفع ذلك برييه وبروييه الى القول بأن وليم كان رئيسا لتلك البعثة (L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339, J. Prawer : T. 1, p. 439)
ولم يكن وليم هو المبعوث الوحيد للامبراطور ، كما اشارت دائرة المعارف البريطانية (The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, 1768, p. 302)

لان وليم ذكر فى مكان آخر من كتابه : انه انضم للمبعوثين الامبراطوريين الذين انظروا قدمه فى طرابلس

هنا يروى لنا وليم الصوري أن الامبراطور استقبل مبعوثي الملك عموري « استقبالا مشرفا ، وعاملهم برقة امبراطورية » عندئذ أوضحوا الهدف من رحلتهم وسفارتهم ، كما شرحوا له بعناية فائقة فحوى المعاهدة ، فاستمع الامبراطور للتقرير الكامل بسرور زائد ، وبلباقة وأدب جم وافق عليها ، بل أقر كل ما اتفق عليه . وبعد أن حلف الجانبان قسما مقدسا كل منهما للآخر ، أقر الامبراطور بمآله من سلطة التفاصيل التي كانت قد وضعت بواسطة المبعوثين ، وصدق على المعاهدة ، وبذلك نجحت تلك السفارة ، وبدأ وليم ورفاقه رحلة العودة الى بيت المقدس وذلك « فى اليوم الأول من أكتوبر »

١٩٦٨ م (١٣٠) .

هنا يذكر وليم « أن بلاد الصرب هي البلاد الجبلية الواقعة بين دلماشية وهنغاريا وإلبيريا . وهي متشابكة الغابات ، صعبة الاجتياز . ولذلك فاعتمادا على الطبيعة الجغرافية الصعبة لإبلادهم والممرات الضيقة داخلها ، ثار الصرب ، وكانوا يستمدون أصولهم من. المنفى أى لم يكونوا من سكان البلاد الاصليين ، وأنهم اقتيدوا الى تلك البلاد للعمل فيها كإرقاء فى المناجم ، وفى قطع أحجار الرخام ، وأنهم استمدوا اسمهم من حالة العبودية تلك . خضع الصرب للإمبراطور فى بعض الاحيان ، وفى أحيان أخرى - باعتبارهم شعوبا كانت فى الاصل شجاعة محبة للحرب - كانوا ينطلقون من جبالهم ويشيعون الخراب والدمار فى كل ما حولهم من أقاليم . ولقد اتجه الامبراطور ضدهم بجيش كبير ، بسبب الاعتداءات التى لا تحتمل التى ارتكبوها ضد جيرانهم »

ويضيف ولیم هنا أن ذلك المكان كان قريباً من المدينة القديمة التي كانت تعرف في الماضي باسم Justiniana Prima التي كانت الموطن الأصلي للإمبراطور جستنيان ... والتي كانت تعرف آنذاك باسم Ochrida أو Acreda أما برويه ورتسيمان فيذكران أن البعثة التقت بالإمبراطور في البلقان في مدينة Monastir (J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 439, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379).

يذكر لنا وليم هنا أنهم زودوا بخطابات امبراطورية تحوى النص الكامل للمعاهدة

وإذا كان وليم الصوري لم يذكر لنا تفاصيل المعاهدة التي تم الاتفاق عليها فإن برييه قد ذكر لنا باختصار أنها نصت على « اقتسام مصر » (١٣١) ومهما يكن من أمر فإنه قيل أن تعود البعثة الملكية من عند امبراطور الروم الى بيت المقدس ، كان الملك عمورى قد خرج فى حملته الرابعة على مصر. والتي بدأت آخر أكتوبر ١١٦٨ م / ٥٦٤ هـ (١٣٢) .

فما مغزى ذلك التحرك المفاجيء لعمورى ؟ وما سر انفراده بتلك الحملة . على مصر وهو الذى كان حريصا على وقوف امبراطور الروم الى جواره فيها ، وخير دليل على ذلك تلك البعثة التى أرسلها والتي كان يعلم مسبقا مصيرها ؛ وانها كانت ستأتى بموافقة الامبراطور على المشاركة فى الاستيلاء على مصر .

هنا تضاربت الأقوال وكثرت الآراء للرد على هذا التساؤل فبرييه ذكر لنا رأيين أولهما يستند الى بنود الاتفاق الذى لم يتوافر لدينا نصه ، وهو أن عمورى ، كان ينوى أولا مهاجمة مصر ، ثم يحضر الامبراطور لتأييده . بينما ذكر رأى آخر - وهو فى رأيه أكثر الافتراضات قربا من الحقيقة - أن عمورى رغب فى أن يختبر قواته كى لا يضطر الى تقسيم ثمره انتصاره مع الامبراطور (١٣٣) . وبمعنى آخر عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه الروم فى اقتسام مصر ولو أن ذلك كان رأى « العناصر المحبة للحرب والشرهه من بارونات المملكة » والتي كانت تضغط بشدة على الملك (١٣٤) .

أما وليم الصوري فقد أوضح لنا أن الملك تحرك بسرعة الى مصر «مثارا بواسطة السخط الذى فجرتة الاشاعات التى انتشرت فى مملكة بيت المقدس.

فى صيغتها النهائية ، وأنهم انصرفوا محملين بالهدايا القيمة وفقا للعادة المتبعة آنذاك

131. L. Bréhier : Vie et Mort, p. 339.

132. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 349-350, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 439, The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, 1768, p. 302.

133. J. Prawer : Ibid., T. 1, p. 439.

134. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.

من أن شاور كان يرسل باستمرار السفراء الى نور الدين مناشدا اياه سرا
المساعدة ، وأنه ادعى أنه ضد ارادته تماما ، أنه ارتبط بأى معاهدة من
معاهدات السلم مع أى عدو ، كما أنه رغب فى الانسحاب من الاتفاق الذى
عقده مع الملك وأنه اذا استطاع الاعتماد على مساعدة نور الدين فانه سوف
يخرق المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما » (١٣٥) .

والحقيقة أن ذلك الرأى وأمثاله كان من آراء الاسبتارية (١٣٦) التى
كان رئيسها المحرك الأول للملك (١٣٧) . وأيدهم فى رأيهم هذا وليم

135. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 350.

وقد أخطأ وليم الصورى هنا فى تسمية شاور بسلطان مصر .
(١٣٦) ثمة رأى يقول أن جذور هيئة الاسبتارية ترجع الى ما قبل قيام الحروب
الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفى سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية فى بيمارستان
قرب كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم
فرسان المستشفى Hospitallers التى حرفت بالعربية الى اسبتارية . ولم يلبث
أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوروبا ،
وصاروا يتبعون البابا فى روما تبعية مباشرة . وعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس
وحصارهم لها ، قام أولئك الاسبتارية - بحكم درايتهم بأحوال البلاد - بتقديم مساعدات
قيمة للصليبيين . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت
مستقل ونظام خاص بها . وقد تعاقب فى رئاسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين
عملوا دائما على اكساب منظماتهم أهمية خاصة فى النشاط الصليبي . وساعد الاسبتارية
على ذلك حصولهم على كثير من الاراضى والاعانات ، فضلا عن أن كثيرا من كنائس بيت
المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برسالتهم . وهكذا
لَمْ تحل سنة ١١٣٧ الا وكان للاسبتارية دور فعال فى محاربة المسلمين . (د . سعيد
عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥١) .

137. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 350, L. Bréhier : Vie et Mort,
p. 339.

ويعقب برييه على تصرف عمورى هذا بأنه كان « غلطة كبيرة » ارتكبها وأدت الى
تحول مصر الى سيادة نور الدين وممثله الحقيقى صلاح الدين . أما وليم الصورى فيذكر
أن Gerbert وكنيته Assallit سيد بيت الاسبتارية فى بيت المقدس . « كان المحرك
الاول لتلك الحملة السيئة المصير . وأنه كان رجلا ذو روح عالية ، شديد الكرم لكنه
متروك متذبذب فى أخلاقه . فبعد استنفاد كل ثروات الاسبتارية اقترض مبلغا كبيرا من
المال وأنفق كله على فرسانه الذين حشدوا له من كل مكان ، وبذلك أصبح فرسانه
مكبلين بدين ثقل ، يبلغ حوالى مائة ألف دينار . وقد قيل أنه أنفق تلك المبالغ الهائلة
على الاتفاق الذى عقد بينه وبين الملك على أساس أنه اذا استولى الملك على مصر يكون
فصيب رئيس الاسبتارية هو مدينة بلبس .

الرابع دوق نيفر الذى قدم الى فلسطين فى نهاية صيف ١١٦٨ م وكان بصحبته عددا كبيرا من الفرسان (١٣٨) * بينما وقف فرسان الداوية (١٣٩) موقفا معارضا بسبب تناقض الحملة مع ما يمليه عليه الضمير ، أو لأن سيد المجموعة الاسبتارية كان هو المحرك الأول لها - كما سبق الذكر - لذلك رفضوا أن يمدوا الملك بالقوات لأن اعلان الحرب ضد أى قوة صديقة ، يعتبر خطأ مخالفا لمغزى المعاهدة ودون أى اعتبار للحق والعدالة ، وباعتبار أن مصر حافظت على حسن نواياها ، فأنها لا تستحق تلك المعاملة (١٤٠) * وهنا نود أن نشير الى أن الخرق المتكرر للمعاهدات هو الذى دفع نورمان دانييل الى القول بأن « المبادئ الخلقية للقانون الدولى لم تكن واضحة فى القرن الأول للمملكة اللاتينية » (١٤١) *

والواقع أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع بهذه الحملة نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين (١٤٢) *

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التى تحولت الى حماية بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية ، فوجود مندوب أو

138. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 379.

(١٣٩) يرجع تأسيس هيئة الداوية الى ١١١٨ م عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هيودى باينز ، وقد اختار هيو جزءا من هيكل سليمان فى المسجد الاقصى ببית المقدس ليكون مقرا لمنظمته الجديدة * ومن ثم أطلق على أتباعها اسم فرسان المعبد Templars التى حرقت فى العربية الى الداوية * ثم ذهب هيو الى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته وبالفعل أصبحت تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا فى الاراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية * (د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٠١ - ٥٠٢) *

140. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 350-351.

هنا يعزى رنسيمان رفض الداوية هذا الى أنهم كانوا يحسدون الاسبتارية لانهم شرطوا على عمورى أن يعطيهم مدينة بلبيس مكافأة لهم على مساعدته فى ذلك المشروع * وهى فى الحقيقة كانت فى مقابل قلعة غزة التى كانت بيد الداوية فعلا * (Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 380)

141. Norman Daniel : The Arabes and Mediaeval Europe, p. 197.

(١٤٢) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١٢ ،

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٥ عن (Chalendon : Les Commens II).

شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبي في القاهرة يشاركه في شئون الحكم ،
وجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة كل ذلك أزعج الفكر الاسلامي
خصوصا وأن أولئك الصليبيين أساءوا معاملة أهل البلاد (١٤٣) « غنان
المسلمون منهم أذى شديد ، وجور عظيم وقهر زائد » (١٤٤) .

ولقد كان ذلك الاستياء أمرا طبيعيا وكان لابد من حدوث انفجار نتيجة
للسيادة الفرنجية المباشرة « فلا يمكن لأى مسلم أن يقبل بدون مجادلة
أن تصبح بلاد النيل تحت السيادة المسيحية (١٤٥) » .

هذا بالإضافة الى أن الضريبة السنوية التي فرضها عمورى على
شاور - وهى مائة ألف دينار - أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية في
الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . وهكذا لم يجد شاور مغرا
أمام ضغط الرأى العام وشعوره بالاستياء من أن يقلب سياسته رأسا على
عقب ، لذلك اتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته فى التخلص من الحماية
الصليبية (١٤٦) .

والراجح أن شاور قد تناقش فى ذلك الموضوع مع ابنه الكامل شجاع
الذى كان باستمرار دائم النصيح لوالده بالابتعاد عن الصليبيين وعمل كمن
ما يهم المصلحة الاسلامية ، وانتهى الأمر باتفاق الوالد وابنه على سياسة
جديدة يتم الاتفاق عليها مع نور الدين . والدليل على ذلك أن الكامل شجاع بن
شاور راسل نور الدين « ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال
وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل
سنة » قوافق نور الدين (١٤٧) .

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن حملة عمورى تلك نود أن نورد هنا
رأيا غريبا لميخائيل السريانى جعله السبب الأساسى لتحرك ملك بيت المقدس

(١٤٣) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١٢ .

(١٤٤) ابن الاثير الباهر ، ص ١٣٧ .

145. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 429.

(١٤٦) د. عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١٢ ، د. عبد الرحمن

الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٠ ولأن ستيفنسون
يرى هنا أن عمورى كان غير راضيا عن الضريبة السنوية التي يافعها « سلطان
مصر ، وأنه كان يطمع فى امتلاك مصر كلية » (Stevenson ، Op. Cit., p. 193)

(١٤٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٣

الى مصر تلك المرة . حيث يقول ما ملخصه : « ان المسلمين فى مصر كانوا منقسمين الى حزيين أحدهما الشيعة والثانى السنة ، أيد الشيعة نور الدين ، وأيد السنة الصليبيين . وقد أرسل نور الدين مبعوثين للحزب السننى لكى يحثوهم على الانفصال عن الصليبيين ، وأن يرفضوا اعطائهم الضريبة السنوية وأن يعملوا كل ما فى وسعهم على تدعيم دينهم ، فوافقوا على ذلك الاقتراح ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الأتراك . ثم حصنوا بلبيس وامتنعوا عن دفع الضريبة المألوفة للصليبيين عندئذ أسرع ملك بيده المقدس بأخذ بلبيس » (١٤٨) .

ويكفى للتدليل على عدم صحة ذلك الرأى من القول بأن (الشيعة هم الذين أيدوا نور الدين) لأن نور الدين كان سننيا وبالتالى كان من الأحرى أن يؤيده السنة لا الشيعة .

أما عن المثير الأول لفكرة حملة عمورى الرابعة على مصر فهو الحزب الصليبي الذى كان موجودا فى مصر آنذاك - وفقا للاتفاق السابق بين الصليبيين وبين شاور - فقد راسلوا الملك عمورى وأخبروه بسهولة الاستيلاء على البلاد فقد « أعلموه خلوها من ممانع » (١٤٩) وأنه « ليس بها راد ولا عن أخذها صان » (١٥٠) .

عندئذ انقسم الصليبيون فى مملكة بيت المقدس الى قسمين - وفقا لما دونه وليم الصورى - فريق حرض الملك وحثه بالحاح على ضرورة القيام بتلك الحملة وعلى رأس هؤلاء الاستبارية ومقدمهم - كما سبق الذكر - وفريق عارض بشدة ذلك المشروع وحذر الملك من مغبة عواقبه وعلى رأسهم الداوية (١٥١) .

ولكن ما سر ذلك الانقسام فى الرأى الصليبي تلك المرة ؟ ولماذا لم نرى منهم ذلك الموقف من قبل فى حملات عمورى السابقة ؟

148. Michel Le Syrien : Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1, p. 363.

(١٤٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ،

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293,

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، مجلد ٤ ج ١ ص ٢٠

(١٥٠) ابن واصل : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

151. William : Op. Cit., V. II, pp. 350-351.

هنا يعطينا بروييه ردا موجزا وكافيا فى نفس الوقت عندما يقول « أن الصليبيين تحركوا فى تلك المرة الى مصر ، لا لتأثرهم بحزب من الأحزاب المصرية ، بل لانبعاث فكرة جديدة من داخلهم هى السيطرة على مصر لا حمايتها » (١٥٢) . ولو أن المصادر العربية تشير الى وجود بعض المؤيدين للفكرة داخل مصر ممثلين فى بعض أعداء شاور (١٥٣) . ولكن هناك فارق كبير بين أن يكونوا مشايعين فقط للفكرة ، وأن يكونوا هم أصحابها الأصليين .

والحقيقة أن الملك عمورى تردد بعض الشيء فى توجيه حملته تلك ، وعندما ألح عليه الحزب المتطرف المؤيد للحرب (١٥٤) رد عليهم بأنه لا يريد أن يتوجه اليها لأن أموالها تساق اليهم فيتقوا بها على نور الدين ، أما اذا صمموا على قصدها « فان صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيتها لا يسلمونها لنا ويقاثلونها دونها » (١٥٥) . أو يسلمونها الى نور الدين . وفى ذلك هلاك الصليبيين (١٥٦) . فأكدوا رغبتهم فى التوجه اليها وأنه

152. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 437.

(١٥٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ، ج ١ ص ٢٠ ، هنا ينقل لنا البندارى تعبير العماد فى البرق الشامى فى هذا المعنى بقوله « شايهم على قصدهم من اعيان مصر جماعة ما كانت للمصريين عليهم طاعة وشاوروا الفرنج على شاور لانهم أعداؤه وأغداهم دأوه . وهم ابن الخياط وابن قرجه وأمثالهم » .

154. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 437.

(١٥٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢٧ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ .

هنا يعقب أستاذنا الدكتور سعيد عاشور على ذلك القول بأنه « مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحيتها فى الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها (د . سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١٣) .

(١٥٦) يذكر ابن العبري أن ذلك فيه هلاك الصليبيين لانهم سيحصرون بين هؤلاء الموجودين فى داخل مصر وبين قوات نور الدين فى الخارج ، وبذلك لا يستطيعوا الاستيلاء على مصر .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293.

• بإمكانهم أخذها قبل أن يصل الخبر إلى نور الدين . فما كان منه إلا أن وافق « على كره شديد » وتجهز للسفر (١٥٧) .

وعليه فلا عبرة هنا بما ذكره ابن أيبك وابن الفرات من أن الملك عموري توجه بتلك الحملة إلى مصر بدافع شخصي بحث ، والراجح أن ابن الفرات نقل رأيه هذا عن ابن أيبك (١٥٨) .

والحقيقة أن الصليبيين جاءوا إلى مصر تلك المرة « ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد » (١٥٩) .

وكل ما يهمنا هو أن الملك عموري تحرك من عسقلان في منتصف محرم ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ووصل بجيشه إلى بلبيس أول يوم من صفر ٥٦٤ هـ / (١٦٠) أوائل نوفمبر ١١٦٨ م (١٦١) فقتل الصليبيون الكثير من أهالي

(١٥٧) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ .

(١٥٨) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ الدر المطلوب ٠٠ ص ٢٩ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ .

(١٥٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ .

وربما يظهر لنا ذلك الطمع في أرض مصر بصورة أوضح إذا رجعنا إلى ما دونته المصادر الإسلامية من أن الملك عموري أحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لفرسانه وفتح قراها على جنوده . وهنا يذكر أبو شامة أن عموري كان قد عرف أسماء القرى المصرية كلها عن طريق بعض أصحابه الذين صحبوه إلى مصر . (أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٦٩ ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ج ١ ، ص ١٩) .

(١٦٠) البنداري : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ .

161. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 351, Stevenson : Op. Cit., p. 193.

ولقد ذكرنا من قبل وفقاً لرواية ولیم الصوري نفسه أنه كان قد بدأ هو ورفاقه رحلة العودة إلى بيت المقدس أول أكتوبر ١١٦٨ م أي أنه لم يكن موجوداً بالملكة عند خروج الملك بتلك الحملة (William : Ibid, V. II, p. 349) .

بلييس وأسروا عددا آخر ، كما تعرضت المدينة نفسها للسلب والنهب (١٦٢) -
وذلك لمدة خمسة أيام (١٦٣) أو ثلاثة (١٦٤) .

وقد أوضحت لنا المصادر السريانية واللاتينية الى جانب المراجع
الأجنبية الحديثة مدى التدمير الذى حصل بأهالى بلييس آنذاك . فقد ذكر
ميخائيل السريانى أن الملك « وجد بالمدينة اثنا عشر ألف فارسا ومائتى ألف
من المشاة فوضع فيهم حد السيف » (١٦٥) . أما وليم الصورى فيقول
« أعمل فيهم السيف دون مراعاة لسن أو جنس » (١٦٦) . فى حين ذكر
رنسيما أن تلى دخول الصليبيين بلييس مذبحه مروعة للاهالى (١٦٧) .

وبعد أن قضى عمورى عدة أيام فى بلييس لاعادة تنظيم قواته (١٦٨).

(١٦٢) ابن الانير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ،
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 293,

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .
(١٦٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين .

ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن راصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .
164. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 351, Runciman : Op.
Cit., V. 2, p. 381.

165. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1,
p. 363.

166. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 351.

هنا يضيف وليم الصورى نفسه أن الذين قتلوا

كانوا الشباب القادرين على حمل السلاح . أما من استطاع الفرار من الموت بأى
وسيلة فقد حرّيته ووقع تحت نير العبودية . . . وهو شئ أشد قسوة على النفس .
خصوصا اذا كان الشخص من أصحاب المرتبة العالية، ومن أمثلة ذلك ابن شاور وحفيده،
والواقع أن شهادة وليم الصورى هذه تدلنا دلالة واضحة على مدى الجور الذى تعرض
له أهل بلييس آنذاك . ويقال أن أسرى بلييس ظلوا « أكثر من أربعين سنة فى أسر
الفرنج » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات . تاريخه ،
م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٣) .

167. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 381.

ويقال أن عدد كبير من الضحايا « كانوا من المسيحيين الهلثيين »

Setton : Op. Cit., V. 1, p. 555.

168. Runciman : Ibid, V. 2, p. 381.

- ١٢١ -

تقدم الصليبيون الى القاهرة فوصلوها فى العاشرة من صفر ٥٦٤ (١٦٩) ، وعسكروا قرب بركة الجيش قرب القسطنطينية (١٧٠) ، وبدأوا يستعدون لمحصرة القاهرة فخاف أهلها أن يتعرضوا لنفس المصير الذى تعرض له أهل بلبيس « فحفظوا البلد وقتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه » والحقيقة أنه ربما سلمت القاهرة للصليبيين إذ لم تكن بلبيس قد تعرضت للمصير السابق المذكور « ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضى أمرا كان مفعولا » (١٧١) .

بل أن شاور نفسه أمر بإشعال النار فى مدينة مصر (أى القسطنطينية) فى تاسع صفر ٥٦٤ هـ / ١٢ نوفمبر ١١٦٨ م وذلك قبل نزول الصليبيين عليها بيوم واحد (١٧٢) « بعد أن أمر أهلها بالانتقال الى القاهرة وأن ينهب البلد فانطلقوا ، وبقوا على الطرق ، وذهبت مصر واقتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمهم » (١٧٣) ويقال أن النار ظلت مشتعلة فى القسطنطينية حوالى أربعة وخمسين يوما (١٧٤) . والراجع أن شاور لجأ الى هذا الأسلوب المدمر

(١٦٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٧ .

170. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 440.

استقروا بجوار باب خطة البرقية فى شرق القاهرة .

(١٧١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(١٧٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠ - ١٧١ ، Michel Le Syrien : (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, p. 363.

هنا يضيف أبو شامة عن صاحب كتاب السيرة الصلاحية ، ص ١٧١ من الروضتين أن شاور أرسل الى عمورى رسولا بعد اشعال النار فى مصر مباشرة وقال له « هذا بخان مصر وما أتيت الا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نطف وقرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفقه » .

(١٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٧ .

هنا يذكر أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥٠ أن شاور أخرج « من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء فى حقهم قبل ذلك ، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون » ثم أمر بعد ذلك بانتقال أهل مصر الى القاهرة .

(١٧٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ،

ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤ ، ويذكر المصدر الاخير أن أجرة الجمل الى القاهرة بلغ ثلاثين دينارا .

بعد أن أعيته الحيلة فى رد عمورى عن مصر بطريقة هادئة (١٧٥) .
أما الخليفة العاضد فقد أفزعتة تلك الأخبار فأرسل يستنجد بنسور
الدين ويعرفه « ضعف المسلمين عن الفرنج » وبعث مع الرسائل بعض من
شعور نسائه لى يزيد من حثه على التقدم لنجدته « هذه شعور نسائي من
قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » (١٧٦) وذلك لما لحق نساء مصر
فى ذلك الوقت من « أحوال تقشعر لسماعها الأبدان » (١٧٧) على أيدي
الصليبيين . وما أن وصلت تلك الأخبار الى نور الدين حتى « قام وقعد »
وشرع فى الحال فى تجهيز قواته الى مصر (١٧٨) .

وبوصول الأمر الى هذا الحد كان على شاور أن يتحرك بسرعة حتى
لا تضيق منه البلاد فقد « اشتد الأمر وعظم الخطب » وضاق الحصار وخيف
البوار وعلم شاور عجزه وضعفه وأن البلاد ذاهبة لا محالة فسلط طريق
التمحل « (١٧٩) أى أنه بدا يطرق طريق الحيلة والخداع . فأرسل الى الملك

(١٧٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ابن الفرات : تاريخه م ٤ ، ج ١ ،
ص ٢١ وهنا يضيف المصدران أنه عندما وصل عمورى الى الداروم كان شاور قد أرسل
اليه يسأله عن سبب قدومه تلك المرة ، فرد عليه بقوله « أنه قدم وفقا لما تقرر بينهما
وأنه جاء لأخذ ما قرره له كل عام » فأجابه شاور أن الذى قرره جعله متى احتاج
اليه أو اذا قدم عليه عدو « وأما مع خلو بالى من الاعداء فلا حاجة لى اليك ولا لك
عندى مقرر » فأجابه عمورى بأن لابد من حضوره وأخذ المقرر . عندئذ تيقن شاور من
غدر عمورى .

(١٧٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ .
هنا يذكر ابن العبرى خطأ أن الذى أرسل شعور نسائه هو « أسد Asad » خليفة
مصر . والراجح أنه خلط بين اسم العاضد وبين أسد الدين شيركوه .
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 283.

(١٧٧) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٠٠٠ ، ص ٣٠ . فهو يفصل ذلك هنا بقوله :
« انتشر الملاعين فى سائر الاعمال ، وعادوا يأخذون حريم أهل مصر وينزلون فى
الزوارق ما بين مصر والجزيرة ويشربون عليهم الخمر ويفسقون فيهم ٠٠٠ »
(١٧٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

هنا يذكر ابن العبرى أنه استغرق شهرين فى تجهيزها .
The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 283.

(١٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

عمورى « يذكر له مودته ومحبته القديمة » وأنه معه قلبا وقالبا لولا خوفه فقط من العاصد ونور الدين وطلب منه الصلح على أن يأخذ « ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض » فأجابه الى ذلك (١٨٠) .

ووفقا لرأى وليم الصورى فان الملك عمورى كان قد طلب مليونين من الدينارات من شاور فى مقابل عقد ذلك الصلح لكى تعوضه عن الخسائر التى لحقت بمملكته من جراء حروبه مع شاور وجعل ذلك شرطا لاطلاق سراح ابن شاور وحفيده وبقيّة من معه من أصحاب المنزلة العالية فى مصر من أسرى (١٨١) .

أما المصادر العربية فلم تحدد مقدار المال الذى طلبه عمورى آنذاك بل ذكر بعضها أن شاور طلب من عمورى أن يمهله بعض الوقت كى يجمع له بعض المال وأطمعه فى « ألف ألف دينار معجلة ومنجمه » وقال له « ترحل عنا وتوسع الخناق وتظهر الارفاق » (١٨٢) . بينما أشار مصدر آخر أن شاور طلب من عمورى الرحيل وأن يأخذ فى مقابل ذلك ما يريده من المال كى لا تقع البلاد فى يد نور الدين ، لأنه لو حدث ذلك فلن يأخذ مصر ولن يأخذ أى مال (١٨٣) .

هنا انقسم الصليبيون الى فريقين أمام ذلك العرض ، فالبعض ومعهم الملك حبذ فكرة العودة وأخذ المال ليتقوا به ويعودوا مرة أخرى بعد ذلك - خصوصا وأن بعض الأخبار وصلتهم بتحريك قوات نور الدين اليهم . والفريق الثانى رأى ضرورة الاستيلاء على القاهرة (١٨٤) .

والحقيقة أن أخبار حملة عمورى تلك على مصر لم تصل أخبارها الى

(١٨٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ ، البندارى : سنا البرق الشامى ق ١ ، ص ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٥٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥ .
181. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 352.

(١٨٢) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٤ .
183. The Chronography of Bar Hebraeus V. 1, p. 294.
184. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 353, J. Prawer : Op. Cit., T. 1 pp. 440-441.

نور الدين عن طريق الخليفة العاضد فقط بل عن طريق شاور نفسه أيضا الذى بدأ يلعب على الترتين فى وقت واحد • ففى نفس الوقت الذى بدأ يقاوض الصليبيين فى الصلح • أرسل أيضا الى نور الدين يستنجد به • فقد أرسل كتبه الى نور الدين « مستصرخا ومستنفرا وبما نال الاسلام من الكفر مخبرا ، وسير الكتب مسودة بمدادها ، كاسية لباس حدادها » ومعها أيضا بعض شعور أهل القصر « للاشعار بما عراهم من بلية الحصر » (١٨٥) •

أما الخليفة العاضد فبمجرد أن علم بأخبار المفاوضات التى دارت بين شاور والصليبيين وأنها انتهت باتفاقهم على أن يعطيهم شاور مائة ألف دينار وأن يرحلوا عن البلد حتى يتمكن من جمع المال ، حتى أعاد مراسلة نور الدين وأعلمه بما لقي المسلمين من الصليبيين ، وأغراه بعهدة وعود منها أن يكون له ثلث مصر واعطاء أراضى أخرى لأسد الدين شيركوه يقيم فيها هو وجنوده وأن يكون اقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين (١٨٦) •

والراجح أن أخبار عمورى وحملته على مصر وصلت بسرعة الى أسد الدين شيركوه قبل وصولها الى نور الدين (١٨٧) ، لذلك سار من حمص الى حلب فى « ليلة واحدة » وطلب من نور الدين التوجه بنفسه اليهم لأنه وحده القادر على ردهم عن مصر ، فما كان من نور الدين الا أن وضع كل خزائنه تحت تصرف أسد الدين لكى يأخذ منها ما يشاء لاعداد جيش قوى يتوجه به الى مصر « ان خزائنى لك فخذ منها ما تريد » وبالفعل تم ذلك فى وقت قصير وخرجت القوات النورية متوجهة الى مصر فى منتصف شهر ربيع الأول ٥٦٤ هـ (١٨٨) بقيادة أسد الدين شيركوه الذى توجه الى مصر

(١٨٥) البندارى : سنا البرق الشام ، ق ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ •

(١٨٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ،

ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٨ ،

J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

(١٨٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ،

ج ١ ، ص ١٥٨ •

(١٨٨) البندارى : سنا البرق الشامى ٠٠٠ ق ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، أبو شامة :

الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ • وهنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين عندما وصلته كتب

« بسيفه وملكه وماله وأهله ورجاله » (١٨٩) . وصحبه عدد من الأمراء والمماليك - من صفوة الجيش وصلاح الدين ابن أخيه على كره منه (١٩٠) .

أما عن الصليبيين وحملتهم فقد رأينا أنهم توقفوا أمام القاهرة ، وكان شاوور قد أشعل النار في الفسطاط ، وكان ما كان من أمر المحادثات بين شاوور والصليبيين .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه عمورى قد غادر مملكته ، كان قد أعطى

=

المصريين بخبر الصليبيين « بقى مسلوب القرار مغلوب الاضطبار لانه كان قد طمع فى بلاد مصر فخاف خروجها من يده وأن يستولى عليها الكفر فساق فى ليلة واحدة من حمص الى حلب » عندئذ تعجب نور الدين الذى كانت الاخبار قد وصلتته منذ وقت قليل ، وفى نفس الوقت تفاعل بها وشكر أسد الدين وأمره بالتجهز لحرب الصليبيين . أما ابن واصل فيذكر أنه عندما خرج رسول نور الدين من حلب الى حمص كى يطلب من أسد الدين التجهز للحرب كان أسد الدين نفسه قد وصل الى حلب (ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٨)

(١٨٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ . وهنا يشير ابن شداد أن نور الدين لم يخرج بنفسه اليها لانه كان مشغولا بالموصل التى توفى حاكمها زين الدين على بكتكين فى ذى الحجة ٥٦٣ هـ وسلم ما كان بيده من الحصون الى قطب الدين أتابك ما عدا اربل التى كانت له من أتابك زنكى ، لذلك طمع نور الدين فى أخذها . أما عن عدد القوات التى صحبت شيركوه فى حملته تلك فكان عددها يقدر بـ ٨٠٠٠ فارس (J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441) فصلها لنا ابن واصل فى كتابه : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٥٨ بأن أسد الدين اختار من قوات نور الدين ألفى فارس وجمع من التركمان ستة آلاف فارس . أما الياقعى : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٧ فالراجح أنهما أخطأ عندما ذكرا أن عدد القوات كان سبعين ألفا ما بين فارس وراجل . أما الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٧ فقد انفرد بالقول بأن عدد القوات كان عشرة آلاف فارس وخمسين ألف راجل . (١٩٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ ، أبو شامة : الأروستين ، ج ١ ، ص ١٥٥ ،

Gibb : Op. Cit., p. 5, L. Bréhier : Vie et Mort... p. 339.

هنا يذكر أبو شامة أن أسد الدين طلب من ابن أخيه صلاح الدين المسير معه الى مصر فكان كمن ضرب قلبه بسكين . فقال له والله لو أعطيتنى ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، عندئذ طلب أسد الدين من نور الدين أن يأمره بمصاحبة عمه ففعل فكان صلاح الدين كمن يساق الى الموت .

أوامر لأسطول صليبي أن يتحرك الى شواطئ مصر ليهاجمها من جهة البحر، وبالفعل وصل الأسطول ودخل فرع النيل الذى تقع عليه مدينة تنيس ، واستولى عليها وأخذت قراته فى نهب وسلب المدينة ، ثم بدأت قسوات الأسطول الصليبي تحاول اللحاق بالملك مستخدمة فرع النيل فى تحركها ، فوقف المصريون وقفة جريئة وسدوا النيل بواسطة مراكبهم ومنعوا الصليبيين من المرور . فى الوقت الذى أصدر عمورى أوامره الى Humphrey of Toron - المسئول عن الأمن فى قصره - بأن يستولى على الشاطئ المواجه بواسطة بعض الفرسان ، ولكن ما أن بدأ همفرى فى تنفيذ الأوامر حتى وصلت أخبار تفيد باقتراب شيركوه ، عندئذ كان لابد من تغيير الخط فصدرت الأوامر للأسطول بالعودة الى البحر ثم الى المملكة (١٩١) .

ويقال أن شاور ورجاله بذلوا كل ما فى وسعهم كى ينسحب الملك آنذاك من الأراضى المصرية ، وأنه دفع لعمورى مائة ألف دينار مقابل انسحابه ، واستعاد شاور ابنه وحفيده اللذان كانا رهينة عند عمورى . عندئذ تقدم الملك حتى وصل الى سرياقوس . ولم يلبث شاور بعد ذلك أن أخذ يلهب

-
191. William of Tyre : Op. Cit. V. II, p. 354, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 381, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 556.

د . سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ص ٢١٥ عن Schlumberger
وهنا يذكر رنسيمان أن الجيش الصليبي كان يعسكر فى ذلك الوقت فى المطرية وأنه مكث هناك ثمانية أيام ثم وصلت أخبار جيش شيركوه
(Runciman : V. 2, p. 382)

أما وليم الصورى فيفصل لنا الحديث عن جانب من تصرفات بعض أمراء الصليبيين الشاذة ويخص بالذكر Milon de plancy الذى كان يمثل الرجل الذى لا حياء عنده ، الرجل الذى يهوى المنازعات وتشويه سمعة الغير ، والذى كان دائما وأبدا نشطا فى إثارة المشاكل . فقد نصح الملك بالاحتياط على « المملكة المصرية » وأن يأخذ المسال المتفق عليه منها ، ثم يعمل بعد ذلك على الدخول فى اتفاق جديد مع شاور والخليفة بدلا من مهاجمة القاهرة . وكان رأيه يركز على أنه اذا أخذت القاهرة بالقوة فسوف يستولى كل فرد من الجيش الصليبي على ما يقع تحت يده من غنيمة ، أما اذا دخلها الملك وفقا لاتفاق معين فسوف يضع الملك يده على كل شيء ، عندئذ يوزعه على كبار رجال مملكته ومنها بالطبع ملون البيلنسى نفسه .

(William : Ibid, V. II, p. 355)

حماس المصريين للدفاع عن بلدهم فسدوا كل الثغرات وأعدوا كافة وسائل الدفاع بعد أن جمع القوات من كافة أرجاء مصر وزود القاهرة بالموءن الكافية (١٩٢) .

والواقع أن شاور أخذ يماطل ويسوف مع الصليبيين فى اعطائهم المال المتبقى بحجة أنه مشغول بجمعه حتى أصبح جيش شيركوه على مقربة منه (١٩٣) . وكان وصول جيش أسد الدين الى مصر فى ربيع الأول ٥٦٤ هـ. (١٩٤) .

وهكذا جاء شيركوه بحملته الجديدة الى مصر « كمحرر ومنقذ لا كعدو » (١٩٥) ، فقد جاء شيركوه لينقذ مصر كلها خايفة وشعبا بعد استنجادهم بنور الدين .

وثمة رأى لابن العبرى هنا يجعل هدف نور الدين من وراء ارسال تلك الحملة هو « الوصول الى حكم مصر ، دون أن يكون دافعه تقديم المساعدة للمصريين » (١٩٦) .

والراجح أن نور الدين رمى الى الوصول للهدفين معا ، تحرير مصر من الصليبيين المتربصين بها والذين ألحقوا بها الأذى ، ثم ضمها الى حوزته حتى تدخل تحت ظل المذهب السننى الذى يعضده ، ولما فيه أيضا من تأمين لبلاد الشام . وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بعد فتح مصر على يد شيركوه تلك المرة بقوله « أنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسنائر بلاد الشام وغيرها » (١٩٧) .

192. William of Tyre : Ibid, V. II, p. 354.

هنا يذكر ولیم « أن شاور ذكرهم بما حدث للمدينة المجاورة من كارثة مروعة - وهو يقصد بذلك ما حدث فى بلبس - وذكرهم أيضا بمראה العبودية حتى يقفوا معه قلبا وقالبا .

193. William : Ibid, V. II, p. 356.

(١٩٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ .

195. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

196. The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 294.

(١٩٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

والحقيقة أنه بمجر وصول أخبار اقتراب جيش شيركوه من مصر خشي الملك عمورى أن يصبح محصورا بين نارين (١٩٨) . فأعطى أوامره للجيش الصليبي بالعودة الى بلاد الشام وبدأ تحركه بالفعل فى ٢ يناير ١١٦٩ م .

وإذا كانت تلك الحملة ذات سمات مميزة عما سبقها من حملات للملك عمورى على مصر ، باعتبارها تحركت بأهداف تخص الصليبيين وحدهم دون استنجاد من داخل مصر ، ولأنها كانت ترمى الى السيطرة على مصر لا حمايتها لذا كانت أصداء أخفاقها كبيرة ، لذلك أبرزت المصادر العربية تلك النقطة بما تستحقه من الازدراء والشتم (١٩٩) . وأوضح أنهم جاءوا عن غير حق ورحلوا دون أن يجنوا شيئا الا الندم . فابن الأثير ذكر أنهم « رجعوا بخفى حنين خائبين مما أملوا » (٢٠٠) ، أما ابن شداد فيقول « رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكسين » (٢٠١) . بينما يقول البندارى « وأجفلوا أجفال النعام » (٢٠٢) . أما ابن واصل وابن الفرات فيقولان « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال » (٢٠٣) . وقد توجه عمورى أولا الى بلبيس ثم عاد الى مملكته (٢٠٤) . يل أن ابن الأثير يبرز لنا مدى ضيق عمورى وضجره من نتيجة تلك الحملة الخاسرة بقوله « وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر » (٢٠٥) . فقد كانت « نهاية واهنة لمحاولة حمقاء » على حد تعبير (ستيفنسون) (٢٠٦) .

198. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

199. William : Op. Cit., V. II, p. 356, J. Prawer : Ibid, T. 1, p. 441.

(٢٠٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

(٢٠١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ .

(٢٠٢) البندارى سنا البرق الشامى ٠٠٠ ق ١ ، ص ٧٧ . عن العماد الاصفهاني

(٢٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ابن الفرات : تاريخه ،

م ٤ ، ج ١ ، ص ٢٨ .

J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 441.

(٢٠٤) البندارى . سنا البرق الشامى ٠٠٠ ق ١ ، ص ٧٧ ،

(٢٠٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٩ .

206. Stevenson : Op. Cit., p. 194.

وهكذا كانت نتائج حملات عمورى حتى ذلك الوقت فى رأى برييه « لا تبشر بأى خير ، فقد أنهكت حملاته المتكررة على مصر ميزانية الامارات الصليبية ، وفى مقابل توجيه عمورى نظره الى مصر اضطر الى التنازل عن أنطاكية ، بل ترتب على تلك الحملات أيضا نقص امكانيات التدخل السياسى والعسكرى فى الدبلوماسية السورية الاسلامية » (٢٠٧) .

وكان وصول أسد الدين شيركوه الى مصر فى بداية ربيع الآخر ٥٦٤ هـ (٢٠٨) / ٨ يناير ١١٦٩ م (٢٠٩) . فخلع عليه الخليفة « الخلة العاضدية وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة » (٢١٠) . أما شاور فقد بدأ يخادع شيركوه من جديد ويظهر له الود « تودد شاور الى أسد الدين وتردد ، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد » (٢١١) .

فقد كان شاور يخرج كل يوم الى معسكر شيركوه الذى كان موجودا أمام القاهرة فيقدم له فروض الود والمحبة الى جانب بعض الهدايا ، ويعود مرة أخرى الى القاهرة (٢١٢) . وكان شاور يلحظ هوى العاضد والشعب وميلهم لشيركوه ، فظل يماطل فى اعطاء شيركوه المال والاقطاع المتفق عليه مع تخصيص ثلث البلاد لنور الدين (٢١٣) . وكان الحقد قد أذهب صوابه من جديد ودفعه الى مكاتبة الصليبيين حيث طلب منهم الحضور بحملة برية بحرية الى دمياط « يكون مجيئكم الى دمياط فى البحر والبر » (٢١٤) .

207. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 430.

(٢٠٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، أما ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ص ٧٨ فينفرد بالقول بأن ذلك كان فى جمادى ٥٦٤ هـ والراجح أنه كان فى ربيع .
209. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442, Stevenson : Op. Cit., p. 194.

(٢١٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ .
(٢١١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٧ .
212. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 357.

(٢١٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
(٢١٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥١ .

بل إنه فكر فى التخلص من شيركوه لولا تدخل ابنه فى الأمر ومنعه من ذلك (٢١٥) .

فلما أحس شيركوه ومن معه بمماطلة شاوور لهم قرروا التخلص منه، وبالفعل عهد شيركوه الى صلاح الدين بتلك المهمة فتم التخلص من شاوور بقتله ، تنفيذاً لرغباتهم الى جانب رغبة الخليفة العاضد أيضاً (٢١٦) . «فحم حمامه وحمل الى القصر هامة وذلك يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر» (٢١٧) .

عندئذ تقلد أسد الدين الوزارة ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش (٢١٨)

(٢١٥) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، أبو المحاسن : المرجع السابق ، ص ٣٥١ .
(٢١٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٧١-١٧٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٤ - ٣٥ ، اليافعى : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ ،
William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 359, The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 294, Gibb : Op. Cit., p. 6.

هنا يستخدم وليم الصورى فى التأريخ لذلك الحادث تعبيرات غريبة حيث يطلق على شيركوه اسم وزير الموت Minister of Murder وعلى صلاح الدين وأعوانه فى قتل شاوور اسم عملاء الموت Agents of death . أما ابن العبرى فيسمى الخليفة العاضد خطأ باسم (أسد) كما سبق الذكر . أما أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ص ٧٩ ، فيوضح أن الخليفة العاضد كان أول من أوحى الى شيركوه بفكرة التخلص من شاوور .

(٢١٧) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ .
(٢١٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

هنا كتب البندارى عن العماد الاصفهاني أنه بمجرد وصول تلك البشرى الى الشام كتب العماد الى شيركوه مهتئاً :

كم راحة جنيت من دوحة التعب	بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
أفلاكلها منك قد دارت على قطب	أفخر فان ملوك الارض قاطبة
ميسرا فتح بيت القدس عن كئيب	فتحت مصر وأرجو أن تصير بها

وقد اعتبر وليم الصورى أن شيركوه بوضعه الجديد ، أصبح « سيدا لمصر كلها » (٢١٩) . ولم يستطع أن يخفى تحسره الشديد لذلك واعتبره فاصلا بين عهدين مختلفين تماما بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس (٢٢٠) .

والواقع أن شيركوه لم يستقر فى الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام، فقد توفى فى « الثانى والعشرين من جمادى الآخرة » سنة ٥٦٤ هـ (٢٢١)

=

أما أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٢ فقد كتب عن ابن أبى طى صاحب السيرة الصلاحية أن نور الدين أظهر قلقه لتولى شيركوه الوزارة الفاطمية للعاضد وظهرت الكراهية منه لذلك فى الفاظه ووجهه . ويعقب أبو شامة على موقف نور الدين هذا بأنه ربما خاف من ميل شيركوه الى المصريين ومذهبهم الشيعى وبذلك يفسد جنده عليه . ومن الراجح أن ابن أبى طى كتب ذلك لانه كان متحاملا على نور الدين الذى نفى أباه من حلب لانه كان من رؤوس الشيعة ، كما روى أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ . أما أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٥٢ - ٣٥٣ فقد أورد نصا لمنشور الوزارة الذى أرسله العاضد الى شيركوه وكان بخط القاضى الفاضل .

219. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 357.

220. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 358.

« كان العهد الاول - يقصد به عهد شاور - عهد الهدوء فى الجبهة الصليبية والرخاء والتبادل التجارى الهادئ مع مصر ، ففيه كان المصريون يفتنون الى المملكة لزيارتهم مما كان يعود عليهم بفائدة كبرى ويشرفهم فى نفس الوقت ، الى جانب ان ما كان يحمل من جانبهم كل عام من مال كان يثرى خزانة المملكة . أما فى عهد شيركوه فقد أصبح الامر على عكس ما كان عليه فكل شىء تغير للاسوأ فلم يعد هناك معبرا هادئا بالبحر ، وأصبحت كل المناطق المحيطة بالمملكة خاضعة للعدو ، وكانت كل الممالك المجاورة تستعد لتحطيمهم » .

(٢٢١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ البندارى : سنا البرق الشامى ٠٠٠ ، ق ١ ، ص ٨١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٠٠٠ ، ج ٧ ، ص ٣٧ .

هنا يذكر البندارى أن وفاته كانت يوم الاحد أما ابن أيبك فيقول يوم الاربعاء بينما تذكر بقية المصادر الاخرى أن ذلك كان يوم السبت . وإذا كان ابن الاثير وابن شداد وأبو شامة يذكرون أنه توفى بعد حوالى شهرين من تقلده الوزارة ، فإن ابن أيبك يذكر أن وفاته كانت بعد ثمانية أشهر من توليه لها . أما وليم الصورى فيقول أن ذلك كان بعد سنة .

=

/ ٢٣ مارس ١١٦٩ م (٢٢٢) .

وبوفاة شيركوه ولى الخليفة العاضد ابن أخيه صلاح الدين مكانه فى الوزارة (٢٢٣) . وذلك فى الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٢٢٤) . ولقبه بالملك الناصر ، وكان مما كتبه العاضد فى منشور الوزارة لصلاح الدين : « فيومك وأسطه فى المجدين يومك وأمسك . » وكل ناد من أندية القحار لك أن تقول فيه ، ولغيرك أن يممسك ، فبشراك أن أنعمه منكم موصولة بوالد ولد ، وإن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت أسد » (٢٢٥) .

وبتولى صلاح الدين الوزارة وزع على قواته كل ما جمعه أسد الدين

William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 358.

بينما يذكر ابن خلدون أن هناك رأى يذكر أنه نوى بعد أحد عشر شهرا . (ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٧٩) والراجع أن ذلك كان بعد شهرين .
وبينما يذكر ابن شداد وأبو شامة أن سبب وفاته كان مرض الخانوق ، يشير ابن العبرى الى أن سبب الوفاة كان مرض تقطر البول .

The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 295.

بل ان هناك رأى فريد لا نرجح صحته لابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٥٤ .
يذكر فيه أنه قيل أنه مات مسموما .

222. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 383.

(٢٢٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٢ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٨١ ،
أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٦٠ - ١٦١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٦٨ . وهنا يذكر ابن الاثير وأبو شامة أن الذى حمل العاضد على تولية صلاح الدين هو أنه ظن أنه اذا ولاه « وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة » . ويضيف أبو شامة أن صلاح الدين وافق على مضض . ويعقب على ذلك بقوله « ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل » .
والواقع أن الخليفة العاضد كان يعلم تماما أن شخصية صلاح الدين فى حد ذاتها من الشخصيات التى يمكن الاعتماد عليها فى الجهاد والزود عن بيضة الاسلام لما له من قدرات تؤهله لذلك وهو ما اثير اليه فى منشور توليه الوزارة « والجهاد أنت رضيع دره وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك . » أبو شامة :
الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ عن العماد الاصفهاني .
(٢٢٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
(٢٢٥) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨١ .

فى حياته ، الى جانب جزء طلبه من الخليفة العاضد فأحببه الجميع (٢٢٦) .
فما زالت محبته غالبية على مهايته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو
قرايته « (٢٢٧) .

وبذلك خيب صلاح الدين آمال الخليفة العاضد وأمسك بيد من حديد
على زمام الحكم فى مصر ، مما ترتب عليه أيضا سريان موجة من الذعر
والقلق فى مملكة بيت المقدس بل وفى كل الممالك الصليبية فى بلاد الشام ،
والراجح أن ذلك الذعر ظهر بجلاء بعد تخلص صلاح الدين من مؤتمن
الخلافة الذى كاد أن يعيد من جديد دور ضرغام وشاور ويستنجد بالصليبيين
ضد صلاح الدين (٢٢٨) .

وقد صور لنا وليم الصورى فى تلك السطور القليلة التالية مدى القلق
الذى أصاب الصليبيين بتولى الأتراك حكم مصر : « كان خضوع مصر
للاتراك أمرا غاية فى الخطورة بالنسبة لنا فقد أصبح وضعنا غاية فى السوء ،
فاذا خرج نور الدين بأسطوله الضخم من مصر ، كان بإمكانه أن يسد علينا
منافذ المملكة وأن يحاصر كل المدن الساحلية بواسطة البر والبحر بجيشه » .

(٢٢٦) ابن الاثير : الباهر « ص ١٤٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ .
The Chronography of Bar Hebraeus, V. 1, p. 295.

ولا عبرة هنا بما ذكره وليم الصورى
(William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 359)

من أن صلاح الدين قتل الخليفة عندما كان فى احدى زياراته لتقديم فروض الولاء
والطاعة له ، بل وقتل معه أيضا كل أبنائه ما عدا واحد فقط وأخذ كل ما يملك وقدمه
ببذخ زائد لقواته ، لذلك لم تمض سوى أيام قليلة حتى كانت الخزائن خالية ، حتى
خزائن الثياب أيضا . ثم اقترض ممن حوله بعد ذلك وأصبح مكبلا بدين ثقیل .
والراجح أن وليم الصورى سخط بين قتل صلاح الدين لشاور بالحديث عن مقنسل
الخليفة ثم استنتج بعد ذلك استنتاجا خاطئا هو أن صلاح الدين أخذ أموال الخليفة
وانفقها على قواته ، وهو ما لننقرأ عنه فى أى مصدر من المصادر العربية حتى التى
تناولت صلاح الدين أحيانا بشيء من الغمز مثل ابن الاثير .

(٢٢٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٢٢٨) عن مؤتمن الخلافة وحركته والتخلص منه انظر أبو شامة : الروضتين ،

ج ١ ، ص ١٧٨ .

بالإضافة الى ذلك فانه كان بإمكانه أن يعرقل وصول الحجاج الى بيت المقدس
أو حتى يرفض السماح لهم بالمرور كليا » (٢٢٩) .

كما أعطانا (ستون) رأيا آخر عن نفس الموضوع حين قال : « تسببت
الأحداث التي وقعت آنذاك في قيام ثورة في ميزان القوى في الشرق * فقد
انتهت الحماية الفرنسية على مصر بكل مميزاتها الاقتصادية والسياسية .
واتحد مسلمو مصر وسوريا وبدأ تطويق الدويلات المسيحية الذي أثبتت
السنوات التالية مدى خطورته » (٢٣٠) .

أما (ستانلي لين بول) فقد زودنا بتفسير ثالث لخطورة الوضع على
الصليبيين حين قال : « أن مينائي دمياط والاسكندرية جعلاً للمسلمين القيادة
على الأسطول ، وجعلهم قادرين على قطع اتصالات الصليبيين بأوروبا وعلى
إيقاف سفن الحج السنوية كما وضع أيدي المسلمين على امدادات
الصليبيين » (٢٣١) .

والواقع أنه كرد فعل لتولى شيركوه الوزارة في مصر مباشرة (٢٣٢)
وبالتحديد في بداية ١١٦٩ م تكونت سفارة اختيرت بالاجماع من المبرزين من
أصحاب المكانة العالية في الكنيسة ، توجهت من بيت المقدس الى أمراء الغرب
المسيحيين مدفوعة - وفقا لتعبير وليم الصوري - « بهول المحنة » التي كانت
مملكة بيت المقدس ترزح تحتها آنذاك . وحمل السفراء رسائل من الملك ومن

229. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 360.

* وهو يسمى نور الدين هنا « عدونا الأكثر قوة » .

230. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 556.

231. Stanly Lane Poole : Saladin and the fall of the Kingdom
of Jerusalem, p. 103.

(٢٣٢) هنا يذكر لنا ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ (١٩٦٦) ص ٣٥١ . ان السفارة

التي أرسلت للمغرب كانت قد تحركت لاداء مهمتها في عهد أسد الدين . وكان ذلك في
يناير ١١٦٩ ولكنها رجعت بعد وفاته في مارس ١١٦٩ م .

Cam. Med. Hist., V. IV. Part 1, p. 236.

أي بعد أن خلفه صلاح الدين .

كل القساوسة الى فردريك امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ووليم ملك صقلية ، بل لكل النبلاء والكونتات البارزين فى الغرب وما أن أبهرت تلك البعثة برئاسة البطريرك هرنيسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيصرية ووليم أسقف عكا حتى هبت عاصفة شديدة فى الليلة التالية مما اضطرهم للعودة بصعوبة يعد ثلاثة أيام بعد أن نجوا من حادث غرق سفينتهم • عندئذ كانت سفارة أخرى من فردريك رئيس أساقفة صور، وحنا أسقف بانياس ولقد وصلت تلك السفارة بنجاح الى الغرب ولكنها لم تحقق سوى نجاحاً جزئياً فى المهمة التى عهدها اليها • فقد مات الأسقف فى باريس بعد وصوله الى فرنسا بفترة وجيزة وعاد رئيس الأساقفة بعد أن أمضى سنتين بالخارج دون أى نجاح فى مهمته (٢٣٣) •

والحقيقة ان الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا عندئذ لاسيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول فقد اتفقت تلك الفترة مع الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية • وهكذا لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى دولة الروم وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها (٢٣٤) •

ولقد شجع عمورى على أن يتمسك بموقفه فى ضرورة الاستيلاء على مصر ، أن ظروف البلاد فى ذلك الوقت كانت مهيأة لنجاح فكرته خصوصاً وأنه كان يوجد بمصر عناصر مستعدة لتأييد الصليبيين ، ممثلة فى اتباع

233. William : Op. Cit., V. II, pp. 360-361.

وإذا كان وليم الصورى قد افادنا بأن الغرب لم يقدم شيئاً من المعونة لعمورى آنذاك ، فان المصادر العربية ذكرت أن الصليبيين عندما أرسلوا الى الاندلس وصقلية وغيرها لطلب المعونة أمدوهم بالمال والرجال والسلاح (ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، وأشار ابن خلدون فى تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠ الى ذلك بانهم « جاءهم المدد من كل ناحية » لكن الراجح أن المصدر العربى خلط هنا بين الغرب وبين دولة الروم التى أمدت الصليبيين بالنجدة الحقيقية كما سنرى فيما بعد :

(٢٣٤) د. عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢١٩ ، قدرى قلجى : صلاح

الدين الايوبى ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ •

شاوور القديما بالاضافة الى هؤلاء الذين تصارعوا للحفاظ على الحكم الفاطمى والذين كانوا موجودين داخل قصر الخليفة نفسه (٢٣٥) .

ومن حسن حظ الصليبيين أن امبراطور الروم مانويل كومنين لم يكلفهم مشقة تجديد طلب المساعدة منه فقد « كان يقظا مافيه الكفاية للاتفاق الذى قطعه على نفسه » فى العام السابق ، وعليه فقد « أرسل الأسطول الذى وعد به وفقا لمتطلبات المعاهدة التى عقدها مع الملك » ، والتى كانت قد جاءت - مطابقة تماما لمقترحات الصليبيين ورغباتهم (٢٣٦) .

وبمعنى آخر كان امبراطور الروم « لا يزال تواقا لانجاز ما تعهد به فى الاتفاق الذى عقده من قبل مع وليم الصورى فى سبتمبر ١١٦٨ م » (٢٣٧) وعلى ذلك وجد الملك عمورى فى التعاون الذى وعد به الامبراطور مانويل كومنين (٢٣٨) ، ضالته المنشودة ومطلبه الملح ، على عكس ما كان يظن خصوصا بعد موقفه المتسرع فى حملته الرابعة كما أوضحنا من قبل .

وهكذا يفهم من كلام وليم الصورى ومن نقل عنه من مراجع أجنبية حديثة ، أن الامبراطور أرسل أسطولا من قبله دون أن يطلب الملك ذلك ، أما ميخائيل السريانى فيعطينا رأيا آخر فى حويلته هو أن الملك عمورى طلب من نسييه وقريبه امبراطور الروم بعض القوات كى يسير ضد مصر وأن الامبراطور أرسلها له عن طريق البحر (٢٣٩) . وإذا كان وليم غير موجودا فى مملكة بيت المقدس ١١٦٩ م فانه عرف تفاصيل الحملة من مصادر وثيقة (٢٤٠) . بينما كان ميخائيل السريانى هو البطريرك اليعقوبى لأنطاكية من ١١٦٦ م حتى ١١٩٩ م (٢٤١) . الا أننا نميل الى الأخذ برأى وليم لأنه كان أكثر معرفة بمشاعر الامبراطور لأنه كان أحد أعضاء البعثة التى تفاوضت معه ١١٦٨ م .

235. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 442, Stanley Lane-Poole : Op. Cit., p. 103.

236. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 361.

237. Setton : Op. Cit., V. I, p. 556.

238. J. Prawer : Op. Cit., T. I, pp. 442-443.

239. Michel Le Syrien (R.H.C.) Documents Arméniens, T. 1, p. 369.

240. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 369.

241. Grousset : L'Empire du Levant, p. 312.

ومهما كان الأمر فإن وليم الصوري أعطانا وصفا تفصيليا للأسطول الذى أرسله امبراطور الروم للصليبيين فى ١٠ يوليو ١١٦٩ م فقال : أنه كان مكونا من مائة وخمسين سفينة منقرية الشكل ذات صفين من المجاديف . وكانت تسمى Galleys وكانت مصممة خصيصا للاستخدام الحربى . بالإضافة الى ستين مركبا كبيرا مسلحة تسليحا جيدا ، وكانت معدة لحمل الخيول ٥٠ وكان الأسطول يحتوى أيضا على عشرة أو عشرين سفينة من الحجم الكبير المسمى Dromones التى كانت مخصصة لحمل المؤن من كل نوع بكميات كبيرة الى جانب الآلات الحربية (٢٤٢) .

ووضع الامبراطور على رأس ذلك الأسطول ثلاثة من كبار النبلاء هم grand duke أو ontostephanus, Megalducas وكان على صلة رحم بالامبراطور ، Maurice أو Theodore Maurozumes الذى كانت له عالية لدى الامبراطور الى جانب Alexander of Gravina, Conversana, أحد نبلاء أبوليا Apulia ، والذى ورد اسمه من قبل فى السفارة التى أرسلت من قبل مانويل ١١٦٨ م الى ملك بيت المقدس .

وفى أواخر سبتمبر ١١٦٩ م دخل الأسطول الرومى ميناء صور ثم تقدم الى عكا (٢٤٣) . ليكون تحت تصرف ملك بيت المقدس .

والواقع أن ذلك الأسطول كان قد توجه أولا الى قبرص وأرسل جزء صغير منه فقط الى عكا محملا بالاعانة المالية لقوات الملك ، وطلب من عمورى أن يرسل الى قبرص ليحدد التوقيت الذى يرغب أن يتحرك الأسطول فيه . والحقيقة أننا اذا نظرنا الى تاريخ تحرك أسطول الروم من موانئه

242. William of Tyre : Op. Cit., V, II, p. 361.

أما ستانلى لين بول وستيفنسون فيذكران أن الروم أرسلوا للصليبيين أسطولا مكونا من مائتى سفينة
Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 103, Stevenson : Op. Cit., p. 196.

243. William of Tyre : Op. Cit., V, II, pp. 361-362.

الأصلية (٢٤٤) فى ١٠ يولييه ١١٦٩ م حتى دخول ميناء عكا فى أواخر
سبتمبر من نفس السنة كما أشرنا من قبل نجد أن الأسطول تأخر عن القيام
بمهمته حوالى شهرين يقال أن عمورى أعاد فيها المفاوضات من جديد مع
الروم وكان مترددا خلالها (٢٤٥) .

Hellsont (٢٤٤) يشير رنسيما أن الأسطول الامبراطورى تحرك من

Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 385.

245. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443, L. Bréhier : Vie et Mort,
339.

هنا يتساءل بروييه هل كان سبب ذلك التردد ناتجا عن اختيار بقعة الهجوم ؟
أم عن برنامج الرحلة ؟ هل جاء ذلك التردد نتيجة رغبة عمورى فى التراجع عن الحملة
والبحث عن وسيلة للاختفاء ؟ ثم يشير بروييه الى أنه ليس له رد عن تلك الاسئلة . أما
عن نتيجة ذلك التأخر فهي أن صلاح الدين عرف الاستعدادات الصليبية عن طريق الرسائل
المتبادلة بينهم وبين مؤتمن الخلافة (رئيس ديوان) قصر الخليفة والتي وقعت بين يديه
- كما سبق الذكر - وأنه استعد لمواجهة الصليبيين وحلفائهم الروم .

(J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443)

وقد حدد لنا رنسيما تاريخ التخلص من مؤتمن الخلافة بـ ٢٠ أغسطس ١١٦٩م
(Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 386).

الهجوم الصليبي الرومى على دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

رأينا كيف اجتمعت القوات الرومية والصليبية فى شواطئ بلاد الشام استعدادا للهجوم على مصر التى كانت تمثل فى نظرهم بؤرة الخطر على الوجود الصليبي فى ذلك الوقت ، خصوصا بعد تولى صلاح الدين الأيوبي - الذى كان يعشق الجهاد (٢٤٦) - الوزارة فى مصر . وبذلك أصسبحوا مطوقين من الشمال من ناحية نور الدين ومن الجنوب والغرب من ناحية صلاح الدين .

بدأ الملك عمورى استعداداته لحملته الخامسة على مصر والتى يشير اليها بروييه بأنها كانت « آخر محاولة بدون أمل لتغيير مجريات الأمور » (٢٤٧)

لم يستطع عمورى أن يتخذ قرار الهجوم على مصر فور وصول الأسطول الرومى المرسل اليه من قبرص . لأن حملة ١١٦٨ م كانت قد أحدثت اضطرابا شديدا فى قواته . فقد كانت خسائر الاسبتارية هائلة فى حين ظل الداوية على رفضهم للمشاركة فى أى حملة بالاضافة الى أن البارونات كانت تجربتهم السابقة غير مشجعة بالمرة (٢٤٨) . ولكى يغرى عمورى فرسان الاسبتارية على مساندته فى مشروعه الكبير أصدر مرسوما هاما فى ١١ أكتوبر ١١٦٩ م يقضى بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص

(٢٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١ . فهو يقول : « كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف أنه ما انفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا فى الجهاد أو فى الارفاد ، لصديق وبرفى يمينه . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى الله ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة » .

247. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 442.

248. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 385, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

- ١٤٠ -

وأطفيح وأسوان والفيوم (٢٤٩) . وهكذا لم يستطع عمورى أن يستدعى الأسطول الرومى الى عكا الا فى آخر سبتمبر .

ويقال أن ميناء عكا لم يستطع استيعاب ذلك الأسطول ، لذلك ظلت بعض القوارب بين نهر النعمان والميناء (٢٥٠) .

هنا يعلق (ستون) على عظمة أسطول الروم آنذاك بقوله : « ان الأسطول والمعدات التى جاءت معه كانت أكثر عظمة مما كان الامبراطور قد تعهد بارساله للصليبيين ، وقد أعاد ذلك القيادة المسيحية على البحر » (٢٥١)

وبعد أن اطمأن عمورى على شئون المملكة ، وذلك بترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال فترة غيابه من هجمات نور الدين (٢٥٢) . أمر « كل الجيش الصليبي والرومى » بالاجتماع فى ١٥ أكتوبر ١١٦٩ م فى عسقلان وكان أسطول الروم قد أبحر قبل ذلك بعدة أيام واتجه نحو الاراضى المصرية (٢٥٣) .

وهنا نتوقف قليلا عند عبارة « كل الجيش الصليبي والرومى » التى ذكرها وليم الصورى فنرى فيها ما يؤكد أن الروم شاركوا بقوة برية الى جاذب الأسطول البحرى الذى أرسلوه للصليبيين ، وقد أيد ذلك ما ذكره (ستانلى لين بول) من أن الأسطول الذى أرسله الروم للصليبيين ، كانت تعاونه قوة برية لها ثقلها (٢٥٤) .

ويقال أن قائد الأسطول الرومى كان غاضبا أشد الغضب لتأخر تحركهم الى مصر وأنه عرض على عمورى أن ينقل معظم قوات الجيش الصليبي بواسطة سفينه ولكن عرضه قوبل بالرفض . ومن المرجح أن غضب قائد

-
- (٢٤٩) د . سعيد عاشور : بحوث ودراسات ٠٠٠ ص ٢١٩ عن King
 250. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 443.
 251. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.
 252. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 362, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

- هنا يذكر ستيفنسون أن اندفاع الصليبيين حل محله الجين
 Stevenson : Op. Cit., p. 196.
 253. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 362.
 254. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 103.

الأسطول كان راجعا الى أن التموين الذى كان قد زوده به الامبراطور كان يكفى فقط لمدة ثلاثة أشهر ، ظنا منه أنها حملة قصيرة ، ولكن لم تلبث الشهور الثلاثة أن قاربت على الانتهاء دون أن يتخذ الملك عمورى أى خطوة ايجابية بالنسبة للحملة المرتقبة (٢٥٥) .

وفى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ م بدأ الجيش المشترك التحرك من عسقلان ، وبعد مضى حوالى تسعة أيام وصل الجيش البرى الى القرماء فوجد أسطول الروم قد وصل اليها أيضا « وعن طريق المدفئين عبر الجيش الى الشاطئء المواجهة الى تنيس ثم بعد مسيرة يومين وصل الى دمياط وذلك فى ٢٧ أكتوبر (٢٥٦) أوائل صفر ٥٦٥ هـ (٢٥٧) وبدأ الجيش فى حصارها بالفعل ولكنه لم يبدأ الهجوم انتظارا لموصول الأسطول الرومى الذى تأخر وصوله ثلاثة أيام بسبب « هبوب رياح عاتية » . أعاقت حركته بعض الشئ وفى النهاية هدأت الأمواج ووصل الأسطول عند مدخل النهر (٢٥٨) . حيث أعاق تحركه الى الميناء نفسه سلاسل حديدية على جانبيها برجين حصينين (٢٥٩)

255. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 386.

256. William of Tyre : Op. Cit., pp. 362-363.

هنا يفصل لنا وليم الحديث عن الرحلة البرية بقوله : أنه لكى لا تسأم قوات المشاة تقدموا على مراحل مستفيدين من الاستراحات الموجودة فى الطريق ، لاخذ شئ من الراحة . وعند الوصول الى القرماء القديمة فى اليوم التاسع كانوا يرغبون فى اتباع الطريق الساحلى ، لكن حادث جديد جعل من الضرورى اتخاذ طريق الداخل الاطول لان بعض الخنادق بين الساحل والمناطق المجاورة للبحر تكسرت بسبب الاندفاعات المتكررة للأمواج ، وبذلك أحدثت ممرات خلال الحواجز المواجهة لها لذلك اضطروا للتوغل فى الطريق السهل الخلفى حيث تكونت فى المنطقة المجاورة للساحل بركة كبيرة غطتها المياه وامتلات بالاسماك التى استخدمت كمصدر هام للتموين ولقد كانت القرماء تقع فى مكان متوسط بين البحر والنهر والصحراء وكانت تبعد ثلاثة أميال عن فم النيل . أما دمياط فكانت تقع على جانب النهر الاقرب لهم عند التقاء النهر بالبحر .

(٢٥٧) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ،

ص ٨٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

258. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 363.

259. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 104.

هنا نتساءل عن سبب توجه الصليبيين وحلفائهم تلك المرة الى دمياط بالذات ؟

وللرد على هذا السؤال هناك اجابتين ، احدهما لابن الأثير والأخرى لابن شداد . فابن الأثير يذكر أنهم استعدوا للنزول الى دمياط « ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر » (٢٦٠) . أما ابن شداد فيذكر أنهم أرادوا قصد دمياط « لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصلت لهما حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه » (٢٦١) .

وقد اصطحب الصليبيون والروم معهم « المنجنقات والدبابات والجروح وآلات الحصار وغير ذلك » (٢٦٢) .

هنا يذكر ابن الفرات « نزل الفرنج على دمياط . . فى عالم عظيم لايدر حصره وكان وصولهم فى ألف ومائة مركب ما بين شينى ومسطح وطريدة » (٢٦٣) والراجح أن ابن الفرات يقصد بالفرنج هنا الصليبيين والروم ، لأنه يعود بعد ذلك فيشير الى المحاصرين لدمياط بأنهم « الفرنج والروم » .

(٢٦٠) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٣ .

(٢٦١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١ .

(٢٦٢) ابن شداد: المصدر السابق نفس الصفحة، ابن الفرات: تاريخه، م ٤ ، ج ١، ص ٨٢ والمنجنيق آلة من آلات الحصار فى العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالى، وان كانت قذائفه من الحجارة . أما الدبابة فهى آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، وقد سميت بذلك لانها تدفع فتدب (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، وحاشية للمدكتور جمال الدين الشيال محقق نفس الكتاب ، ص ١٨١) . أما الجرخ فهى مأخوذة عن الفارسية والجمع جروح وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط (الجرخى) والجمع الجرخية . (حاشية للمدكتور الشيال محقق كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ، ص ٤٢) .

(٢٦٣) ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٨٣ والشينى هى السفينة الحربية الكبيرة . أما الطريدة والجمع طرائد فهى أنواع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل فى حمل الخيول والفرسان .

وما أن حاصر المهاجمون دمياط حتى دعا حاكم المدينة « شمس الخواص ياروققاش - صلاح الدين لنجده وأقفل مدخل الميناء بواسطة الأواصر الحديدية الثقيلة » (٢٦٤) وكان أهالى دمياط فى بادىء الأمر قد أصابهم « اليأس والبؤس » لكن صلاح الدين لم يلبث أن أرسل اليهم ابن أخيه تقى الدين وخاله شهاب الدين (٢٦٥) ، كما أرسل القوات فى النيل « وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر » (٢٦٦) .

أما ابن شداد فيقول أن السلطان صلاح الدين أنفذ الى دمياط « وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه وعزز المقيمين فيه بأمدادهم بالعساكر والآلات » (٢٦٧) .

كما تابع صلاح الدين فى نفس الوقت رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وأنه « ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان سار اليها خلفه المصريون من مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه » (٢٦٨) .

والواقع أن صلاح الدين كان قد أسرع عندما علم بهجوم الصليبيين الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستحذو حذو الحملات السابقة فقصده القاهرة عن طريق الشرقية . فلما

264. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444,

ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠
(٢٦٥) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ ، ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٤١ .

(٢٦٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ . هنا يذكر ابن خلدون فى تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠ . أنه أمدهم بالعساكر والاموال مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز . أما وليم الصورى فقد أرخ لتلك النقطة بقوله أنه قدم جيش من الاتراك من مصر العليا ، ضخ العدد ، وسفن محملة بالرجال المسلحين .

(William of Tyre : V. 11, p. 364)

(٢٦٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ .
(٢٦٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

اتجهت الحملة الى دمياط ، وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده فى الداخل بتحريض من الخليفة الفاطمى ورجاله . ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم يستسلم وأرسل يطلب النجدة من نور الدين (٢٦٩) .

كان رد نور الدين حاسما قويا سواء فى داخل بلاد الشام أو فى الجبهة المصرية ، فقد حشد القوات وكانت « كلما تجهزت طائفة سيرها » ، فسارت القوات الى صلاح الدين فى مصر « يتلو بعضها بعضا » . وفى نفس الوقت شدد نور الدين هجماته على الصليبيين فى بلاد الشام وأغار على بلادهم ونهبها واستباحها ، « ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من ممانع » (٢٧٠) .

والواقع أن بعد نظر صلاح الدين وحسن تصرفه وسرعة تحركه ، جعل دمياط مدينة جيدة التحصين فى وقت قصير ، وقد ساعد على ذلك موقعها نفسه الذى سهل امدادها بالرجال والسلاح والمؤن عن طريق استخدام نهر النيل ، بالإضافة الى أن الأواصر الحديدية الثقيلة أعاقَت دخول الأسطول اليها من ناحية البحر فقد كانت تقف كحاجز يعوق اجتياز الجزء العلوى من النهر وشكلت عائقا ضخما للقوات المهاجمة (٢٧١) .

هنا يجدر بنا أن نقول أنه يكفى دمياط بل مصر كلها فخرا أن جيوش الحليفين الكبيرين ، الصليبيين والروم ، بكل ما جهزوا وأعدوا وخططوا ودبروا ، وجدوا أنفسهم منذ اللحظة الأولى فى شدة الحاجة الى إعادة النظر فى خططهم العسكرية ولا عبرة هنا مما قيل من أنه كان من السهل اليسير الاستيلاء على دمياط ، اذا كان المهاجمين قد سارعوا بالهجوم عليها

(٢٦٩) د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٢٢٠ ، د. عبد الرحمن الرافعى ، د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٩٥ .
(٢٧٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
271. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364, Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

منذ اللحظة الأولى دون تأخر (٢٧٢) *

وربما كان أسطول الروم هو الأكثر تلهفا على المسارعة بالهجوم لأن امداداته ومؤنه كانت قد قاربت على النفاد (٢٧٣) * أما الصليبيون فكان الهجوم السريع ، أبعد ما يكون عن تفكيرهم فقد ذكر لنا وليم الصوري أن جيشهم بدا من الوهلة الأولى يشعر باليأس والقنوط ، فقد أصبحت المدينة طافية في مياه الفيضان * وبدا بوضوح أنه بدون مساعدة آلات ومعدات الحرب لا يمكن الاستيلاء عليها ، كما أنه بدون وصول قوات مسيحية اضافية كان من غير الممكن أن تستطيع قواتهم الصمود للهجوم الأول (٢٧٤) *

والراجع ان فكرة المهاجمين عن دمياط كانت غير حقيقية عن مدى حصانتها ، بالإضافة الى الاستعدادات الغاية في السرعة التي زودها بها صلاح الدين *

وبذلك ساد من جديد جو من التردد بين المهاجمين وكان ذلك هو سبب قول (بروييه) أن « أول عملية عسكرية لم تظهر الا بعد تردد » (٢٧٥) * وقد

272. William of Tyre : Ibid, V. 11, p. 365, J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 387.

هنا يرجع وليم الصوري التأخر في مهاجمة دمياط الى وسوسة الشيطان فهو يقول أنه عند وصول قواتهم الى المدينة كانت خالية ولم يكن بها سوى أهلها الاصليين «الذين كانوا ضعفاء مسالمين ، جاهلين كلية بفن الحرب فلو أن المسيحيين هاجموا المدينة بشجاعة في الحال ، لسقطت في الهجوم الاول ولكن المحاصرين أخذوا مهلة ، زاد عددهم خلالها زيادة كبيرة بواسطة التعزيزات بالفرسان الشجعان الاقوياء ، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قادرين على مقاومة هجماتنا داخل وخارج المدينة » * والواقع أن وليم الصوري نسي أو تناسى هنا أن الملك كان مترددا منذ البداية سواء عند الخروج من مملكته أو عند الوصول الى دمياط وأنه لم يبدأ بالهجوم الا بعد وصول الاسطول الرومي الذي أخرته الرياح القوية التي قامت حينئذ ، والتي هدأت فيما بعد ربما بسبب سقوط الامطار الغزيرة كما سنرى فيما يلي *

273. Stenvenson : Op. Cit., p. 196, Runciman : Ibid, V. 2, p. 387.

274. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364.

والراجع أن مياه الفيضان هنا كانت مياه الامطار الغزيرة التي سيأتي ذكرها

والتي اغرقت كل شيء مع جيش عموري *

275. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444.

(هجمات الروم)

انتهت تلك الفترة بالوصول الى حل هو ضرورة اقامة بعض الأبراج العالية حول المدينة لتساعد فى عملية الحصار . وبالفعل اختير العمال المناسبين الذين زودوا بالمواد اللازمة « وبالمزيد من النفقات والعمل » أمكن اقامة برج على مكون من سبعة طوابق يمكن مشاهدة المدينة بأكملها من قمته ، هذا بالإضافة الى اقامة العديد من الآلات المختلفة الخاصة بالحصار (٢٧٦) .

ولكن يبدو أن المهاجمين لم تكن تعوزهم المعدات والقوات الاضافية فقط بل كان ينقصهم أيضا البراعة والذكاء الحربى المطلوب فى مثل تلك المواقف . وذلك بشهادة مؤرخيهم أنفسهم . فقد كتب وليم الصورى « ان قواتنا أظهرت قلة براعة وذكاء عن المعتاد » ، فقد أمر القادة أن يوضع أحد الأبراج الجديدة بجوار سور المدينة فى مكان غاية فى الحصانة ، فى الوقت الذى كان هناك أماكن عديدة من السور أقل تحصينا ، وكان من الممكن أن تكون أسهل فى السقوط ، لولا وضع البرج المتحرك فى البقعة الأكثر تحصينا ، وفى مكان ملئ بالصعوبات عن أى مكان آخر . وعلى ذلك كان التخريب أكثر ليس على أهالى البلد ومساكنهم بل على كنيسة الأم المقدسة فقط The Holy Mother of God التى كانت ملاصقة للسور » (٢٧٧) أما ستيفنسون فقد أشار الى « أن اللاتين أظهروا نشاطا غير كافيا » فى ذلك الوقت (٢٧٨) .

فإذا أضفنا الى التردد وعدم البراعة فى فن القتال عنصرا جديدا تمثل فى نقص المؤن بين رجال الأسطول الرومى ، والذى سبق أن أشرنا الى أنه كان مجهزا بمؤن تكفيه لمدة ثلاثة أشهر فقط ، وأنها انتهت بالفعل . لذلك بدأ الروم الذين قدموا فى اعداد ضخمة مع الأسطول يعانون من المجاعة ونقص المؤن (٢٧٩) . وعلى ذلك بدأ الروم يتساقطون من الجوع ، دون أن يوفر لهم حلفائهم الصليبيين أى مصدر للطعام على الساحل (٢٨٠) .

276. William of Tyre : Op. Cit., V. 11, p. 364.

277. William of Tyre : Ibid, V. II, p. 365.

278. Stevenson : Op. Cit., p. 196.

279. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 366 Stevenson : Op. Cit., p. 196.

280. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

هنا لا يملك وليم الصورى الا أن يدافع عن اتباع الملك من الصليبيين فيعطى تبريرا لعدم تقديمهم المؤن لحلفائهم الروم بقوله أنه « كان لدى الصليبيين مصدرا كافيا من الخبز والعديد من المواد الغذائية الأخرى ، ولكن الیقظة للمستقبل ، جعلتهم يقتصدون مما لديهم رغم قلته ، لأنهم لو أسرفوا فى اقتسام تلك المؤن مع هؤلاء المعدمين - يقصد الروم - فسوف يكون ذلك خطرا عليهم ، لأنهم سيصبحون حتما يوما ما فى شدة الحاجة ، وأكثر من ذلك أنهم كانوا غير متأكدين من مدة اقامتهم على دمياط ٠٠ » (٢٨١) وقد عبر (بروييه) عن ذلك بصورة أكثر ايجاز عندما قال أن « الخيمة اللاتينية رفضت اقتسام مؤنها مع الحلفاء » (٢٨٢) .

ووسط ذلك الجو المشحون بعدم الاخلاص والجبن والفرقة بين الروم والصليبيين (٢٨٣) ، ظهر عامل جديد ليوسع شقة الخلاف بين الطرفين بل ليضرب بعري التحالف الصليبي الرومى عرض الحائط فقد هطلت الأمطار بشدة بسبب هبوب الرياح العاتية فأضافت عاملا جديدا من عوامل القلق والازعاج (٢٨٤) ، وأغرقت جميع خيام الصليبيين ، ذلك أنهم « أصبحوا غير قادرين على منع المطر من الانسياب داخل خيامهم بأية وسيلة ، وحتى الأغنياء الذين كانوا فى حالة أحسن ابتلت خيامهم بوابل الأمطار المفاجئة ٠٠ وكان كل ما استطاعوا عمله هو حفر بعض الحفر حول خيامهم كى تنجرف اليها مياه الأمطار ، وبذلك حموا أنفسهم حماية بسيطة » (٢٨٥) .

واذا كان ذلك هو وضع الجيش الصليبي الرومى فماذا كان وضع المصريين عامة وأهالى دمياط خاصة ؟

كان صلاح الدين يرسل من القاهرة المدد بعد الآخر ورغم تشديد المهاجمين للحصار الا أن الأهالى صبروا « وصابروا وتأزروا ، وأمسوا على القتال وأصبحوا وتاجروا الله وربحوا ، وهددوا بنيان الكفر المرصوص

281. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 366.

282. J. Prawer : Op. Cit., T. 1, p. 444.

283. William : Op. Cit., V. 11, p. 365.

284. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 557.

285. William : Op. Cit., V. 11, p. 366.

المرصوف وأهلكوا بالعشرات الألوف ٠٠ « (٢٨٦) .

وقد فطن المصريون الى خطة ناجحة أسرعت بوضع الفصل النهائى وانزال الستار على تلك الحملة . ذلك أنهم استفادوا من سرعة جريان مياه النيل ، بسبب هبوب رياح جنوبية قوية فأخذوا قارب ذى حجم عادى وملؤه حتى نهايته بالأخشاب الجافة والقار وقذفوا عليه بعض المواد المشتعلة فاشتعل على صفحة النهر ، وحملته الأمواج الشديدة فى اتجاه الأسطول الراسى عند مصب النهر فى البحر المتوسط ، عندئذ اشتعلت النار بسرعة وامتدت الى المواد القابلة للاشتعال التى كان القارب محملا بها . ثم أبحر القارب المشتعل فى اتجاه الأسطول وأمسك فى سفينه المتراصة واشتعلت النار به . وهكذا « احترقت ست سفن منقارية الشكل وهى المسماة Galleys ثم انتشرت النار فى كل الأسطول فى ضراوة » (٢٨٧) .

والحقيقة أننا نلمح من خلال عرض وليم الصورى لأحداث ذلك الهجوم وتطوراتاه (٢٨٨) ، عدة نقاط هامة منها أولا : تحامله الشديد على المصريين الذين يطلق عليهم (الكفار) فى أكثر من موضع ، بل وتحامله أيضا على الروم أنفسهم من خلال سطور روايته فهو يقول أن المحاصرين كانوا يهاجمون أحيانا معسكر الروم ويشنون عليه هجوما غير متوقعا ، وذلك راجع الى ما قد يكونوا سمعوه من أن القوات الرومية أقل قوة من قواتنا ٠٠ « وإذا كان وليم أحيانا يعزى ذلك الى أنه قد يكون نوعا من الاشاعات ، الا أن كل اشاعة لها جانب من الحقيقة .

ثانيا : اعترافه بأن المحاصرين - أى المصريين - « رغم أنهم كانوا

(٢٨٦) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ - ٨٧ .
287. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 367.

هنا أيضا يدافع وليم الصورى عن الملك بقوله أن ما حدث لم يكن مرجعه الى عدم يقظة الملك لانه عندما اكتشف النار - لم ينتظر حتى يرتدى حذاه - امتطى صهوة جواده بسرعة وابقظ البحارة . وعن طريق الصيحات المفزعة دعاهم الى اخماد النار . وكل ما نجحوا فيه هو فصل السفن عن بعضها فقللت ضراوة اشتعال النار . ثم أطلقت السفن المشتعلة بواسطة مياه النهر . ولذلك عقب وليم على ذلك بتقديم شكره للنهر الذى كان فى متناول اليد .

288. William of Tyre : Ibid, V. II, pp. 367-368.

محجوزين داخل المدينة تحت وطأة الحصار - الا أنهم كانوا مصدر رعب كبير لخصومهم ، أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم » .

ويكفى المصريين تلك الشهادة من وليم الصوري ، والحقيقة أنهم جعلوا كل ثقتهم وأمالهم في الله ودافعوا بإخلاص وصدق عن حقهم فكان الله معهم يعضدهم بنصره وينزل لهم كل الصعاب .

والواقع أن وليم الصوري يؤيدنا في هذا الرأي عندما قال أن الحملة « كانت ضد اربعة السيد المسيح وأن وجهه قد أدير عنا في غضب » (٢٨٩) .

وبمرور الوقت وتأزم الموقف قرر قائد أسطول الروم ضرورة القيام بهجوم سريع على دمياط مهما كان في الأمر من مخاطرة (٢٩٠) ، وبالرغم من أنه أرسل في بادئ الأمر ليكون تحت إمرة عموري (٢٩١) . هنا بدأ قيادة الجيش الصليبي يتهامسون فيما بينهم - وهم الذين كانوا باستمرار يشكون في نوايا الروم - بأن حماس قائد أسطول الروم يرجع الى أنه كان يرغب في أن يجعل من دمياط جزءا من غنائم الامبراطورية (٢٩٢) .

وعليه فقبل أن ينفرد قائد الأسطول بهجومه على دمياط وصلته أخبار مقاضات الملك عموري من أجل الصلح والانسحاب (٢٩٣) .

وثمة رأى هنا لميخائيل السرياني يجعل عنصر الخيانة كان موجودا أصلا لدى الروم وأنهم منذ وصولهم الى مصر ، كانوا مدفوعين بقدرتهم وقوة معداتهم الى مخادعة الملك والاستيلاء على تلك البقعة لحسابهم الخاص « الا أن بعض الأشخاص حذروا الملك في الوقت المناسب من نوايا الروم (٢٩٤) .

289. William : Ibid, V, II, p. 368.

290. Runcimann : Op. Cit., V, 2, p. 387.

291. Setton : Op. Cit., V, 1, p. 557.

292. Runciman : Op. Cit., V, 2, p. 387.

293. Setton : Op. Cit., V, 1, p. 557.

294. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. I, pp. 369-370.

هنا يخطئ ميخائيل حين يشير الى أن بعض الاشخاص حذروا الامير (Ce Prince) ولم يشر اليه على أنه الملك .

لكن ما هي الأسباب الحقيقية للانسحاب ؟ وما هي ملامساته ؟ هنا نجد الاجابات مختلفة للرد على هذا التساؤل ، بعضها يمثل وجهة نظر المؤرخين الصليبيين والغربيين والبعض الآخر يمثل وجهة نظر المؤرخين المسلمين .

أما الجانب الأول وعلى رأسهم وليم الصوري فنراه يرجع ذلك الى أنه كان من الحكمة أن تعود الحملة الى بلاده بدلا من التوغل في مصر مع المجاعة أو الهلاك بسيوف المسلمين (٢٩٥) .

أما بروييه فيقول أن الصليبيين كانوا يخشون أن يجدوا أنفسهم بين جيشين من الأعداء : جيش المدافعين عن دمياط من ناحية ، وجيش النجدة القادم من الجنوب من ناحية أخرى (٢٩٦) . بينما يذكر (ستانلي لين بول) « أن الجنود البائسين ، النصف موتى من الجوع والنصف غرقى توسلوا أن يعودوا الى بلادهم » (٢٩٧) . أما (برييه) فيعزى ذلك الى سوء التفاهم بين كل من قائد أسطول الروم وبين الملك عموري ، مما أعاق سير العمليات الحربية (٢٩٨) .

أما المؤرخون المسلمون فيذكر بعضهم أن رحيلهم جاء على أثر توالى ارسال القوات من بلاد الشام الى مصر وتشديدهم الهجوم على الصليبيين والروم ، وفي نفس الوقت انزال نور الدين أشد الضرر بممتلكاتهم في بلاد الشام ونهبها وتخريبها (٢٩٩) . بل أن بعضهم يجعل شدة هجمات نور الدين على ممتلكاتهم الشامية هو السبب المباشر في رحيلهم (٣٠٠) . بينما جعل

295. William of Tyre : Op. Cit., V II, p. 368.

وهو هنا يشير الى المسلمين بالكفار كما عهدناه دائما في تحيزه لآخوانه في الدين .

296. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 444.

297. Stanley Lane Poote : Op. Cit., p. 105.

298. Bréhier : Vie et Mort..., p. 339.

(٢٩٩) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل .
مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٣٠٠) أبو الفدا : المختصر ٠٠٠ ، ج ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٨ ، الذهبي :

دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

بعضهم انتشار الوباء والمرض فيهم هو سبب الرحيل . فقد ذكر البندارى «دب فيهم الفناء وهب عليهم البلاء » (٣٠١) أما ابن أيبك فيقول « وقع فيهم وباء ومرض ، حتى لا عاد منهم من يطيق يقف على قدميه » (٣٠٢) . أما ابن شداد فيذكر أنه « بان للفرننج الخسران وظهر على الكفر الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ويسلمون بنفوسهم » (٣٠٣) .

هنا أيضا يعطينا ميخائيل السرياني رأيا فريدا عن شروط الصلح الذي وقع بين صلاح الدين من ناحية والملك الصليبي من ناحية أخرى ، فقد ذكر أن « الضريبة التي أجبر المصريون على تقديمها للملك ، دفعت على شكل مبلغ كبير من الذهب ، وأذهم تعهدوا بتقديم نفس المبلغ في المستقبل ، بن وتعهدوا لاثبات حسن نواياهم أن يقدموا له بعض الرهائن ، ويرجع ذلك الى أن يوسف (صلاح الدين) لم يكن آنذاك في وضع يسمح له بدفع الفرنج » (٣٠٤) .

والحقيقة اننا نلمح في ثنايا السطور التي دونها ميخائيل السرياني أنه يجعل صلاح الدين في شكل المتلطف على عقد تلك المعاهدة وأنه لم يكن بوسعه الصمود لهم . ولكن واقع الأمر كان غير ذلك تماما لأن الصليبيين هم الذين كانوا تواقين لعقد الصلح والعودة السريعة للأسباب التي أشرنا اليها من قبل ، وربما طلبوا ذلك المبلغ الذي دفع لهم كي يستطيعوا أن يشتروا بعض المؤن ، كي يتقوا بها هم وحلفائهم الروم ، وبذلك يستطيعوا أن يبدأوا رحلة العودة بعد أن أضعفهم الجوع والمرض .

وبالإضافة الى ذلك فان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين ذكروا فقط أنه اتفق على أن تدفع دمياط فدية للصليبيين قبل أن يرحلوا (٣٠٥) . ومن المرجح أنهم نقلوا رواياتهم عن مصادر أخرى غير ميخائيل السرياني .

(٣٠١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ١١٧ .

(٣٠٢) ابن أيبك الداودارى : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٤١ .

(٣٠٣) ابن شداد : الزواهر السلطانية ، ص ٤٣ .

304. Michel Le Syrien (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.

305. J. Prawer : Op. Cit., T. I, p. 444, Runiciman : Op. Cit., V. 2, p. 387.

والحقيقة أنه تم بالفعل توقيع معاهدة للسلام والصلح بين الجانبين الصليبي والمصرى ، ووافق الروم على شروطها ، وأعلن السلام وبدأ الجميع يتحركون بحرية حتى أن وليم الصورى ذكر لنا « أن الجانبين استطاعا بحرية أن يتاجرا مع بعضهما البعض ، وأعطى السماح للجميع ليبيعوا ويشترؤا أو يتبادلوا كما يريدون » (٣٠٦) .

بينما ذكر (ستانلى لين بول) أن السكندريين الذين عرفوا بالكرم وبأنهم عمليين أكثر فتحو أسواقهم للغزاة الذين كانوا يعانون من المجاعة (٣٠٧) ولا ندرى هل كان يقصد هنا أهل الاسكندرية أم أهل دمياط ، خصوصا وأن الحديث هنا عن دمياط . ومما يرجح أن تكون المقصودة هى مدينة دمياط ما ذكره (ستون) من أنه سمح للمسيحيين بالدخول الى دمياط والمتاجرة كيفما شاءوا (٣٠٨) .

والحقيقة أن حصار الصليبيين والروم لدمياط استمر حوالى شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١١٦٩ م كما دوت المصادر والمراجع الأجنبية (٣٠٩) . أما المصادر العربية فبعضها ذكر مدة الحصار بأحصاء عدد أيامه ، وبعضها الآخر دونها بالتاريخ الهجرى . فمثلا الغالبية العظمى من المصادر العربية ذكرت أن الحصار استمر خمسين يوما (٣١٠) . فى

306. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368.

هنا يذكر وليم أن ذلك استمر لمدة ثلاثة أيام وأن المسيحيين استخذموا السوق نفسه مع المسلمين الذين بصر باستمرار على نعتهم (بالكفرة) . ومما يجدر ذكره أن وليم الصورى لم يصرح لنا بشيء من تلك الشروط وربما يرجع ذلك الى أنه لم يكن لديه بيان وافى عنها مما جمعه من معلومات .

307. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

308. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 558.

هنا يعطينا رنسيما تفسيرا له وجاهته عن سبب اقدام الملك عمورى على عقد الصلح مع صلاح الدين ، أنه رغب فى « أن تحرره صداقته لصلاح الدين من نور الدين الذى كانت علاقاته معه تتسم بشيء من قلة المودة » .

309. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 363, 368, L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

(٣١٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، الباهر ، ص ١٤٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، دار المعرفة لبنان ، ص ٤٨ ، الذهبي : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٧٨ ، اليافعى : مرآة الجنان =

حين أشارت بعضها الى أنه دام احدى وخمسين يوما (٣١١) بينما ذكر البعض الآخر أنه استمر ثلاثة وخمسين يوما (٣١٢) . كذلك ذكرت بعض تلك المصادر أن الحصار بدأ فى مستهل صفر وانتهى فى الحادى والعشرين من ربيع الأول ٥٦٥ هـ (٣١٣) . أو « لتسع بقين من ربيع الأول » سنة ٥٦٥ هـ (٣١٤) . وهكذا رحل الصليبيون والروم خائبين خاسرين « وحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم » (٣١٥) .

ولقد كانت تلك النتيجة دافعا لكثير من مؤرخى الغرب الى اعتبارها « كارثة » (٣١٦) أو الى القول بأن تلك الحملة « انتهت نهاية مخزية شائنة » (٣١٧) وهكذا توج الفشل ذلك المجهود الحربى الكبير الذى قام به الصليبيون والروم ضد مصر فى ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م .

ويقال أنه عند عودة الصليبيين الى بلادهم وجدوها خاوية خربة وأهلها بين قتلى وأسرى فانطبق عليهم المثل القائل : « خرجت النعمة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » (٣١٨) .

وعبرة الیقظان ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٣١١) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٧ .

(٣١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٣١٣) البندارى : سنا البرق الشامى ، ق ١ ، ص ٨٦ - ٨٧ ، أبو شامة :

الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٤١ .

(٣١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

(٣١٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٤ ، ج ١ ،

ص ٨٥ . هنا يذكر لنا ولیم الصورى ومن أخذ عنه مثل رنسيما أنهم هم الذين أحرقوا بأنفسهم آلاتهم الحربية وحطموها كي لا تقع فى أيدي المسلمين وأن ذلك كان فى ١٣

ديسمبر ١١٦٩ م .

William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 388.

(٣١٦) على سبيل المثال لا الحصر :

Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105, Cam. Med. Hist., V. IV, Part, 1, p. 236.

317. Stevenson : Op. Cit., p. 196.

(٣١٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ .

وهنا يتبادر للذهن سؤال هو : ماذا كان مصير الحملة الصليبية الرومية المشتركة على مصر بعد عقد الصلح مع صلاح الدين ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نبرز نقطتين • الأولى هى طبيعة العلاقة بين القوات الصليبية والقوات الرومية آنذاك • والثانية عن رحلة العودة لكل من الطرفين •

أما النقطة الأولى فأننا نقرأ عن تأنيب الطرفين بعضهما لبعض (٣١٩) • وربما كان الروم أكثر تأنيبا للصليبيين بسبب تأخرهم المستمر حتى تسببوا فى النهاية فى نفاذ مؤنهم وغير ذلك من المواقف الحرجة التى تعرضوا لها ، بل ان كل منهما كان يشك فى الآخر ، فالصليبيين فسروا رغبة قائد أسطول الروم الملحة فى الاسراع بالهجوم بأنه كان يريد كسبا لامبراطوريته فقط ، وفى نفس الوقت تهاومت القوات الرومية بخيانة الملك عمورى للقضية التى قدموا من أجلها وأنه دخل فى مفاوضات مع المسلمين من أجل الصلح •

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فقد رجع الصليبيون بخطوات مكرمة من حيث أتوا ، سالكين نفس الطريق الذى قدموا منه ، فوصلوا عسقلان فى ٢١ ديسمبر ثم وصلوا الى عكا عشية عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام (٣٢٠) • أما فيما يخص القوات الرومية فأننا نعود مرة ثانية لنقرأ رأيا ينفرد به ميخائيل السريانى يشير فيه الى « أن ملك القدس عاد الى بلاده وترك القوات الرومية وأنها عندما لم تستطع الاستيلاء على أى أراضى رحلوا عن طريق البحر » (٣٢١) ونحن نستبعد أن تكون القوات الرومية قد تخلفت فى مصر بعد رجوع الملك عمورى لكى تستولى على أى أراضى خصوصا وأن تلك القوات كانت فى حالة يرثى لها من الضعف كما أسلفنا •

والواقع أن القوات الرومية أبحرت عائدة فى حالة من الاضطراب

-
319. Stevenson : Op. Cit., p. 196, Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 388, The New Encyclopaedia Britannica, V. 5, (1768), p. 302.
320. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 368.
321. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.

والقوضى الشديدة (٣٢٢) . « وبدأت رحلة العودة فى صعوبة ومشقة بالغة » (٣٢٣) . والراجح أن ذلك كان راجعا بالطبع الى سوء حالتهم الصحية الى جانب انخفاض روحهم المعنوية أيضا . وفجأة هبت ريح عاتية أدت الى تحطيم غالبة قطع الأسطول الباقية . وقذفت بحطامها على الشاطئ « وهكذا غرق كل شئ تقريبا » (٣٢٤) . وراح ضحية تلك العاصفة أعدادا كبيرة من الروم (٣٢٥) .

وهكذا جاء تعليق (لين بول) أصدق ما يكون على ما لحق الأسطول الرومى من ضرر فى ذلك الوقت حين قال : « ألفت جثث موتى الروم على الشاطئ الذى قدموا من أجل الاستيلاء عليه » (٣٢٦) .

هنا يحاول وليم الصورى أن يفلسف لنا حقيقة موقف قوات الروم ، ومدى مسؤوليتها عن النتيجة النهائية لتلك الحملة . فيقول أنه بالرغم من عدم تواجده بالمملكة معظم سنة ١١٦٩ م الا أنه بمجرد عودته سأل الملك وبعض رجال المملكة البارزين عن سبب النتيجة المؤلة لتلك الحملة الكبيرة التى وجهت لأداء مهمتها تحت إمرة عدد من الأمراء المشهورين وأنه ظل يجمع التقارير المختلفة المستفيضة عن هذا الموضوع كى يكشف حقيقة الأمر .

وكل ما توصل اليه وليم فى النهاية هو « أن مبعوثى الامبراطور بذلوا كل الجهود الممكنة لانجاز المهمة الموكلة اليهم لكنهم أجبروا على العودة دون احراز النجاح ، عادوا حزانا القلب ، مروعين بمنافسة القدر . لأنهم خافوا أن امبراطورهم المعظم سوف يتهمهم بجانب ترك مهمتهم بدون اذن ، بأنهم سبب النتيجة المؤلة للحملة » . ثم يعود وليم فى موضع آخر فيؤكد أن الروم لايمكن أن يخرجوا بدون لوم من هذا الحادث . فقد وعد الامبراطور وعدا أكيدا بارسال المال الكافى لتأييد الجيش العظيم ، ولكن الأحداث أثبتت أن وعوده

322. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

323. William of Tyre : Op. Cit., V. II, p. 369.

324. William of Tyre : Ibid., V. II, p. 369.

325. Michel Le Syrien : (R.H.C.), Documents Arméniens, T. 1, p. 370.

326. Stanley Lane Poole : Op. Cit., p. 105.

كانت زائفة • فمئذ اللحظة التي ذهب فيها مندوبيه الرئيسيين الى مصر ، كان المفروض أن يمدوا حلفائهم من السخاء الامبراطورى ، الا انهم بدأوا هم أنفسهم يعانون ضغط الحاجة » (٣٢٧) •

والواقع أنه بقدر ما كشفت حملة الصليبيين والروم على دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م من فرقة وتنافر فى الاتجاهات بين الحليفين ، بقدر ما أبرزت مدى الترابط بين المسلمين فى الشرق ، ولو فى ذلك الوقت على الأقل ، فقد تناسى الجميع الى حد ما خلافاتهم المذهبية بين الشيعة والسنة وجعلوا الدفاع عن الاسلام هو هدفهم الاسمى • فهذا نور الدين لم يبخل بإرسال كل ما من شأنه أن يعلى كلمة الاسلام والمسلمين الى مصر ، دون النظر الى وضع مصر آنذاك ضمن دائرة الخلافة الفاطمية الشيعية • كما أنه يجب علينا أن ننوه هنا بالدور المرموق والجهد الايجابى الكبير الذى بذله صلاح الدين فى صد تلك الحملة مما كان دافعا لكثير من شعراء ذلك العصر على مدحه والاشادة بجهده البارز (٣٢٨) •

ويعضد رأينا فى أهمية القيادة المحنكة ما ذكره الدكتور حامد غنيم حين عقد مقارنة جميلة ومعبرة جدا بين صورتين لمصر ، صورة سجلتها أحداث شهر صفر سنة ٥٦٤ هـ ، والصورة الأخرى سجلتها أحداث شهرى صفر وربيع الأول من السنة التالية • ففى الصورة الأولى هوجمت مصر وانتهكت حاضرتها ، أما فى الثانية فقد صمدت دمياط ، وأرغمت الغزاه على التقهقر دون أن يحققوا شيئا من مخططاتهم ، والفارق بين الحالتين أمر واحد هو تغيير القيادة ، ففى سنة ٥٦٤ هـ كان شاور الذى كانت تحكمه مصالحه الشخصية هو الذى يقود مصر ، وفى سنة ٥٦٥ هـ كان القائد هو

327. William of Tyre : Op. Cit., V. II, pp. 369-370.

(٣٢٨). أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢ • على سبيل المثال لا الحصر :

رجا الكلب ملك الروم ان ذاك فنحسها

فضاف فأم الملك والروم هابل

هنيت صموثك دمياط التي اجتمعت

لها الفرنج فما حلو ولا ربطوا

انظر الملحق رقم (٥) •

صلاح الدين بما يمثله من فكرة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين (٣٢٩) .

بل ان الخليفة العاضد الفاطمى نفسه جعل كل امكانياته المادية والعسكرية مسخرة تحت تصرف صلاح الدين كى يتمكن من صد العدوان الصليبي الرومى عن مصر . وقد أشاد صلاح الدين نفسه بكرم وسخاء الخليفة حين قال : « ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها » (٣٣٠) .

بل ان انتصار صلاح الدين والمصريين على الصليبيين والروم أثلج صدر نور الدين وجعله يسرع بإرسال تهنئة غاية فى قمة التعبير اللغوى ، تعبر عما يجيش فى صدره آنذاك بعد ذلك « الظفر الذى أضحك سن الايمان » (٣٣١) .

والحقيقة أن هزيمة التحالف الصليبي الرومى عند مدينة دمياط يعتبر باكورة النتائج الايجابية التى سجلها التاريخ للجبهة الاسلامية نتيجة لتحمل مصر لأعباء الدور الذى كان من المحتم أن تقوم به فى حركة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين (٣٣٢) .

وبتعبير (ستون) كان اخفاق الحملة الصليبية الرومية فى ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ « نقطة فاصلة فى تاريخ الشرق » (٣٣٣) . وكانت أهم نتائج تلك الحملة تقوية مركز صلاح الدين فى مصر (٣٣٤) . لذا بدأ العاضد يتخوف

(٣٢٩) د. حامد غنيم . الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(٣٣٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ ، الكامل ، حوادث ٥٦٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، أبو الفدا . المختصر ، ج ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٩ ، ابن الوردي : تتممة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٣٣١) انظر الملحق رقم (٤) .

(٣٣٢) د. حامد غنيم . الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ،

ج ٢ ، ص ٤٤ .

333. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 558.

334. Setton : Ibid., V. 1, p. 558, L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

من ازدياد نفوذه هو ورفقائه من الأتراك ، وأرسل الى نور الدين يطلب منه أن يسحب القوات التركية المصاحبة لصالح الدين بمصر وأن يقتصر فقط على صلاح الدين وأصحابه ، فما كان من نور الدين الا أن رد عليه بخطاب يمدح فيه الأتراك وأنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه أن « قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الأتراك » (٣٣٥) .

وعليه فان الخليفة العاضد لم يجد بدا من الرضوخ للامر الواقع لأنه كان قد وصل الى حالة من الضعف لا تمكنه من أن يتخذ أى قرار معادى لنور الدين أو حتى لصالح الدين الذى سطع نجمه بسرعة فى مصر . وستثبت لنا الأحداث التالية أن صلاح الدين سيصبح صاحب الكفة الراجحة على حساب النوريين والفاطميين معا .

نعود مرة أخرى الى الملك عمورى بعد وصوله الى مملكته فى أواخر ديسمبر ١١٦٩ م هل عاوده الحنين الى الدخول فى مخاطرة جديدة على أرض مصر ؟ وماذا كان موقفه من امبراطورية الروم آنذاك ؟ ثم ماذا كان موقف الروم من مصر وشواطئها بعد تلك الحملة التى ذاقوا فيها الأمرين ؟

هنا يذكر لنا (ستيفنسون) أن عمورى ملك بيت المقدس قصر جهوده من ذلك الوقت فصاعدا على « الدفاع عن أراضيه الخاصة » (٣٣٦) .

ولكن لما كان دفاعه عن أراضى مملكته لا يمكن أن يتأتى له الا بضمان الاستقرار والهدوء لجبهته الجنوبية والغربية من ناحية مصر أولا ومن ناحية

(٣٣٥) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٨١، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٨٣، ابن الفرات: تاريخه، م ٤، ج ١، ص ٨٧ . هنا يعطينا الدكتور جمال الدين الشيال محقق كتاب مفرج الكروب لابن واصل تفسيراً لمعنى القنطاريات بقوله : القنطارية نوع من الرمح وهى لفظ من أصل يونانى وسميت هكذا لانها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى فى مخطوطته (تبصير ارباب الالياب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء) بقوله أنها أقرب فى شكلها من الرماح المصنوعة من الخشب الزان وما يشبهه . وهى ليست بالطويلة ويطعنون بها . . . وأسنتها قصار عراض كهيئة البلطية . . .

336. Stevenson : Op. Cit., p. 196.

الشمال الى مع نور الدين ثانيا ، لذا نجده يعاود من جديد مراسلة الغرب الأوربي « ليتوسل اليهم أن يرسلوا حملة صليبية جديدة » (٣٢٧) الى الشرق ، وربما يرجع ذلك الى أنه لم يجرؤ في ذلك الوقت بالذات ، ووسط تلك الظروف الصعبة أن يعاود طلب أي نجدة من امبراطور الروم خصوصا وأن النفوس لم تكن صافية تماما بسبب الظروف التي مرت بها حملتهما المشتركة على دمياط سنة ١٠٦٩ م / ٥٦٥ هـ .

لكن ما هي الظروف الملحة التي طرأت في أفق مملكة بيت المقدس والتي جعلت عموري يسارع بطلب النجدة من الغرب في ذلك الوقت بالذات ؟ والرد هو الجهود الايجابية المتتالية التي قام بها صلاح الدين بمهاجمته لقلعة الداروم Darom وهي أهم قلاع الصليبيين على ساحل البحر المتوسط الجنوبي ، ومهاجمته أيضا لقلعة غزة واستيلائه على أيلة على خليج العقبة ، وبذلك بدأ بالفعل تطوير الامارات الصليبية (٣٣٨) .

فماذا كان رد الغرب على سفارته ؟

ان كل ما عادت به سفارته من الغرب ١١٧١ م هو « وعود مبهمة غامضة عن ارسال نجدات » (٣٣٩) دون أن تنجز شيئا ايجابيا (٣٤٠) .

والحقيقة أن عموري ظل مخلصا باستمرار لسياسته التي ترمى الى التحالف الشديد مع امبراطور الروم والاستئجار المستمر والدائم بالغرب (٣٤١) .

ثم لم يلبث عموري أن وجد نفسه مرة ثانية في حاجة ملحة الى الالتجاء الى امبراطور الروم وطلب المساعدة منه ، ولكي يتلافى كل ما كان من نتائجه فشل الحملة التي وجهت الى دمياط من قبل ، توجه بنفسه الى القسطنطينية

337. L. Bréhier : Vie et Mort... p. 340.

338. Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 390-391, Stevenson : Op. Cit., p. 199, The Cambridge Hist. of Islam, p. 202.

339. L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

340. Setton : Op. Cit., V. I, p. 558.

341. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 390.

لِلوُصُول مع الحكومة الامبراطورية الى خطة جديدة لمهاجمة مصر (٣٤٢) .
وقد غادر الملك عمورى عكا فى ١٠ مارس ١١٧١ م (٣٤٣) متوجها الى دولة
الروم .

وهناك استقبل من الامبراطور مانويل كومنين استقبالا وديا فاخرا .
واذا كان (برييه) قد ذكر أن الامبراطور قد وقع من جديد معاهدة تحالف
مع عمورى (٣٤٤) . فان (ستيفنسون) ذكر أن الملك قد وعد بتقديم المساعدة
له (٣٤٥) . أما (رنسيمان) فيقول أن شروط المعاهدة الجديدة التى تم
الاتفاق عليها « لم تدون » (٣٤٦) وربما اكتفى فيها فقط بالاتفاق الشفوى ،
وكل ما يهمنا من تلك الشروط هنا هو أن الامبراطور وعد بالتكفل بالمساعدة
البحرية والمالية فى أى حملة مقبلة ضد مصر . وهكذا غادر الملك ومن معه
القسطنطينية فى ١٥ يونية وكلهم أمل فى المستقبل (٣٤٧) .

ولكن مهما كانت الشروط ومهما كان الاختلاف فى مدى نجاح تلك
السفارة التى قام بها الملك عمورى بنفسه الى عاصمة الروم ، فان ما نود أن
نؤكد هنا هو أنه لم ترسل حملات مشتركة - صليبية رومية - فى المستقبل
ضد مصر وأن حملة ١١٦٩ م كانت آخر حملة من ذلك النوع .

ومهما كان الأمر ، ففي المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م قطعت خطبة
العاقد لدين الله الفاطمى فى مصر وخطب فيها للمستضى بأمر الله العباسى .
وقد حدث ذلك بالتدريج ، ففي الجمعة الأولى دعى للمستضى بأمر الله فلم

342. L. Bréhier : Vie et Mort..., p. 340.

343. Setton : Op. Cit., V. 1, p. 559, Runciman : Op. Cit. V. 2,
p. 391.

وقد صحبه فى رحلته بعض كبار رجال المملكة مثل اسقف عكا وجيرارد البوجى
Gerard of Poughمارشال البلى .

344. L. Bréhier : Op. Cit., p. 340.

هنا يذكر برييه أنه تم فيها ابعاد كل الشروط والظروف التى لم تعد مجدية .

345. Stevenson : Op. Cit., p. 200.

346. Runciman : Op. Cit., V. 2, p. 391.

347. Runciman : Ibid., V. 2, p. 392.

وهكذا قضى الملك عمورى الفترة ما بين مارس ويونيه فى القسطنطينية
Stevenson : Op. Cit., p. 200.

ينكر أحد ذلك ، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك « ولم ينتطح عنزان » (٣٤٨) .

ثم توفى الخليفة العاضد فى يوم عاشوراء ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، فتولى صلاح الدين حكم مصر ، وأصبح يسيطر على قصر الخليفة وجميع ما فيه (٣٤٩) .

والواقع أن العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين كانت على أحسن ما تكون حتى ذلك الوقت ، ففي صيف ١١٦٩ م عزز نور الدين صلاح الدين فى مصر بكل القوات والاحتياجات ضد المؤامرة والدسائس الداخلية ، كما عززه مرة ثانية فى خريف وشتاء نفس العام ضد الحملة الصليبية الرومية ضد مصر بل أنه ضاعف من هجماته على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام فى نفس الوقت وكان لذلك أثره الواضح فى وضع الصليبيين بين فكي الكماشة ، وكان ذلك أيضا من الأسباب الجوهرية لانسحابهم كما مر بنا .

لكن لم تلبث أن حدثت جفوة بين نور الدين وصلاح الدين ، لكن حسن رأى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، كان له اليد الطولى فى إزالتها وعليه فقد توفى نور الدين دون أن يكون لديه شك فى إخلاص صلاح الدين له وكان ذلك فى « يوم الأربعاء حادى عشر شوال » (٣٥٠) من سنة ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م ، ثم لم يلبث أن لحق به الملك عمورى فى يولية من نفس العام (٣٥١) .

(٣٤٨) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٥٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤
(٣٤٩) ابن الاثير : نفس المصدر والصفحة ، أبو شامة نفس المصدر ، ص ٢٠٠ هنا يخطئ (ستيفنسون) فى القول بأن الخليفة العاضد توفى فى ١٣ سبتمبر ١١٧١ م وفى الجمعة التالية تم الدعاء للخليفة العباسى على المنابر .
(Stevenson : Op. Cit., p. 197).

لكن الراجح أن الدعوة للخليفة العباسى سبقت وفاة العاضد كما أوضحت المصادر العربية ذلك .

(٣٥٠) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٦١ . وعن الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين انظر المصدر نفسه ص ١٥٨ - ١٥٩ .
351. L. Bréhier : Op. Cit., p. 340, Runciman : Op. Cit., V. 2, pp. 398-399, Stevenson : Op. Cit., p. 203.

(هجمات الروم)

الخلاصة

وهكذا كان الاستيلاء على شواطئ مصر حلماً راود باستمرار المتريعين على عرش الروم فعبأوا له الجهود ورسموا الخطط وحشدوا القوات وأرسلوا الأساطيل ، ولا غرو فقد كان امتلاك مصر بصفة دائمة هو الأمل المنشود بالنسبة للروم ، لما كانت عليه من موقع جغرافى ممتاز الى جانب غناها الاقتصادى المرموق وخاصة كمنتج هام للقمح .

ومما يجدر ذكره أن ندون هنا تلك الملحوظة الهامة لأحد المراجع الغربية، وهى التى أكد فيها أن مصر كانت باستمرار بلدا مميزا بالنسبة لحضارة البحر المتوسط ، حيث « أثرت فى تلك الحضارة ولم تتأثر بها » ، ولم تنس الاسكندرية على الاطلاق أنها كانت العاصمة الباعثة على الفجار للبطلمية وأنها لم ترضخ على الاطلاق لسيادة روما أو القسطنطينية سواء فى النواحي السياسية أو الدينية . وبالإضافة الى ذلك فان الملامح والسمات المميزة للحضارة الهندوأوروبية لم تمتد جذورها بعمق على الاطلاق عن أرض مصر » (١) .

والحقيقة أن الساحل الشمالى لمصر كان باستمرار عقبة كأداء لأى غزى أو مهاجم لمصر من ناحية البحر المتوسط وعليه فقد صدق القول بأنه « لا يوجد أى غزو ناجح لمصر من البحر فى الفترة ما بين قيصر وبونابرت » (٢)

وإذا كانت شواطئ مصر الشمالية قد تعرضت - كما مر بنا - للعديد من هجمات الروم البحرية ، فإن دميماط بالذات منيت بأكبر عدد من تلك الهجمات ، ولكنها أثبتت باستمرار قدرتها وشجاعته فى الزود عن أرضها واستطاعت على الدوام أن ترد كيد الروم الى نحرهم وتعيدهم خاسرين .

وإذا كنا قد ركزنا الضوء فى هذا الكتاب على فترة العصور الوسطى بالذات فاننا بتناولنا لجميع الهجمات الرومية على الشواطئ المصرية منذ

1. Allan Chester Johnson and Louis C. West : Byzantine Egypt, p. 4.
2. The Cambridge Hist. of Islam, V. I, p. 192.

أمثال فردريك بربروسا وفيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد فى حملة صليبية جديدة - الحملة الثالثة - عندئذ اختار فردريك الطريق البرى ، وكان قد وصل الى اتفاق مع الروم فى خريف ١١٨٨ م بخصوص مرور القوات الألمانية ووقع معهم معاهدة بهذا الشأن ولكن الروم ساورهم الشك • لدخول بربروسا فى مفاوضات مع أعدائهم أمثال سلطان قونية السلجوقى (١٠) • بل ان بربروسا عقد تحالفا مع الصرب والبغار ضد البيزنطيين (١١) •

ولقد صعد علاقات العداء بين بربروسا من جهة وبين امبراطور الروم من جهة أخرى تلك الزيجة التى تمت بين الامبراطور الألماني والنورمان ، فقد تم الاتفاق فى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ بين كل من بربروسا وبين وليم الثانى النورمانى ملك صقلية ١١٦٦ - ١١٨٩ م على زواج ابنه الأول هنرى السادس ، وخليفته فى حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة من الأميرة كونستانس ابنة وليم الثانى والوريثة الشرعية لملكة صقلية لذلك لم يكن غريبا أن يرتاب اسحاق الثانى فى نوايا الامبراطور فردريك حليف وليم الثانى لذا بدأ فى وضع العراقيل فى طريق الجيش الألماني (١٢) •

بل ان امبراطور الروم اتجه الى صلاح الدين الأيوبي الذى كانت تربطه

10. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246,

هنا يذكر د. حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٧ • أن معاهدة ١١٨٨ م التى عقدت فى نوفمبر بين اسحاق الثانى وفردريك بربروسا كانت تنظم العلاقة بين الجيش الألماني الذى سيمر بأراضى الامبراطورية البيزنطية وبين الامبراطور البيزنطى وتعهد اسحاق الثانى بمقتضاها أن يقدم المؤن والعلوفات اللازمة للجيش الألماني •

11. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 406.

(١٢) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣١ • هنا يذكر نفس المرجع عن Tout, Finlay أن الاوامر الامبراطورية صدرت بقطع الاشجار الضخمة ووضعها فى الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الألماني وتقدمه فى اراضى الامبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش الألماني وفى نفس الوقت منع الامبراطور البيزنطى عن الجيش الألماني تزويده بالمؤن والعلوفات اللازمة والتى كانت ضرورية بالنسبة للجيش الألماني الضخم البالغ عدده مائة ألف مقاتل •

به آنذاك علاقات ودية وتحالف ضد عدوهما المشترك سلطان سلاجقة الروم (١٣).^٥ وجذب اسحاق الثاني انجليوس مرة أخرى المعاهدة التي كانت قد عقدها أندرونيكوس مع صلاح الدين على شرط ضرورة «تعويق مرور الجيش الصليبي الألماني» (١٤).^٥

وأكثر من ذلك فقد أرسل اسحاق الثاني الى صلاح الدين يخبره بقدم ببروسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس وذلك حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود في وجهه (١٥).

ولكن رغم كل الاجراءات التي اتخذها الامبراطور اسحاق الثاني لتعويق

(١٣) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ . فقد اتفق صلاح الدين الايوبي وامبراطور الروم اسحاق الثاني على اقامة الخطبة العباسية على منابر جوامع القسطنطينية وأرسل صلاح الدين المؤذنين والقراء الى القسطنطينية لهذا الغرض ...
14. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246.

هنا يذكر رنسيمان أن هدف اسحاق الثاني من وراء ذلك التحالف لم يكن تحطيم مصالح الصليبيين بقدر ما كان هدفه كبح جماح قوة السلاجقة (Runciman : Op. Cit., V. 3, p. 12)

أما الدكتور حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ فيوضح لنا أبعاد المعاهدة التي كانت بين أندرونيكوس وصلاح الدين والتي حالت بعض نصوصها بالإضافة الى الظروف المحيطة بامبراطورية الروم نفسها دون تنفيذها . فقد اقترح الامبراطور أندرونيكوس عن طريق سفارة أرسلها الى صلاح الدين في صيف ١١٨٥ قيام تحالف بينهما وأن يقوما بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال الروم بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان . وأنه إذا تم الاستيلاء على أسيا الصغرى فسوف تعبد للروم ، وفي مقابل ذلك وعد أندرونيكوس صلاح الدين بالمساعدة في صراعه ضد الصليبيين في الشام . وهنا يضيف الدكتور ربيع أنه من المحتمل أن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة وطالبت بتنازلات كثيرة في فلسطين بما في ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية لذلك عارض صلاح الدين ذلك ولم يتلق صلاح الدين ردا جديدا على شروطه الخاصة بالتحالف الا في عهد اسحاق الثاني ، حيث تلقى الامبراطور الجديد رد صلاح الدين بالترحاب .

(١٥) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .

الامبراطورية موجهة اليها من جانب نورمان صقلية الذين شنوا من جديد هجوما قاسيا ضد الروم .

هنا حاول أندرونيكوس أن يخلص نفسه من هذا المأزق الحرج بالتحالف مع صلاح الدين فى مصر من ناحية ومع البنادقة فى الغرب من ناحية أخرى (٧) .

لكن لم تلبث سالونيك Thessalonica - وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية أن سقطت فى يد النورمان فأنزلوا بأهلها أشد أنواع العذاب والموت . عندئذ قامت فى العاصمة الرومية ثورة عاصفة فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ م انتهت بتقطيع آخر أباطرة أسرة آل كومنين اربا ونودى بإسحاق الثانى انجيلوس Isaac II Angelus امبراطورا (٨) ١١٨٥ - ١١٩٥ م . وهكذا شغل عرش الروم خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١١٨٥ ، ١٢٠٤ م بأفراد من بيت انجيلوس الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياسة حنا أو مانويل كومنين (٩) .

تطورت الأحداث بسرعة بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي الباهر على الصليبيين فى حطين فى يولييه ١١٨٧ م . هنا تحرك ملوك أوربا البارزين

7. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 399, Cam. Med. Hist., V. IV, Part, 1, p. 245.

هنا يحدد لنا الاستاذ الدكتور حسنين ربيع ملايسات ذلك التحالف المصري الرومى بقوله « ان الاستاذ اهرنكريتز Ehrenkreutz : Saladin اشار الى أنه فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر الميلادى تقارب كل من البيزنطيين والايوبيين لمواجهة عدوهما المشترك فالنورمان فى صقلية كانوا ذا خطر على مصر كما هو الحال بالنسبة لبيزنطة وسلاجقة الروم فى قونية استولوا على كثير من الاقاليم البيزنطية فى اسيا الصغرى وهددوا مصالح صلاح الدين فى شمال الشام ، وجـزيرة قبرص التى ثارت ضد القسطنطينية تطلعت كى ترث الصليبيين فى المستقبل . يضاف الى ذلك أن الصليبيين وحلفاءهم فى غرب أوربا كونوا جبهة عدائية ضد البيزنطيين وكذلك ضد الايوبيين . (د . حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٥ .

8. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 400, Cam. Med. Hist., V. IV, Part. I, p. 245.

(٩) ج م هـ : العالم البيزنطى ، ترجمة د . رافت عبد الحميد ، ص ١٩٩ .

أمثال فردريك بربروسا وفيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد في حملة صليبية جديدة - الحملة الثالثة - عندئذ اختار فردريك الطريق البرى ، وكان قد وصل الى اتفاق مع الروم في خريف ١١٨٨ م بخصوص مرور القوات الألمانية ووقع معهم معاهدة بهذا الشأن ولكن الروم ساورهم الشك . لدخول بربروسا في مفاوضات مع أعدائهم أمثال سلطان قونية السلجوقي (١٠) . بل ان بربروسا عقد تحالفا مع الصرب والبغار ضد البيزنطيين (١١) .

ولقد ضنعت علاقات العداء بين بربروسا من جهة وبين امبراطور الروم من جهة أخرى تلك الزيجة التي تمت بين الامبراطور الألماني والنورمان ، فقد تم الاتفاق في عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ بين كل من بربروسا وبين وليم الثاني النورمانى . ملك صقلية ١١٦٦ - ١١٨٩ م على زواج ابنه الأول هنرى السادس ، وخليفته في حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة من الأميرة كونستانس ابنة وليم الثاني والوريثة الشرعية لمملكة صقلية لذلك لم يكن غريبا أن يرتاب اسحاق الثاني في نوايا الامبراطور فردريك حليف وليم الثاني لذا بدأ في وضع العراقيل في طريق الجيش الألماني (١٢) .

بل ان لمبراطور الروم اتجه الى صلاح الدين الأيوبي الذي كانت تربطه

10. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246,

هنا يذكر د . حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٧ . ان معاهدة ١١٨٨ م التي عقدت في نورمبرج بين اسحاق الثاني وفردريك بربروسا كانت تنظم العلاقة بين الجيش الألماني الذي سيمر بأراضي الامبراطورية البيزنطية وبين الامبراطور البيزنطى وتعهد اسحاق الثاني بمقتضاها أن يقدم المؤن والعلوفات اللازمة للجيش الألماني .

11. G. Ostrogorsky : Ibid., p. 406.

(١٢) د . حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣١ . هنا يذكر نفس المرجع عن Tout, Finlay أن الأوامر الامبراطورية صدرت بقطع الاشجار الضخمة ووضعها في الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الألماني وتقدمه في أراضي الامبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش الألماني وفي نفس الوقت منع الامبراطور البيزنطى عن الجيش الألماني تزويده بالمؤن والعلوفات اللازمة والتي كانت ضرورية بالنسبة للجيش الألماني الضخم البالغ عدده مائة ألف مقاتل .

به آنذاك علاقات ودية وتحالف ضد عدوها المشترك سلطان سلاجقة الروم. (١٣). * وجذب اسحاق الثاني انجليوس مرة أخرى المعاهدة التي كانت قد عقدها أندرونيكوس مع صلاح الدين على شرط ضرورة «تعويق مرور الجيش الصليبي الألماني» (١٤) *

وأكثر من ذلك فقد أرسل اسحاق الثاني الى صلاح الدين يخبره بقدم بريسوسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس وذلك حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود في وجهه (١٥) *

ولكن رغم كل الاجراءات التي اتخذها الامبراطور اسحاق الثاني لتعويق

(١٢) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ . فقد اتفق صلاح الدين الايوبي وامبراطور الروم اسحاق الثاني على اقامة الخطبة العباسية على سنابر جوامع القسطنطينية وأرسل صلاح الدين المؤذنين والقراء الى القسطنطينية لهذا الغرض ..
14. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407, Cam. Med. Hist. V. IV Part. 1, p. 246.

هنا يذكر رنسيمان أن هدف اسحاق الثاني من وراء ذلك التحالف لم يكن تحطيم مصالح الصليبيين بقدر ما كان هدفه كبح جماح قوة السلاجقة (Runciman : Op. Cit., V. 3, p. 12)

أما الدكتور حنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ فيوضح لنا أبعاد المعاهدة التي كانت بين أندرونيكوس وصلاح الدين والتي حالت بعض نصوصها بالإضافة الى الظروف المحيطة بامبراطورية الروم نفسها دون تنفيذها . فقد اقترح الامبراطور أندرونيكوس عن طريق سفارة أرسلها الى صلاح الدين في صيف ١١٨٥ قيام تحالف بينهما وأن يقوموا بفتح فلسطين وأن تقسم بينهما على أن ينال الروم بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان . وأنه إذا تم الاستيلاء على أمبيا الصغرى فسوف تعسود للروم ، وفي مقابل ذلك وعد أندرونيكوس صلاح الدين بالمساعدة في صراعه ضد الصليبيين في الشام . وهنا يضيف الدكتور ربيع أنه من المحتمل أن القسطنطينية ادعت دون وجه حق نوعا من السيادة وطالبت بتنازلات كثيرة في فلسطين بما في ذلك بيت المقدس ومختلف المدن الساحلية لذلك عارض صلاح الدين ذلك ولم يتلق صلاح الدين رداً جديداً على شروطه الخاصة بالتحالف الا في عهد اسحاق الثاني ، حيث تلقى الامبراطور الجديد رد صلاح الدين بالترحاب . *

(١٥) د. حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .

الجيش الألماني الا أن بربروسا تمكن من الاستيلاء على أدرنه عندئذ لم يجد اسحاق الثاني بدا من الخضوع والتسليم بمطالب الامبراطور الألماني وذلك في ١١٩٠ م (١٦) .

عندئذ لم يسع امبراطور الروم الا أن يسطر من جديد رسالة يعتذر فيها لصلاح الدين عن سماحه للجيش الألماني بالمرور عبر بلاده وهي رسالة تحمل في طياتها التحذير من عدو مشترك يتمنى له اسحاق الثاني الهلاك « وصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعاغا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وأنه مستمر على المودة راغب في المحبة ويعتذر عن عبور الملك الألماني وأنه قد فجع في طريقه بالألماني ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع ويموت بما به كاده وأنه قد بلغ في أذاه اجتهاده » (١٧) .

واذا كان فردريك بربروسا قد اندفع عبر آسيا الصغرى في اتجاه الأرض المقدسة فانه لم يقدر له مطلقا الوصول اليها (١٨) .

ولا يعني هنا تتبع حملة بربروسا (١٩) ، بقدر ما يهمننا أن نشير الى أن عهد صلاح الدين شهد كما سبق الذكر تحالفين بين المصريين والروم أحدهما في عهد أندرونيكوس كومنين والثاني في عهد اسحاق الثاني انجيلوس . وكان هذا هو سر توقف الحملات الرومية الى شواطئ مصر في ذلك الوقت .

ويهمنا قبل أن نختتم هذه النقطة أن نشير الى أن هذا التحالف لم يكن مثمرا بالمرّة وقد أشار الى ذلك صلاح الدين نفسه في إحدى رسائله الى الخليفة العباسي في بغداد عندما قال : « ولا أعتبر بحدوثنا مع صاحب القسطنطينية في أننا ننجده على قبرس فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لما

16. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 406.

(١٧) أبو شامة : الروضتين ٠٠ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، حوادث ٥٨٦ هـ .

18. G. Ostrogorsky : Op. Cit., p. 407.

(١٩) انظر كتاب الدكتور حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا لمعرفة تفاصيل تلك الحملة الصليبية .

- ١٦٩ -

كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر
أن يكون عدوا « (٢٠) .

وهكذا توقفت هجمات الروم البحرية ضد الشواطئ المصرية على عهد
صلاح الدين الأيوبي ، ولم يعد الروم يشكلون خطرا قريبا أو بعيدا بالنسبة
لمصر .

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله
المؤمنين القتال .

تم بحمد الله

ملحق رقم (١)

كتاب هرقل (لقرة) أسقف الاسكندرية يعتذر عما بدر منه تجاهه ويطلب
منه مباداة المسلمين عن :

Agapitus : Kitab Al-Unvan, Patrologia

Orientalis, V. VIII, pp. 473-474.

« أما بعد فإن قوما أعطوني فيك العشوا ورفعوا التي عنك الباطل
فأسرعت الى القبول منهم وأجبتهم الى ما سألوا وقد علمت أن هؤلاء أرسلوا
كافة على الناس وإن الله قد كان وعده إبراهيم بن اسماعيل أن يخرج من ظهره
ملوكا كثيرة ووعده الله أن لا يهلكه ولا يندفع • فإن قدرت على مباداة القوم
ودفعهم عن مصر بما عزّوا فافعل وإذا استطعت أن تدفع اليهم الشرط الأول
الذي كتب ووافقتهم عليه فافعل ذلك فقد قلدتك أمر مصر وفوضت اليك أمرها
واعمل بحسبه » •

ملحق رقم (٢)

وصف رسل المقوقس للعرب الفاتحين

عن : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٦٥

« ٠٠٠ رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب اليه من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعيهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ٠ فقال عند ذلك المقوقس ، والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ٠٠ » ٠

- ١٧٢ -

ملحق رقم (٣)

خطاب أسد الدين شيركوه الى

عمورى ملك بيت المقدس ٥٥٩ هـ (*)

عن : ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار
ملوك بنى أيوب ، ص ٢٧ .

« ليس لك فينا غرض ، ولا معنا مال يقنعك ، فان شاور غدرنا ، ولم
يوفنا ما شرطه لنا من المال . ونحن قوم غرياء من هذه الديار ، أتينا لنصرة
هذا الغـاسـار والبغى له مصرع . وأنت تعلم أن وراءنا مثل الملك العادل
نور الدين . وكأنك به وقد أطل عليك بجيوش تعرفها ولا تنكرها وأنت قصدك
مال ومصر قدامك ، وهى أحب اليك من مطاولتنا بغير فائدة لك . وليس بمصر
مانع يمنعك عنها . فان تركت البغى ، وقنعت بما فى أيدينا من فضلات نفقاتنا
نفذناها اليك ، وتدعنا نرجع الى بلادنا وأن أبيت فنحن والله ما يقتل الواحد
منا حتى يقتل عدة منكم . وبعد ذلك ، المدد وأصل إلينا والسلام »

(*) هنا يطلق ابن أيبك اسم مرى على عمورى ويسميه ملك الروم وهذا خطأ .
والراجح أن هذا الخطاب أرسل الى الملك عمورى بعد سلخ جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ
وذلك بعد مقتل ضرغام ودخول أسد الدين شيركوه وصلاح الدين القاهرة فى وزارة
شاور (ابن أيبك : كنز الدر ، ج ٧ ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب . ص ٢٧) .

- ١٧٢ -

ملحق رقم (٤)

مقتطفات من كتاب نور الدين الى الخليفة العاضد

بعد رحيل الصليبيين والروم عن دمياط

٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن : البندارى : سنا البرق الشامى القسم الأول ص ٨٧ - ٨٨

« أطل الله بقاء فلان ، ولا زالت عوادي نعمه محدقة بأوليائه احداق
الأجفان بالأحداق ، وعوادي نقمه محرقة لأعدائه احراق النيران أهل الشقاق ،
وأعلنت رايات النصر للدين ، وتليت آيات الذكر المبين .

« الخادم يهنئ بما سناه الله من الظفر الذى أضحك سن الايمان ،
وحصل أهل الشرك فى شرك الخذلان ، وأعاد جيش الكفر واهى الجأش ،
ويدا الضلالة بادية الارتعاش حتى عاد حزب الشيطان مخذولا ، وسيف الله
فى رقاب أعدائه مسلولا . وذلك ببركات الدولة التى سطع فجرها . ولولا
صدق اهتمامه بأهل الاسلام وحفظ الأولياء الذين يذبون عن الدين ويحافظون
على الذمام ، لكان ركن الحق يميل لكيد الباطل . فوفق الله فلانا وأيده بنصره ،
وأجرى قضائه وقدره على وفق أمره ، ورد كيد العدو والكافر فى نحره .

ملحق رقم (٥)

مختارات من الأشعار التي قيلت فى مدح صلاح الدين

بعد انتصاره على الصليبيين والروم فى دمياط ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م

عن أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢

للشهاب فتیان الشاغورى قصيدة يقول فيها :

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم
ولما أتو دمياط كالبحر طاميا
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم
رأوا دونهم أسد بأيديهم القنا
وداروا بها فى البحر من كل جانب
رجا الكلب ملك الروم ان ذاك فتحها
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة

ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
لديه رماح أشرعت أو سلاسل
وليس له من كثرة القوم ساحل
ألوف ألوف خيلهم والرواجل
وبيضاً رفاقاً أحكمتها الصياقل
ومن دونها سد من الموت حائل
فخاف فأم الملك والروم هابل
كأنهم ذلاً نعام جوافل

وللعماد الأصفهاني :

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا
حللت من وسط العلياء فى شرف
هنيت صوتك دمياط التى اجتمعت
بجده صاعدا أعداؤه هبطوا
ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا

وللعماد أيضا :

يوسف مصر الذى ملاحمها
كتب التواريخ لا يزينها
وحطت دمياط أن أحاط بها
لاقت غواة الفرنج خبيثها
أوردت قلب القلوب أرشية
يمضى لك الله فى قتالهم

جاءت بأوصافه تعرفها
الا بأيامه مصنفها
من برجوم البلاد يقذفها
فزاد من حسرة تنسفها
من القنا للدماء تنزفها
عزيمة للجهاد ترهفها

المصادر والمراجع

(١) المصادر العربية

- ١ - ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
الشيبيانى الملقب بعز الدين :
أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
(١) الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ /
١٩٧٨ م .
- (ب) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) - تحقيق
عبد القادر أحمد طليمات ، الطبع والنشر دار الكتب الحديثة
بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد .
- (ج) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المجلد الثانى - كتاب الشعب
٢ - ابن اياس : ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م)
أبو اليربكات محمد بن أحمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، من سلسلة كتاب الشعب ج ١ .
- ٣ - ابن ابيك الدوادارى : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
أبو بكر عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر
المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح
عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .
- ٤ - البلاذرى : (ت حوالى ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ هـ)
أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه
عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ،
بيروت ، ١٣٧٧ هـ / ١٢٤٤ م)
- ٥ - البندارى : (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ هـ)
قوام الدين الفتح بن على ، سنن البرق الشامى ، تحقيق الدكتور رمضان
ششن ، القسم الأول ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، الطبعة
الأولى ١٩٧١ م .

- ١٧٦ -

- ٦ - أبى الجوزى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)
أبو الفرج عبد الرحمن بن على : تاريخ عمر بن الخطاب ، تقسيم
وتعليق أسامة عبد الكريم الرفاعى .
- ٧ - ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ، ٤ ، ٥ ،
١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ٨ - الذهبى : (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان : دول الاسلام ،
ج ١ ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
- ٩ - السيوطى : (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر :
(أ) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبى
الفضل ابراهيم ، الجزء الأول ، دار احياء الكتب العربية الطبعة
الأولى ، ١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ ، ج ٢ ، ١٩٦٨ م - ١٣٨٧ هـ .
(ب) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد ، مطبعة
السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .
- ١٠ - أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى : الروضتين فى أخطار
الدولتين ، رواية الأمام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن
عبد الله الشافعى ج ١ ، ٢ دار الجيل بيروت .
- ١١ - ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)
بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع : النوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، سلسلة تراثنا ، الطبعة
الأولى ١٩٦٤ .

١٢ - الشرقاوى :

الشيخ عبد الله : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسيلاطين
وهو هامش لكتاب فتوح الشام للواقدي ، طبعة المطبعة العثمانية
١٣١٥ هـ .

١٣ - الاصطخرى : توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى :
أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى : مسالك
الممالك ، معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبى زايد أحمد بن سهل
البلخى .

١٤ - الطبرى : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، ج ٤ ، ٥ دار المعارف بمصر .

١٥ - ابن عبد البر : (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد : الاستيعاب فى معرفة الصحابة ،
القسم الثانى حرف الخاء ، تحقيق على محمد البجاوى ، مطبعة
النهضة بمصر .

١٦ - ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م)

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى
المصرى :

(أ) فتوح مصر وأخبارها ، طبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٠
- مكتبة المثنى ببغداد .

(ب) فتوح أفريقيا والأندلس ، حققه وقدم له د . عبد الله أتياس الطباع ،
دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ .

١٧ - العسقلانى : (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)

شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن حجر : تهذيب التهذيب ،
ج ٨ ، دار صادر بيروت .

(هجمات الروم)

- ٢٧٨ -

- ١٨ - ابن العماد : (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م)
أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد : شذرات الذهب فى أخبار
من ذهب ، ج ١ ، ٢ ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ،
بيروت لبنان .
- ١٩ - أبو الفدا : (ت ٧٢٢ هـ / ١٢٣١ م)
الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ،
٢ ، ٣ ، ٤ ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية .
- ٢٠ - ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)
ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع
الجزء الأول ، تحقيق ونشر الدكتور حسن محمد الشماع ، مطبعة
حداد ، بصرة عشار ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٢١ - القزوينى : (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، دارصادر
وبيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٢٢ - القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
أبو العباس أحمد : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٥
- ٢٣ - ابن القلانسي : (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)
حمزة بن يعلى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ، مطبعة الآباء
اليسوعيين ، ١٩٠٨ .
- ٢٤ - ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية فى التاريخ ،
تحقيق ومراجعة محمد عبد العزيز النجار ، ج ٧ مؤسسة دار العربى
للنشر والتوزيع . الرياض .

١٧٩ -

٢٥ - الكندي : (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)

أبو عمر محمد بن يوسف : كتاب الولاء وكتاب القضاء ، طبع بمطبعة
الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ .

٢٦ - أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى : النجوم
الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ٥ ، ٦ ، نسخة مصورة عن
طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة
والنشر ، ج ٥ مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٥ م - ١٣٥٣ هـ

٢٧ - المقرئى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)

تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد :
(١) اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ،
القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م .
(ب) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار التحرير للطبع
والنشر ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

٢٨ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م)

محمد بن على بن يوسف بن جلب : أخبار مصر ، ج ٢ ، مطبوعات
المعهد العلمى الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقية بمصر ١٩١٩ .

٢٩ - ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م)

جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب ،
ج ١ تحقيق الدكتور جمال الدين الشال ، مطبوعات إدارة أحياء
التراث القديم ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣

٣٠ - الواقدى : (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)

أبو عبد الله بن عمر : فتوح الشام ، ج ٢ ، دار الجيل ، ج ٢ طبعة
المطبعة العامرية العثمانية بباب الشعرية ، صفر ١٣١٥ هـ .

٣١ - اليافعى : (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)

أبو محمد عبد الله بن سعد بن على بن سليمان : مرآة الجنان وعبرة

— ١٨٠ —

الليقظان، ج ٣ الطبعة الثانية، منشورات مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٣٢ - اليعقوبی : (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)
أحمد بن أبی یعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح : تاريخه ، المجلد الثاني ، دار صادر وبيروت ، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م بيروت .

(ب) المراجع العربية والمعرية :

١ - ابراهيم أحمد العدوی : (الدكتور)
الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربي .

٢ - أرنست باركر :
الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العرينی ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية بيروت لبنان .

٣ - أسد رستم : (الدكتور) :
الروم سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج ١ ، ٢ دار المكشوف ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٥ .

٤ - اسمت غنيم (الدكتورة)
الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المجمع العلمي بجدة ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٥ - السيد الباز العرينی : (الدكتور)
(١) مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦١ .
(ب) الدولة البيزنطية ، ٣٢٣ - ١٠٨١ م ، بيروت ١٩٨٢ .

- ٦ - ج.م. هسى :
العالم البيزنطى ، ترجمة الدكتور رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثانية ،
دار المعارف .
- ٧ - حامد زيان : (الدكتور)
الامبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ١٩٧٨ .
- ٨ - حامد غنيم أبو سعيد : (الدكتور)
الجهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، الجزء الثانى ، الطبعة
الأولى ، القاهرة ١٩٧٢ .
- ٩ - حسن إبراهيم حسن : (الدكتور)
تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٠ - جسنين محمد ربيع : (الدكتور)
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٣ هـ
١٩٨٣ م .
- ١١ - زلمبور : (المستشرق)
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، مطبعة
جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ .
- ١٢ - سعاد ماهر : (الدكتور)
البحرية فى مصر الإسلامية وأثارها الباقية ، دار الكاتب العربى
للطباعة والنشر .
- ١٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور : (الدكتور)
(أ) بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، جامعة بيروت
العربية ، بيروت ١٩٧٧ .
(ب) الحركة الصليبية ، ج ١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ، سنة
١٩٦٣ .

- ١٨٢ -

- ١٤ - سيّدة كاشف : (الدكتورة)
 (أ) مصر فى فجر الاسلام ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ •
 (ب) مصر فى عصر الاخشيديين ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ •
 (ح) العرب والبحار ، الكتاب السنوى الثانى ، كلية البنات بالرياض
 للعام الجامعى ١٣٩٦/٩٥ هـ
- ١٥ - عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عبد الفتاح عاشور •
 مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٠ •
- ١٦ - على ابراهيم حسن : (الدكتور)
 مصر فى العصور الوسطى : الطبعة الخامسة ، مطبعة السعادة
 ١٩٦٤ •
- ١٧ - قدرى قلجى :
 صلاح الدين الايوبى : قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين
 الثانى عشر والثالث عشر للميلاد دار الكاتب العربى •
- ١٨ - نظير سعداوى :
 جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ •
- ١٩ - نقولا يوسف :
 تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، الاتحاد القومى بدمياط •
- ٢٠ - وسام عبد العزيز فرج : (الدكتور)
 العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف
 القرن الثامن الميلادى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية
 ١٩٨١ •

(ج) المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Agapitus de Menbidj: Kitab Al Unvan, Patrologia Orientalis, V. VIII (Tomus actavus).
2. Anna Comnena : The Alexiad, translated by Elizabeth. A.S. Dawes, London, 1967.
3. Bréhier (L.) : Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.
4. Butler (A.J.), D. Litt, F.S.A.: The Arab conquest of Egypt and the Last thirty years of the roman dominion, Oxford At the Clarendon. Press 1902.
5. Daniel (N.) : The Arabs and Mediaeval Europe, Longman, London and New York, Librairie du Liban.
6. Dawsan (C.) : Le Moyen-age et les origines de L'Europe, Arthaud, France.
7. Fahmy (A.M.) (Doctor) : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean From the Seventh to the Tenth Century A.D. National Publication Printing House Cairo, U.A.R.
8. Gibb (H.) : The Life of Saladin from the works of Imad Al-Din and Baha Al-Din, Oxford. At the Clarendon, Press 1973.
9. Grousset, R. : L'Empire du Levant, Paris 1949.
10. Johnson (A.C.) and Louis C. West: Byzantine Egypt, Economic Studies, Preinceton University Press, 1949.
11. Lane-Poole (S.), M.A. : a) Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, G.P. Putman's Sons, New York, London.
b) A History of Egypt V. I, London 1936.

12. Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History, General Editor : Marcel Dunan, Honorary, Foreward by Arnold Toynbee Hamlyn, London, New York, Sydney, Toronto.
13. Lemerle (P.) Le Monde de Byzance, Histoire et Institutions, Variorum reprints, London 1978.
14. Lewis (B.) : The Arabs in History, Hutchinson of London.
15. Michel Le Syrien Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, T. 1.
16. Ostrogorsky (G.) : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussy, Oxford, 1968.
17. Prawer (J.) : Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, Tome 1, Paris 1969.
18. Runciman (S.) : A History of the Crusades Volume 2, 1952, V. 3.
19. Setton (K.M.) : A History of the Crusades Volume 1, Edited by Marshall W. Baldwin, the University of Wisconsin Press, Madison, London, 1969.
20. Stevenson (W.B.) : The Crusaders in the East, Cambridge University Press.
21. The Cambridge History of Islam, Volume 1, edited by P.M. Holt, A NN, K.S. Lambton, Bernard Lewis Cambridge, At the University Press, 1970.
22. The Cambridge Medieval History (Cam. Med. Hist.) V. IV. The Byzantine Empire, Part, 1, Byzantine and its Neighbours, Cambridge, the University Press, 1966.

23. The Chronography of Gregory Abul Faraj, Commonly Known as Bar Hebraeus. Translated by Ernest A. Wallis Budge Volume 1, Oxford University Press London, 1932.
24. The New Encyclopaedia Britannica, Volume 5, (1973-1974) Helen Hemingway Benton, Published.
25. William H. McNeill : A world History, New Edition, Oxford University Press, 1979.
26. William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond the Sea, Volume 1, 2, Translated and Annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York, 1943.

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٩٣٤

